

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الأقصى



العددان الثامن والتاسع السنة السادسة.
ذو الحجة - محرم 1383 - ماي يونيه 1963
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العددان الثامن والتاسع
السنة السادسة
ذو الحجة - محرم 1383
ماي يونيه 1963
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف . الرباط - المغرب

صورة الغلاف



جسر تاريخي قديم تبدو عليه الزخارف والالوان يقع على نهر الجديدة بين فاس ومكناس

بيانات ادارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فاكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حساب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

دراسات إسلامية

بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف

من مهام رسول الإسلام

للاستاذ: محمد الطنجي

رسالة الاسلام شفاء لما في الصدور ، وبعث للقيم الانسانية بعد ان اعتراها خمول وذبول .. وتتميم لمكارم الاخلاق ، باعطاء المثال النموذجي الكامل ، والقدوة الحسنة المثلى لبني الانسان ، حتى يكون المثال الحي للاخلاق والعمل الصالح ماثلا للعيان ، بعد ان كانت العقول لا تتخيل ذلك الكمال الا في الاذهان .. لهذا كان له من الاثر في البشر حياة ونور ورحمة وسرور ، اذ اشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب هداية لاولي الالباب ، وذلك من رحمة الله ، ورفقه بالانسانية ان يكشف الظلام بالنور ، ويجلو صدا القلوب الغافلة بالذكر المسطور ، لقوله تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك » وكما قال : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » ولا غرابة في احراز المومن على اسمى المناقب ، وبلوغه اكمل المراتب اذا اتصل بربه بالسند الروحي بواسطة اعلى الانبياء كعبا ، وابقاهم خلودا وذكرا ، واعظمهم اثرا في تطهير نفوس بني الانسان . ذلك ان الانسان انما ارتقى عن فصيلة الحيوان بروحه وعقله ، فصار بتهذيب طباعه ، وترقية مداركه منسوبا للعلم والفضل. كما صار بتغذية غرائزه السفلى وبانهماكه في شهواته الحيوانية منسوبا للسفه والجهل ... ومن المعلوم ان افراد الانسان متفاوتون في العقول ، مختلفون في النزعات والميول ، والحياة الاجتماعية متاثرة ومسيرة بتفاعل هذه الميول والنزعات والعقول .. كل فرد يؤثر في تلك الحياة حسب طيب عنصره ، وصفاء معدنه وجوهره ، او جبن نفسه ، ونشوز اصله ، وسوء مخبره اذ الناس كما قال الرسول العربي : (معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) .. وعبر عليه السلام عن اثر هذه الخيرية في حياة الناس بقوله : (خيركم من يرجى خيره ، ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره) .

وبناء على هذا التقدير كانت حياة المجتمعات كما يحدثنا التاريخ راقية مهذبة اذا كانت الدعائم التي بنيت عليها قوية سليمة كالعدل والرحمة والتعاون عليهما . وكانت منحطة خشنة متوحشة قاسية اذا غلب عليها الظلم والقسوة والتحزب لهما .

الا ان رحمة الله سبحانه كانت في فترات كثيرة من التاريخ البشري الفظيع تتبع فترات جولات الجحود والظلم بصولات الايمان والعدل ، فتحمي ظالمات من الشر بانوار الحق والخير ، تشع في الوجود فتبني فيه معالم للايمان ، ومعاقل للبر والاحسان ، على ايدي طائفة اصطفاهم الله من خيرة خلقه ، وارسلهم لانقاذ الانسانية من الويلات والشرور ، التي غمرتها وملاتها فتنا ومحنا ، واحقادا واطماعا واحنا ، ومن هذه الفترات وهي خاتمتها الفترة التي ارسل الله فيها خاتم انبيائه ورسله الى الانسانية ، سيدنا محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي عليه السلام ...

ويجمل بنا ان نلقي نظرة عابرة على احوال العالم وقت البعثة المحمدية ، فقد كان العالم وقت مولد هذا الرسول المنقذ العظيم يعيش في ظلم وظلمات ، فاديان الهند طال عليها العهد وتغيرت معالمها وطقوسها في المعبد والبد ، وقسمت الناس الذين هم ابناء آدم الى مراتب وطبقات متفاوتة متباينة ، ينكر الدين الحق تعدادها ، وتسفه العدالة وسائر الاديان الاخرى والعقول اوضاعها ، وامة الفرس وما والاها عششت فيها المجوسية وعبادة النار ، واستفحل الاكاسرة

وعملاؤهم السيطرة للعبث بحقوق الضعفاء من رعاياهم وغيرهم ، فمذهب ماني والمانوية ، ومذهب مزدك الفارسي القائل بشيوع النساء والاموال بين الناس كافة، كل من المذهبين لعب دورا في تحطيم دعائم حياة الفرس الاجتماعية حتى اشرفت على البوار ...

واليهود حرفوا تعاليم التوراة التي فيها هدى ونور ، حيث انغمسوا في حماة المادية والشهوات ، وتعدوا في السبت ، واتبعوا الخرفات والربوبيات فاكلوا الربا وقد نهوا عنه ، وصاروا يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا ، حتى تقمصوا روح القردة ، والخنازير وعبدوا الطاغوت ..

اما الكنيسة منذ القرن الثالث من ميلاد المسيح عليه السلام فقد كان رعاتها - كما يقول « جرجيس سال » الانجليزي - مشتغلين بالمطامع الشخصية يتخذون الغويص من مسائل الدين ذريعة للمشاجرات والمماحكات ، وقد انقسموا فيها الى فرق لا تعد ، ونفوا عن صدورهم ما ندب اليه الانجيل من الموادعة والمحبة والمواساة ، وعدلوا الى المساواة والضغائن ، وسائر انواع المفاسد) ثم قال هذا المسيحي المتوفي سنة 1736 ميلادية : « ومعظم ما ننكر الآن على بعض الفرق النصرانية من باطل العقائد والفساد ، انما نشأ وتاصل في تلك الاعصر ، فعاد بالنفع على الاسلام ، واعان على انتشاره ، ونخص من تلك العقائد بالذكر عبادة القديسين والصور ، فانها كانت قد بلغت وقتئذ مبلغا يفوق كل ما نراه اليوم عند فرق النصارى ...) ثم ذكر ارتباك الكنيسة الشرقية بعد انفضاض المجمع النيقاوي كما ذكر حال الكنيسة الغربية ونزاع « داما سوس » و « اوسيكينوس » على اسقفية روما، وخص بالذكر من اثر هذا النزاع بلوغ عدد القتلى في كنيسة « سيكينيوس » 137 في يوم واحد .. ثم ذكر حال النصرانية في بلاد العرب ، وانتشار بدعة المريميين بها الذين يقولون بألوهية مريم ، تبعا لبعض اساقفة المجمع (النيقاوي) هـ ..

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : (ومما ينبغي ان يعلم ان اعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد ، والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين ، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه ، ثم ساق آيات القرآن الكثيرة مستدلا على قوله هذا ، زيادة على ما كان معروفا بين العرب من عبادة الاصنام وفقدان الامن وشيوع الخمر ، وكثرة الفواحش والقمار وفاحش الربى ، ووأد بعض القبائل لبناتهم ، وكثرة الحروب لأتفه الاسباب ، ومؤاخذة القبائل بجنايات الاشخاص المعينين الى غير ذلك من الامراض الاجتماعية ، فعم الظلام ، واشتدت حاجة الانسانية في مجموعها الى نور يضيء بعض جوانبها ، ليعم النور سائر الارجاء بعد اشراقه وانتشاره ... هنالك ارسل الله بشير الانسانية بالفوز والنجاح ، والسعادة والفلاح ، سيدنا محمد بن عبد الله بكتاب عزيز قال في حقه : « يا ايها الناس قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام» ، وقال تعالى في حق رسوله : «هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » وقال الله في حق الامة التي اهتدت بهدي الاسلام « كنتم خير امة اخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتومنون بالله » فعمت هداية القرآن وظهر دين الاسلام ، ولا يزال في انتشار وظهور، وكانت فتوحات الاسلام اعظم بركة على الامم المفتوحة، حيث فتحت منها القلوب ، وزكتها باخلاق الاسلام المتوازنة ، وشريعته الطاهرة من النقائص والظلم والعيوب ، فكان محمد رسول الله أعظم طبيب عرفه الوجود لأمراض الانسانية ، كما يشهد بذلك المنصفون من العلماء الا ان اعداء هذا الدين من المشركين والملحدين يفتنون بعض العوام وأشباههم بشبهتين لا تروجان الا على مغفل بليد ... أولاهما قولهم ان محمدا استغل فساد أوضاع الكنيسة ، واختلال أحوال الامم المجاورة له من الفرس والروم ، وكذلك انتشار عقائد باطلة عند النصارى والعرب ، استغل كل هذا لنشر الاسلام وتمكين دعوته ، وكل عاقل يعرف انه لا يقال للطبيب انه استغل خطورة المرض ليظهر براعته بانقاذ المريض من الهلاك ، وكذلك يقال هنا : فالطبيب مشكور والدواء الذي فيه الشفاء هو من عند الله كما قال الله، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين » .

والشبهة الثانية ان اعداء الاسلام يقولون ان محمدا اخذ كثيرا من احكام التوراة ووصايا الانجيل وادرجها في دينه مع ان هذه الدعوى دليل وحجة على صحة الاسلام ، لا على بطلانه لان الاديان السماوية منزلة من عند الله تخرج من مشكاة واحدة فلا بد ان تكون متفقة في جميع اصولها وعقائدها ، ولا يضر انها تختلف في بعض مناهجها ، وقد قال الله في كتابه : « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » وقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه » وهذا كله في اصول العقائد .

اما في الفروع فقد قال الله تعالى في اختلاف بعض احكام الاديان الفرعية : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ... وبهذا يتبين لكل منصف أن شرائع الله يؤيد بعضها بعضا ، وان الرسل كذلك يؤيد بعضهم بعضا ، ونحن معشر المسلمين نومن بقول الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل الله من ربه والمومنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله » .

وختاما نقول اننا بهذا الايمان العام الشامل آمنا بكل ما في الوجود من خير ، وهذا المبدأ هو الذي بوأ الامة الاسلامية والدين الاسلامي مكانة الخلود في الوجود ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والصلاة والسلام على رسولنا العظيم ، وجميع اخوانه من الانبياء والمرسلين .

الرباط — محمد الطنجي



نحو انشاء جيل اسلامي جديد

للاستاذ : محمد المبارك

من الامراض التى تفشت فى البلاد الاسلامية واعقبت نتائج سيئة فى تطورها ، مرض الازدواج فى التفكير والعقلية ونشوء جيلين فى آن واحد مختلفين اشد الاختلاف يسير كل منهما فى اتجاه ويجران المجتمع الاسلامي فى اتجاهين متعارضين فتتعطل القوة وتبطل الحركة .

اما الجيل الاول فهو الذي تثقف بثقافة العصر المنصرم فقرا متونا فى النحو والبلاغة والفقه والتوحيد والاصول وضعت والفت لابناء عصر غير هذا العصر ، سواء فى امثلتها وشواهدها ، او فى تبويبها وترتيبها ، او فى انتقاء عبارتها واسلوبها ، ثم اقتصر على ذلك وربما زاد عليها قراءة بعض شروحها وحواشيها ولم يعرف غيرها حتى من المعارف والثقافة التي كان يعرفها المثقفون من ابناء العصور الاسلامية الاولى ايام ازدهار الحضارة الاسلامية يوم كانوا يقراون مع الفقه والتوحيد والتفسير والحديث الحساب والجبر والهندسة والفلك والطب والكيمياء وغيرها من العلوم التي ترى عظمة الله فى الكون وفضله على الانسان بنعمة العقل الذي اتاه الله اياه ، وما آتاه من السمع والبصر المؤدى الى العلم كما اشار الله تعالى الى ذلك فى قوله : « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » ، والغالب فى ابناء هذا الجيل فى اكثر البلاد الاسلامية الاقتصار على الفقه والتوحيد دون التوسع فى دراسة السنة والاطلاع على الحديث ، وما يتبع ذلك من اطلاع على منابع الفقه واصوله ومصادره ، وما تولد من ذلك من آراء فقهية مستقاة من الكتاب والسنة مما يوسع افق التفكير ، ودون الاطلاع كذلك على كتاب الله وامعان النظر فى آياته سواء اكانت فى الدعوة الى التوحيد والنظر فى آيات الله فى الكون والخليقة ، ام كانت فى الاداب والاخلاق ام كانت فى بيان التشريع والاحكام . لقد اقتصرت الدراسة فى العصر الماضى فى اكثر البلاد الاسلامية على دراسة فقهية على مذهب واحد ، مما ادى الى اعتقاد بعض الناس انحصار الاسلام فى هذا المذهب وذلك الراي .

واما الجيل الاخر فقد اخذ بثقافة العصر واقتبس عمله من هذه الثقافة المنقولة عن اوربا سواء أكان اخذه لها مباشرة او عن طريق غير مباشرة ، ولا شك ان من المفيد بل من الضروري الاطلاع على ثقافة العصر ولا سيما فى النواحي العلمية الخالصة التي تكشف اسرار الكون وآيات الله فيه ، وتمكن الانسان من تسخيره لمنفعته وتؤدي الى عمارة الارض واستخراج خيراتها والترفيه عن الانسان ، ولكن هذا الجيل يغلب عليه ان يجهل الثقافة الاسلامية الاصيلة وما تتضمنه من قيم خلقية واتجاهات انسانية وتشريعات راقية ، وما بنيت عليه من عقيدة قويمة ومفاهيم صحيحة وشعور بالمسؤولية ، ولا يعرف من التاريخ الاسلامي الا قليلا ، وقد يعرفه مشوها محرفا، وقد يصل اليه عن طريق المستشرقين او المؤلفين الغربيين واصحاب الاغراض والاهواء .

لقد سارت البلاد الاسلامية منذ اكثر من قرن على اساس تكوين هاتين العقليتين وانشاء هذين النوعين او الجيلين وجعلت لكل منهما طريقا لتكوينه ، فالجيل الاول يتكون فى مدارس قديمة فى نمطها واسلوبها ، والثاني يتكون فى مدارس حديثة انشئت على غرار المدارس الاوربية واقتبست منها برامجها ومناهجها ، ثم كانت محاولات اصلاحية ولكن على اساس الابقاء على هذا الازدواج وادخال بعض الاصلاحات على النوع الاول ، وهكذا كانت مثلا فى مصر المدارس الدينية الازهرية من ابتدائية وثانوية وعالية ، ولم يكن الاصلاح فيها الا بتقسيمها الى سنوات

وصفوف او فصول ورسم انظمة لها من حيث المناهج والامتحانات والشهادات وادخال مقدار ضئيل من علوم العصر هو في منهاج هذه المدارس كالرقعة النابية في الثوب تختلف عنه لونا ونسيجا .

ثم تختلف طريق الجيلين في الحياة ومكانة كل منهما ومهمته في المجتمع ، اما الجيل الاول فللوعظ والارشاد والخطابة والافتاء والتدريس الديني وما الى ذلك بحيث يتكون منهم فئة اطلق عليها اسم مبتدع غريب (رجال الدين) ، واما الجيل الثاني فيتكون منه موظفو الدولة ورؤساء دوائرها والاختصاصيون في كل فن من فنون الادارة او العمل .

لقد كان لهذه الخطة آثار سيئة جدا في الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي بسبب هذا الازدواج في التفكير وهذا التعدد في العقلية ، وكان بين الطرفين حذر متبادل وجفاء أن لم يظهر في الظاهر فان آثاره موجودة .

والطريق القويمة في تكوين الحياة الاسلامية والاسلوب الطبيعي السليم هو في التوحيد والانسجام، فالحياة واحدة ولو تعددت جوانبها ، والاسلام نفسه يقوم على فكرة التوحيد في كل شيء ، توحيد الله ، وتوحيد الانسانية ، وتوحيد الطبقات ، واقامة مجتمع موحد منسجم ، ولذلك كان من واجب البلاد التي تقيم اليوم أسس نهضتها أن لا تسلك طريق الازدواج ، وعلى البلاد التي اجتازت في نهضتها مرحلة كبيرة واقامتها على هذا الازدواج أن تتحرر منه وان تضع أسسا جديدة لنهضتها .

يجب أن يكون في جميع البلاد الاسلامية تعليم ابتدائي موحد يقوم على مفاهيم اسلامية في جميع ودرس الاشياء مبنيا على أساس غرس الايمان بالله الخالق في قلب الطفل وعقله ، كما يكون درس الدين مواده ودروسه ، فيكون تلقين المعلومات الطبيعية وسيلة ايضا لبعث همته في الحياة ويعتني في هذه المرحلة بتعليم القرآن وتعويد التلاميذ على الشعائر والعادات الاسلامية ، ويكون التعليم الثانوي في المرحلة الثانية تعليما متنوعا من تعليم عام ومهني ، تجاري او زراعي او صناعي او نسوي مصطبغا بالصبغة الاسلامية في جميع نواحيه وتكثر فيه مادة الثقافة الاسلامية من عقيدة وتوحيد وتفسير وحديث وفقه وسيرة وتاريخ، وتكون موادها الفكرية كالفلسفة وعلم الاجتماع قائمة على أساس الاسلام ، ونظرته الى الحياة والوجود والانسان والكون والحضارة ، بحيث يخرج الطالب مشربا بروحه في تفكيره وسلوكه ؛ واما التعليم العالي اي الجامعي فينبغي كذلك ان يكون موحدا فلا يكون هنالك معاهد مدنية ، ومعاهد دينية وانما تكون معاهد اسلامية متنوعة الاختصاص من الطب والهندسة الى اللغة والشريعة ، ويكون تدريس الاسلام ونظامه جزءا من كل فرع من هذه الفروع بحيث لا تخلو كلية من الكليات كالطب والهندسة والزراعة من ثقافة اسلامية ودينية ، لانها تخرج الطبيب المسلم والمهندس المسلم والاديب المسلم ، وليس هذا غريبا في هذا العصر فان البلاد الشيوعية والبلاد الكاثوليكية تسلك هذه الخطة فتعلم البلاد الشيوعية في جامعاتها العقيدة والفلسفة الشيوعية في جميع فروعها بطريقة الزامية ، كما تعلم الجامعات الكاثوليكية الدين في جميع كلياتها وفي جميع سنواتها .

هذه هي الطريقة التي تخرج لنا جيلا جديدا قويا مسلحا بالثقافة والعلم والدين والخلق ؛ جيلا موحدا منسجما يتصرف في الحياة بطريقة واحدة ويفكر تفكيرا واحدا ، ويحل المشكلات التي يصادفها بطريقة واحدة ، يستمد عناصرها من الاسلام ومبادئه ويتكون جيل متفقه في دينه فلا يكون هناك رجال دنيا لا يعرفون من امر الدين شيئا ، ورجال دين لا يعرفون من أمر الدنيا شيئا ؛ يتكون جيل اسلامي يشترك على تنوع اختصاصه وتعدد خبرته ومهنته في قسط مشترك من فهم الاسلام ، ويشترك في الجهاد في هذه الحياة لتحقيق اهداف الاسلام التي هي اهداف انسانية تحقق سعادة الانسانية بترقيتها ماديا وخلقيا وروحيا بوصلها بالكون وآفاقه من جهة ، وبالله الخالق من جهة اخرى .

وقد تكون هذه العملية صعبة او يكون دون تحقيقها عقبات ولكنها اساسية وضرورية لبعث الاسلام من جديد ووقوفه قويا صامدا امام الانظمة والعقائد الاخرى وفي ذلك رضاء الله سبحانه وخير الانسانية وسلامها .

دمشق : محمد المبارك : عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق



- 2 -

الاصح انها نزلت بمكة وبالمدينة ، فنزولها في مكة كان حين فرضت الصلاة ، ونزولها بالمدينة كان حين حولت القبلة الى الكعبة ولها أسماء كثيرة : ام القرآن ، الواقية ، الكافية ، سورة الكنز ، سورة الشفاء ، سورة المثاني ، الى غير ذلك من الاسماء وهي سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم ، اختلف الرواة في البسملة هاهنا ، وفى ابتداء كل سورة هل هي منها ام لا ، فذهب قراء المدينة والشام والبصرة وفقهاؤها ومنهم امام الائمة مالك رحمه الله الى انها ليست آية من السور ، ولذلك كره الامام مالك قراءتها فى الفرض ومستند هؤلاء الائمة رضوان الله عنهم العمل الجاري من عهد النبي عليه السلام بالمدينة بحذف قراءتها من الفاتحة عند الصلاة فقد قال أنس بن مالك : صليت خلف رسول الله (ص) وابي بكر وعمر فلم يكن احد منهم يقرا باسم الله الرحمن الرحيم ونحوه عن عبد الله بن منفل ، وقال الامام ابن العربي فى الاحكام ان مسجد رسول الله (ص) بالمدينة انقرضت عليه العصور ومرت عليه الازمنة من لدن زمان رسول الله (ص) الى زمان مالك ولم يقرا احد فيه بسم الله الرحمن الرحيم .

وذهب قراء مكة والكوفة الى انها آية من القرآن فى كل فاتحة سورة وعليه درج الامام الشافعي ومستندهم فى ذلك روايات كثيرة تولى الدارقطني جمعها فى جزء لطيف وصححها .

ولا يقال ان قراء مكة والكوفة اثبتوا آيتها فى فاتحة كل سورة ، والمثبت مقدم على النافي لانه زاد علما عليه كما هو مقرر فقها واصولا ؛ وعليه فيقطع بكونها آية لاننا نقول شرط ثبوت آيات القرءان التواتر فى نقلها والقطع بسبب ذلك بكونها آية من القرءان لا مطلق الرواية المفيدة للظن غالبا ؛ وروايات اهل المدينة والشام والبصرة تنفي هذا التواتر .

وسواء كانت من اول كل سورة او لم تكن فاثباتها ولو بقصد التبرك والفصل بين السور تعليم منه سبحانه وارشاد لنا كيف نبدا اعمالنا المهمة بذكر اسمه سبحانه ، فانه اذا كان وهو الغني على الاطلاق الذي لا يحتاج فى اعماله الى تبرك باسمه الكريم ولا الى قصد الاستعانة به بدا بها كتابه وارشد خلقه الى قراءته بها ، فكيف ونحن الفقراء لا نبدا بها اعمالنا المهمة قصد الامتثال لذلك الارشاد او التبرك او الاستعانة .

ثم انه لا يخفى ان لنا كل يوم من ايام حياتنا اعمالا مهمة كالاكل والشرب والبيع والشراء والوطء والوضوء والاغتسال والصنائع اليدوية ، فاذا بدانا سائر اعمالنا هذه بذكر اسم الله امتثالا الى هذه الاشارة والى الامر الوارد فى مثل آيتي ، « يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة واصيلا فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا » ، والى الامر الضمني الوارد فى آية ، « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما» فنكون قد عمرنا الكثير من اوقاتنا بذكر الله سبحانه وأنجزنا مع الله تجارة لن تبور .

وانما طالبنا سبحانه بهذه الكثرة من ذكره كي تربطنا به رباطا وثيقا حتى اذا ارتبطنا به هذا الارتباط الوثيق صار سبحانه سمعنا الذي نسمع به ، وبصرنا الذي نبصر به ، ويدنا التي نبطش بها .. الخ كما في الحديث ، اعني صرنا نستحضره سبحانه في سائر اعمالنا واقوالنا ، فاذا استحضرناه خفنا سطوته واستحيينا منه ، لن نخالفه فيما يأمرنا به او ينهانا عنه من تلك الاعمال ، فامتثلنا امره واجتنبنا نهيه بقدر الطاقة واحترمنا حقوقه وحقوق خلقه وصرنا لا ننتهك حرمة في نفس او مال او عرض ، فاذا انتهينا الى هذه الحالة صلحت احوالنا واستقامت امورنا وصرنا المثل الاعلى والقدوة الحسنة الصالحة لغيرنا .

فبذكر الله عند السلف الصالح رضي الله عنهم على النحو الذي قررناه ، وبخشيته ومراقبته في اعمالهم صلحت احوالهم فامتد نفوذهم في سائر المعمور واعزهم ثم سودهم والحمد لله ، ونرجو ان تعود تلك الايام .

ثم قال جل ذكره ، : « الحمد لله رب العالمين » الحمد في اللغة ، ان تصف غيرك بوجه جميل على جهة التكريم والتعظيم ، ولبق وصف جميل يناسب ان يوصف به الله جل جلاله في مقام افتتاح القرآن الكريم وصف العظمة التي لا حد لها ، وال في الحمد للجنس ، او للاستغراق ولام الجر الداخلة على لفظة الجلالة للاستحقاق وحينئذ ، بمعنى جملة الحمد لله ، جنس العظمة او جميع العظمة المطلقة مستحق لله سبحانه ، وانه وان عظم غيره فمنشأ عظمته ومصدرها منه ، ثم وصف نفسه سبحانه باربعة اوصاف تفيدنا علة استحقاقه لهذه العظمة ، بل الاول والاخير منها يستلزمان العظمة بانفسهما كما سيتضح فيما بعد ، وهذه الاوصاف هي كونه ربا للعالمين اي مربيا لسائر ما سواه ، او مالكا له ، اذ الرب في الاصل مصدر رب بمعنى ربى ثم اطلق اسم الفاعل منه بمعنى المربي او المالك ، وكونه رحمان بخلقه اي واسع الرحمة لهم ، التي تشمل البر والفاجر والمحسن والمسيء والمطيع والعاصي ، وكونه رحيما بخلقه ، اي دائم الرحمة لهم لان الرحيم صفة مشبهة تقتضي الدوام والثبوت ، وكونه ملك يوم الدين اي ملك يوم الجزاء على الاعمال الذي هو يوم القيامة،اي انهذا اليوم مملوك له خاص به لا يشاركه فيه غيره كائنا من كان،او هو المنفرد بالملك والسلطان فيه،لامالك ولا سلطان فيه غيره،ولو على سبيل المجاز (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ، (ان كل من في السموات والارض الا اتي الرحمن عبدا) ومن كان مالكا ليوم الدين او ملكا فيه وحده كان الجزاء على الاعمال فيه مختصا به وحده .

وقد قضى وصفه برب العالمين وبالرحمن الرحيم سائر العقائد الاسلامية الواجبة له سبحانه بالذات ، اذ كونه رب العالمين اي مربيا ومدبرا لامره او مالكه وقاهره يقتضي ان يكون موجودا حيا قديما باقيا غنيا على الاطلاق مخالفا لخلقه وحيدا في ذاته وصفاته وافعاله ، عالما مريدا قادرا سميعا بصيرا متكلما ، وكونه رحمانا رحيما يقتضي جواز فعل الممكنات وتركها في العدم كخلق الانسان وامانته وبعثه الرسل وايجاد اليوم الآخر ، لان هذه الاشياء الاخيرة في الذكر ليست واجبة في نفسها بالذات ، وانما اقتضاها الكمال الالهي وتعلق العلم والارادة والقدرة به ، فوجبت وكان وجوبها حينئذ عرضا .

ولما دخل يوم القيام في عموم الجائزات كما رأيته في مقتضى عموم الرحمة ، وكان لهذا اليوم المقام الاول في المعتقدات بعد معتقد وجود الذات العلية ، اذ على وجوده بني الوعد والوعيد ، والرجاء والخوف في الشريعة الاسلامية غالبا ، قال تعالى : « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) ، لم يكتف القرآن بدخوله في هذا العموم بل افرده بالذكر ايذانا باهميته واشعارا للقلوب بخشيته لا سيما وقد ذكر مضافا الى مالك الجزاء فيه بالخير والشر ، وهو الله سبحانه .

وقوله سبحانه « اياك نعبد » : العبادة غاية التذلل والخضوع المشعرين بكون العابد تحت قدرة ونفوذ المعبود وحده ايجادا واعداما ونفعا وضرا ، وهو هنا الله سبحانه حيث لا موجد ولا معدم ولا نافع ولا ضار الا هو وحده .

وما كانت العامة وما زالت تعتقده من ان بعض خواص الخلق من النبيين والمرسلين والملائكة المقربين وعباد الله الصالحين فسببه الجهل بقواعد الاسلام ونصوصه القاطعة بكذب ذلك المعتقد ، الم يكن من قواعد التوحيد العامة ان الله واحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في افعاله التي من جملتها الايجاد والاعدام للاشياء ، والنفع والضرر والاسعاد والاشقاء ، الم يقل الله مخاطبا نبيه عليه السلام ،

«افمن حقت عليه كلمة العذاب أفانت تنقذ من في النار»، وفي اية اخرى « انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » الى غير ذلك مما يقتضي ان النفع والضر والاسعاد والاشقاء كلها بيد الله وحده لا شريك له فيها .

نعم وردت آيات واحاديث بشفاعة خواص الخلق لمكانتهم عند الله ؛ ولكن غالب تلك الشفاعات مقيدة باذن الله لهم فيها ، حتى لا يعطل الناس العمل اتكالا على الشفاعات مثل قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له» وفي حديث الشفاعة المشهور ، ان النبي عليه السلام لا يشفع يوم القيامة للخلق فيما هم فيه من الحسرة والكرب حتى يستاذن ربه في ذلك فيأذن له ؛ ثم ان تقديم المعمول في قوله تعالى : « اياك نعبد » يفيد الحصر والاختصاص اي نخصك يا مولانا بعبادتنا ، وهو غاية التذلل والخضوع ، فلا نتذلل ، ولا نخضع لاحد كما نتذلل ونخضع لك حيث انفردت بأوصاف الجلال ونعوت الكمال .

رب العالمين الذين انا منهم ، بيدك تدبير امورهم ومقاليد شؤونهم ورحمانهم ورحيمهم ومالك يوم دينهم

وقوله عز من قائل : « واياك نستعين » ؛ الاستعانة طلب المعونة من الله ، وهو الاقدار على الاشياء التي في طوق البشر كسبها وفعلها ، والمراد الاقدار الباطني الخاص بالله بجلب الاسباب وصرف الموانع ، فلا ينافي ان بعضنا قد يستعين ببعض على الاشياء الداخلة في طوق البشر المعونة عليها ؛ وقد اذنت الشريعة صراحة في التماس العون فيها كقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ؛ » وضمنا كقوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

وقوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » ؛ الصراط في الاصل الطريق المسلوك ، والمستقيم الذي لا انحراف فيه اذ الطريق المنحرف ، مظنة الضلال والخروج عن المقصود غير انه استعيرت هنا الصراط الدين ، واستعير المستقيم للذي فيه مع الله وهو دين الاسلام الموصل الى رضى الله والسعادة الابدية . ولذلك أبدل منه قوله تعالى « صراط الذين انعمت عليهم » برضاك ، ثم أبدل من الذين انعمت عليهم قوله تعالى « غير المغضوب عليهم » ، اي غير صراط وطريق الذين غضبت عليهم بسبب كبرهم وعنادهم الصادر منهم عن مكابرة وجحد للحق فكانوا بذلك بعداء عن هدايتك ورحمتك ؛ ثم ابدل من الذين انعمت عليهم فريقا آخر وهم الذين كفروا لا عن جحد للحق وعناد له ، ولكن عن ضلالهم عن طريق الهدي والتباس الحق عليهم ، كما قال النبي عليه السلام في حق ابن صياد ؛ كما في صحيح البخاري لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عما يعتقده في حقه ، واجابه ابن صياد عن هذا السؤال بقوله يأتيني بر وفاجر ؛ قال النبي عليه السلام خلع عليه الامر ؛ وذلك قوله تعالى « ولا الضالين » عن طريق الهدي حيث التبست عليهم بغيرها من طرق الضلال اي اهدنا يا مولانا الصراط المستقيم ، ولا تهدنا غيره من الطرق سواء كان بعيدا جدا منه او قريبا في الجملة ، اذ الضلال كما في مفردات الراغب يطلق على العدول عن المحجة الواحدة ، اما عن قصد أو غير قصد ، سواء كان هذا الضلال يسيرا او كثيرا غير انه لما عطف الضالين هاهنا على المغضوب عليهم علمنا بالعطف الذي يقتضي المغايرة ، انهم فريقان وان الاولين هم المنحرفون كثيرا عن قصد حتى استحقوا غضب الله ، وان الضالين غيرهم ودونهم في هذا الانحراف ، حيث لم يوصفوا بغير الضلال وتركوا الى مشيئة الله بعد ذلك .

هذا تفصيل ما ادركناه من معاني الفاتحة ونكتها عبرنا عنه بقدر الطاقة والامكان ، ولمزيد البيان نقول : ان القرآن الذي هو عمدة الاسلام والمسلمين جله لتقرير امرين عظيمين : تقرير ما لله على البشر من حقوق ، وتقرير ما للبشر على بعضهم بعضا كذلك ؛ اما حق الله الواجب له على الاطلاق فقد قرر الاسلام في تعظيمه واحترامه تعظيما واحتراما لا حد لهما ولا غاية ؛ حيث كانت الذات العلية لا حد لها ولا غاية ، فليكن تعظيمها واحترامها لا حد لهما ولا غاية ، ولكن لما كانت الشريعة وردت للعموم ، وكان عوام الناس عاجزين عن اداء هذا التعظيم والاحترام ، بل عجزوا عن تصورهما اكتفت من الناس بالاقرار لله ببعض صفات الكمال المقتضية لهذا التعظيم والاحترام ، وهي الصفات الواردة لله في القرآن وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم ان هذا التعظيم والاحترام المطلقين مأخوذان من الفاتحة من غير ما موضع منها . منها لفظ الحمد ،

اذ على التفسير الذي قدمناه المناسب لمقام افتتاح القرآن به الذي هو اجل هداية من الله لخلقه ، العظمة مستحقة لله ومنه رب العالمين ، اذ كونه خالقا للعالم مربيا ومالكا له يوجب تعظيمه واحترامه ، وكونه رحمان لخلقه ورحيما له يقتضي تعظيمه واحترامه ، حيث ان النفوس مجبولة على حب من احسن اليها ، والمحبة تقتضي التعظيم والاحترام ، وكونه ملك يوم الدين يبعث على تعظيمه واحترامه ، اذ الذي يملك يوم الجزاء « يكون له السلطان المطلق فيه ، يجب تعظيمه واحترامه والا احل على من خالف ذلك عقابه فيه ، وتخصيصه بالعبادة والاستعانة هو نفس التعظيم والاحترام ، وطلب الهداية الى صراط الذين انعم عليهم برضاه مفيد لهذا التعظيم والاحترام ، اذ ما طلبنا الهداية الى الصراط المستقيم الذي هو هذا الدين ارضاء له الا قصد تعظيمه واحترامه .

اما حقوق العباد بعضهم على بعض فربما تؤخذ الاشارة اليها من قوله تعالى « ملك يوم الدين » اي يوم الجزاء على الاعمال ، اذ منها افعال بعضنا ازاء بعض ، ومن قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » ، اهدنا الدين القويم الذي يرشدنا بهداه الى الاحتفاظ من الزيغ في الاقوال والافعال التي منها اقوال وافعال بعضنا لبعض ولانطواء الفاتحة لهذين الجنسين المقصودين في الدرجة الاولى من القرآن والمنثوتين في كل محل منه سميت « ام القرآن » كما في حديث (لا صلاة لمن لم يقرا بام القـــــرآن) .

اما التقسيم الوارد عن ابي هريرة رضي الله عنه في الحديث المقدس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سال ، فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي . فاذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : اثنى علي عبدي . فاذا قال: ملك يوم الدين ، قال: مجدني عبدي . وقال مرة فوض الي عبدي . واذا قال : اياك نعبد واياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سال . فاذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سال . اورده في صحيح المصابيح وغيرها ، فهو تقسيم الفاتحة باعتبار آخر ، وهو ان بعضها وهو اولها مختص بالثناء على الله وتعظيمه واواخرها فيه التفات العبد الى نفسه وطلبه من مولاه سعادتها بهدايتها الى الصراط المستقيم ، ووسطها فيه تذلل العبد الى مولاه وخضوعه بين يديه ، ثم استعانة العبد به في احواله واموره .

ولمزيد تفهم معنى هذا الحديث القدسي الوارد في معنى الفاتحة وتقسيمها على سبيل الاجمال نقول : ان اولها كله تعظيم لله سبحانه تعظيما يقتضي بحسب عرف التخاطب الذي يقع بين البشر التفات المعظـم (فتحا) المعظم (كسرا) وحنوه وعطفه عليه بسبب هذا التعظيم والتمجيد ، حيث قصر العبد التالي لها الحمد كله عليه ووصفه بكثرة الرحمة لخلقه ودوامها عليهم ، وبكونه ملك يوم الدين وحده المطلق التصرف فيه كما يشاء ثم ما كفاه ذلك حتى ايده بقوله اياك نعبد واياك نستعين ، ثم استنزل العبد التالي لها رحمته بقوله واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيـــــم .... الخ .

ثم ان هذا الحديث يدل على ما للفاتحة من عظم قدر ، ولا اشكال ، وهناك حديثا آخر يدل على هذا المعظم كذلك وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي عن ابي سعيد بن المعلي قال : كنت اصلي فدعاني النبي (ص) فلم اجبه ، قلت يا رسول الله كنت اصلي قال الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ، ثم قال الا اعلمك اعظم سورة في القرآن قبل ان تخرج من المسجد ، فاخذ بيدي فلما اردنا الخروج ، قلت يا رسول الله انك قلت لاعلمنك اعظم سورة في القرآن، قال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي اوتيته .

ابو الحسن الشاذلي

للدكتور: جمال الشيال

ابو الحسن الشاذلي عالم من اعلام الصوفية وقطب من أقطابهم ، ولد في المغرب الاقصى وعاش معظم سني حياته في تونس ومصر وانشأ مدرسة صوفية كبيرة ، لازال اتباعها وتلاميذها ينتشرون في مختلف انحاء العالم الاسلامي ويكونون فرقا صوفية كثيرة تشعبت كلها عن الفرقة الاصلية التي انشاها ونسبت اليه وهي الفرقة الشاذلية .

ولد ابو الحسن الشاذلي في أواخر القرن السادس الهجري في سنة 593 ه في قرية غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الاقصى .

وهو تقي الدين ابو الحسن علي بن عبد الجبار بن يوسف .

وينتمي الى قبيلة عمران احدى قبائل المغرب وهي التي ينتمي اليها ولي الله سيدي عبد الرحيم القنائي .

وهو حسني علوي اي انه ينتهي بنسبه الى الحسن بن علي بن أبي طالب .

نشأ ابو الحسن في قريته غمارة وفيها تلقى علومه الاولى وحفظ القرآن ، ثم اراد ان يستزيد من العلم فرحل الى تونس . لقد كانت مدن المغرب الاقصى الكبيرة مثل سبتة أو مراكش او فاس اقرب اليه من تونس ، ولكنه اعرض عنها جميعا وابعد في الرحلة فذهب الى تونس ، ولتفسير هذا لابد من القاء نظرة على الحالتين السياسية والعلمية في المغرب الاقصى وفي العالم الاسلامي بوجه عام على ذلك الوقت .

كان المذهب الشيعي قد انتصر في القرن الرابع الهجري ، وبانتصاره قامت دولتان شيعيتان كبيرتان اصبحت لهما السيادة في طرفي العالم الاسلامي الشرقي والغربي ، فالدولة الفاطمية في المغرب وتضم اليها بلاد المغرب جميعا ومصر واليمن والحجاز والشام، والدولة البويهية في الشرق ولها السيادة في العراق قلب الدولة العباسية نفسها .

وفي القرن الخامس والسادس حدث رد فعل قوي ، وبدا المذهب السني يسود من جديد بعد ان ضعفت الدولتان الفاطمية والبويهية ، وقامت دول سنية كثيرة كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان فكانت دول السلاجقة والاتابكة في الشرق ودولتا الايوبيين والمماليك في مصر والشام ودولة الموحدين في المغرب والاندلس . وكان بعض حكام هذه الدول السنية مغالين في محافظتهم على المذهب السني ويرون في كل الحركات والآراء الفلسفية جنوحا نحو العودة الى المذهب الشيعي ، فهو مذهب كان يدرس الفلسفة وعلوم الاوائل ويتأثر بها الى حد بعيد .

وهذا العصر بعينه هو العصر الذي شهد انقسام العالم الاسلامي الى دول كثيرة شغل بعضها عن البعض الآخر ، وهو الذي شهد ضعف هذا العالم الاسلامي وجراة اوربا المسيحية على اقتحام ربوعه في الشام على ايدي الصليبيين ، وفي الاندلس على ايدي الراغبين في اعادتها الى حظيرة المسيحية والقضاء على الدويلات الاسلامية القائمة بها .

في هذا الجو الغريب قويت الحياة الروحية ونشط التصوف وكثر المتصوفة ، فقد احس المجتمع

الاسلامي بعجزه عن حماية نفسه من المغيرين الوافدين من الخارج ، فراح المسلمون يبحثون عن قوة عليا يلجاون اليها في محنتهم ويحسون في كنفها بالاطمئنان النفسي ، فلجاوا الى التدين واغرقوا فيه وفي العبادة والزهد ، يلتمسون في هذا كله سكينة الروح وينسون في رحاب الله ما يكتنفهم من عوامل الفزع والقلق والاضطراب ومن هنا نشطت الحركات الصوفية في القرنين السادس والسابع ، وانقسم المتصوفة في هذين القرنين الى قسمين : قسم حيا حياة روحية خالصة وقسم خلط التصوف بالفلسفة والروح بالفكر . وقد شهد المغرب عند نشأة الشاذلي به هذين النوعين من المتصوفة .

ففي مدينة فاس بالمغرب الاقصى كان يقيم في اواخر القرن السادس الصوفي الكبير الشيخ ابو تعزي بن يلنور ، وكان الناس يفدون اليه من جميع انحاء المغرب والاندلس ، يأخذون عنه ويستمعون اليه ويلتمسون منه البركات ، وفي مقدمة من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمساني فعاش معه سنين يقتبس من طريقته بالاقبال كل الاقبال على الصوم والزهد والصلاة والتقشف والعبادة . حتى اذا قبس قبسة من روح استاذه رحل الى المشرق ليقتبس قبسات اخريات من شيوخ التصوف هناك ، وعن سيدي عبد القادر الجيلاني قطب العراق بوجه خاص .

وعاد ابو مدين الى المغرب فاقام في بجاية وفاقت شهرته شهرة أستاذه ابي يعزى ولقبوه القوم هناك بالغوث وتتلمذ عليه العشرات من كبار العلماء وفي مقدمتهم الفيلسوف المتصوف الكبير محي الدين بن عربي والشيخ ابو عبد الله محمد بن حرازم أحد شيوخ الشاذلي .

وكانت الدولة القائمة بالحكم في المغرب وقتذاك هي دولة الموحدين ، ومن ملوكها من كان راعيا للحياة الفكرية مشجعا للعلماء والمفكرين ، ومنهم من كان متزمتا مضطهدا لرجال الفكر والمشتغلين بالفلسفة . فمن امثلة النوع الاول الخليفة الموحدي ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وكان رجلا واسع الفكر محبا للعلم صديقا للعلماء ، وللفلاسفة منهم بوجه خاص ، فقرب اليه عددا كبيرا منهم ، وفي بلاطه عاش الفيلسوف المغربي ابن طفيل وهو واحد ممن حاولوا المزج بين الفلسفة والتصوف ، وهو مؤلف قصة حي بن يقظان التي حاول فيها ان يثبت ان العقل والشرع يؤديان الى نتائج واحدة .

وابن طفيل هو الذي قدم للخليفة يعقوب صديقه الفيلسوف ابن رشد فرحب به وقربه اليه وولاه قضاء اشبيلية .

ولكن المجتمع الاسلامي في المغرب وقتذاك لم يرض عن سياسة الخليفة الموحدي يعقوب ، فقد كان رد الفعل السني ذا اثر قوي عليه ، لهذا كان المجتمع سنيا متزمتا ينكر الفلسفة والمشتغلين بها ، وقد استجاب الخليفة أبو يوسف يعقوب بن الخليفة السابق لرغبات المجتمع ، فاضطهد العلماء والفلاسفة ورجال الفكر ، واصابتهم في عهده محن شديدة . فاتهم ابن رشد في عهده بالزندقة وحوكم في سنة 591 .

واضطهد الصوفي الكبير ابو مدين وارسل الخليفة يستدعيه من بجاية لمحاكمته ، فاتى به مكبلا بالحديد ، حتى اذا وصل تلمسان مرض ومات سنة 594 .

هذا الجو الذي كان يشيع فيه ضيق الفكر ، ويسود فيه الكبت والاضطهاد والمحاكمة دفع الكثيرين من رجال الفكر والفلسفة والتصوف الى الرحيل عن المغرب الاقصى ، وفي مقدمتهم محي الدين بن عربي ، فقد رحل عن الاندلس والمغرب في سنة 598 بعد ان شهد محنة أستاذه ابن رشد واستاذه في التصوف أبي مدين .

لم يكن غريبا ان يشيح الشاذلي بوجهه عن مدن المغرب الاقصى الكبيرة ويرحل الى تونس ليستكمل علومه بها . فانه يبدو ان الجو في تونس كان اصلح منه في المغرب الاقصى وحرية الفكر والدراسة مكفولة هناك الى حد ما ، وفيها على ذلك الوقت كان يقيم عدد كبير من أعلام المتصوفة من امثال الشيخ محمد صالح بن ينصار والشيخ ابي محمد المهدوي والشيخ ابي سعيد الباجي وهم من تلاميذ الغوث ، وقد عاصر الشاذلي اثناء تلقيه العلم في تونس هؤلاء العلماء الاعلام ولا شك انه اتصل بهم وتتلمذ عليهم واخذ عنهم . وكان الجو في تونس كلها يضوع منه شذى تعاليم ابي مدين وروحانيته ، والكل هناك من تلاميذه الذين يسلكون طريقته . وقد تاثر الشاذلي بهذا الجو تاثرا شديدا وعشق التصوف وحياة المتصوفة منذ ذلك الحين وبدا فتلقى الطريقة على ابي عبد الله بن حرازم احد تلامذة ابي مدين ولبس على يديه خرقة التصوف .

ورحل ابو الحسن الشاذلي من قريته غمارة الى تونس حوالي سنة 602 وهو بعد حدث صغير السن في نحو العاشرة من عمره ، وبدا هناك فتلقى على علمائها الفقه على مذهب مالك ، وعلوم اللغة من ادب ونحو وصرف وعلوم الدين من تفسير وحديث وكلام وتوحيد . ولازم حلقات الدرس حتى نبغ في هذه العلوم جميعها ، ثم شاقه التصوف واتصل بشيوخه ولبس الخرقة اول ما لبس على يد ابي عبد الله محمد بن حرازم — كما اسلفنا —

والكتب التي ترجمت لابي الحسن الشاذلي تروي قصة طريفة حدثت له عند دخوله مدينة تونس، والقصة تبدو غريبة بعيدة عن المنطق ولكنها تدخل في نطاق ما يسميه القوم بالكرامات ، واغلب الظن أن مؤرخي ابي الحسن واتباعه يروونها للبرهنة على أنه كان منذ شبابه الاول ذا نفس طاهرة نقية صافية ، وانه كان ذا استعداد طيب للولاية منذ هذه السن المبكرة .

روى هذه القصة صاحب كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية . قال رواية عن الشيخ جمال الدين القرافي ان الشيخ ابي الحسن الشاذلي قال :

« دخلت مدينة تونس وانا شاب صغير ، فوجدت فيها مجاعة شديدة ، ووجدت الناس يموتون جوعا في الاسواق ، فقلت في نفسي : لو كان عندي ما اشتري به خبزا لهؤلاء الجياع لفعلت ، فالقي في سري : خذ ما في جيبك ، فحركت جيبي فاذا فيه نقود ، فاتيت الى خباز بباب المنارة ، فقلت له : عد خبزك ، فعده ، فناولته للناس فتناهبوه ، ثم اخرجت الدراهم فناولتها الخباز، فقال لي : هذه مفارقة وانتم معاشر المغاربة تستعملون الكيمياء ، فاعطيته برنسي وكرزيتي من على راسي رهنا في ثمن الخبز ، وتوجهت الى جهة الباب فاذا رجل واقف عنده فقال لي : يا علي اين الدراهم ؟ فاعطيتها له فهزها في يده وردها الي ، وقال ادفعها للخباز فانها طيبة ، فرجعت الى الخباز فاعطيتها له فقال : نعم هذه طيبة واعطاني برنسي وكرزيتي ، ثم طلبت الرجل فلم اجده ، فبقيت متحيرا في نفسي الى ان دخلت الجامع يوم الجمعة ، فجلست عند المقصورة عند الركن الشرقي فركعت تحية المسجد وسلمت واذا بالرجل عن يميني فسلمت عليه فتبسم وقال : يا علي انت تقول لو كان عندك ما تطعم به هؤلاء الجياع لفعلت ؟ اتتكرم على الله في خلقه ولو شاء لاطعمهم وهو أعلم بمصالحهم ؟ فقلت يا سيدي من انت ؟ قال انا احمد الخضر كنت ببلاد الصين فقيل لي ادرك علياً بتونس فاتيت مبادرا اليك ، فلما صليت الجمعة نظرت اليه فلم اجده »

وفي تونس قضى ابو الحسن سنوات الصبى والشباب الاول تتلمذ فيها على كبار علمائها وشيوخها ومتصوفيها ، فبدأ بابي عبد الله بن حرازم الذي لبس خرقة التصوف على يديه لاول مرة ، ثم سمع بالشيخ ابي سعيد الباجي احد تلامذة ابي مدين وممن اخذوا الطريق عنه فسعى اليه وانتفع بعلمه . يصف الشاذلي مقابلته الاولى لابي سعيد يقول :

« لما دخلت تونس في ابتداء أمري قصدت بها جملة من المشايخ ، وكان عندي شيء احب ان اطلع عليه ويبين لي منه خبر ، فما فيهم من شرح حالي ، حتى دخلت على الشيخ ابي سعيد الباجي — رحمه الله — فاخبرني بحالي قبل أن ابديه اليه ، وتكلم عن سري ، فعلمت انه ولي الله ، فلازمته وانتفعت به كثيرا وسمعت منه » .

في هذا الجو الذي كانت تتجاوب في جنباته آراء الفلاسفة من امثال ابن رشد وابن طفيل وابن عربي وتنتشر في نواحيه روحانيات المتصوفة من امثال القطب الغوث ابي مدين وابي عبد الله بن حرازم وابي سعيد الباجي . في هذا الجو الذي كانت تصطرع فيه قوى العلم والفكر الحر مع قوى الرجعية والتزمت السني . في هذا الجو نشا ابو الحسن الشاذلي نشأته الاولى ، وتلقى علومه الاولى ، ولكنه لم يكد يبلغ سن الشباب حتى أحس ان غلته لم تشف وان ظماه للعلم والمعرفة لم يشبع ، فاعتزم الرحلة الى الشرق ، لاداء فريضة الحج وزيارة الارض الطيبة المقدسة والقبر الطاهر اولا ثم لاتمام علومه واستكمال دراسته على ايدي شيوخ الشرق ثانيا .

ولسنا نعرف متى رحل الشاذلي رحلته المشرقية الاولى على وجه التحديد ، ولكننا نحسبه بداها حوالي سنة 615 هـ وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره ، فاننا سنسمع بعد قليل انه قابل شيخه ابا الفتح الواسطي في العراق في سنة 618 هـ .

بدا الشاذلي رحلته فدخل مدينة الاسكندرية ومر بارض مصر ثم دخل الحجاز فادى الفريضة ثم زار فلسطين والشام والعراق وكان في كل بلد يزوره يقصد من بها من العلماء والفقهاء يأخذ عنهم ويستمع اليهم ، وكان اكثر اتصاله بالعباد والزهاد والمتصوفة ، وكان اكثر تأثره في رحلته هذه بالشيخ ابي الفتح الواسطي وهو من اكبر تلاميذ سيدي احمد الرفاعي وكانت له

منزلة عظيمة عند الرفاعية مما دعاهم الى ارساله الى مصر ليعمل على نشر طريقتهم فيها ، ووصل ابو الفتح الى الاسكندرية فى سنة 630 واقام بها مدة يعظ الناس ويدعوهم الى طريقته ، وكان يلقي دروسه فى مسجد العطارين ، وقد قامت بينه وبين علماء الاسكندرية وفقهائها مساجلات وخصومات علمية كثيرة ، وتوفي بالاسكندرية فى سنة 632 ولا زال ضريحه موجودا بالقرب من ضريح ابى الدرداء .

وقد حزن الرفاعية فى العراق حزنا بالغا لوفاة الشيخ ابى الفتح الواسطي ، واختاروا قطبا آخر كان يقيم بينهم فى ذلك الوقت وارسلوه الى مصر ليتزعم طائفة الرفاعية بها ، وسيكون لهذا القطب شان كبير فيما بعد وسينشيء له طريقة جديدة ، ذلك هو القطب الكبير سيدي احمد البدوي ، فقد ارسله الرفعية فى سنة 635 من العراق الى مصر ليشرف على شؤون الاتباع بها .

على هذا الشيخ العالم الكبير ابى الفتح الواسطي اخذ الشاذلي اثناء مقامه فى العراق ، واعترف انه لم يلق هناك من العلماء من هو خير منه قال : « دخلت العراق ولقيت جملة من المشايخ فلم ار احسن من الشيخ ابى الفتح الواسطي » .

وقد كان الشاذلي اثناء تقلبه فى بلدان الشرق لا يسعى لطلب العلم وحده ولكنه كان يبحث عن ضالته المنشودة يبحث عن القطب ، وللقوم آراء واقوال كثيرة فى القطب . فاول من قال به وتحدث عنه من المتصوفة ذو النون المصري ؛ ويبدو من اقوال المتصوفة ان الاقطاب فى كل وقت كثيرون وان الرئاسة دائما على هؤلاء الاقطاب لقطب واحد مفرد هو ما يلقبونه بالقطب الغوث . يبدو هذا واضحا فى حديث الشاذلي نفسه لاحد تلاميذه وهو شمس الدين بن كتيلة .

روى ابن كتيلة انه كان جالسا يوما بين يدي استاذه الشاذلي فخطر له ان يساله عن القطب فقال له :

« يا سيدي ما معنى القطب ؟ »

فقال الشاذلي :

« الاقطاب كثيرة فان كل مقدم قوم هو قطبهم . أما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد » .

وقد عرف صاحب كتاب المفاخر القطب الغوث بانه رجل عظيم وسيد كريم ، يحتاج اليه الناس عند الاضطرار فى تبيين ما خفي من العلوم المبهمة والاسرار ، ويطلب منه الدعاء لانه مستجاب الدعاء ، لو اقسم على الله لابره ، ولا يكون القطب قطبا حتى تجتمع فيه جميع صفات الاقطاب الذين هو رئيسهم .

عن هذا القطب كان يبحث الشاذلي اثناء تجواله فى الشرق ، فلما اطمانت نفسه الى شيخه أبى لفتح الواسطي فاتحه بدخيلة نفسه وحدثه عن امنيته ، ولكن الشيخ ابا الفتح اخبره ان القطب فى وطنه الاصلي ، فى المغرب ، فان كان يبحث عنه حقيقة فليعد الى المغرب . واستمع ابو الحسن الى نصيحة شيخه وعاد الى المغرب ، وظل يوالي الرحلة والبحث الى ان التقى بالقطب ، الى ان التقى بشيخه واستاذه الاكبر الذي اخذ عنه الطريق ولبس على يديه خرقة التصوف ؛ والذي ظل ينتسب اليه ، وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش .

يستطرد الشاذلي فى وصفه لمقابلته الاولى مع الشيخ أبى الفتح الواسطي فيقول :

« وكنت اطلب القطب فقال لي : اتطلب يا علي القطب بالعراق وهو ببلاد المغرب ؟ ارجع الى المغرب فانك تجد القطب هناك ، فرجعت الى المغرب واجتمعت باستاذي عبد السلام بن مشيش » .

وبعد رحلة طويلة قابل الشاذلي استاذه القطب سيدي عبد السلام بن مشيش ، وكانت مقابلته الاولى له فى راس جبل حيث يقيم مرابطا ومتفرغا للعبادة .

وقد روى الشاذلي خبر هذه المقابلة فقال :

« لما قدمت عليه وهو ساكن برباطه براس جبل ، اغتسلت وخرجت من علمي وطلعت اليه فقيرا ، واذا به هابط علي ، فلما رآني قال : مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار ، وذكر نسبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال يا علي : طلعت الينا فقيرا من علمك وعملك ؟ اخذت منا علمي الدنيا والآخرة ، فأخذني الدهش ، واقمت عنده اياما الى أن فتح الله على بصيرتي ، ورأيت له خوارق عادات وكرامات » .

استقرت نفس الشاذلي اذن ، فقد قابل القطب الغوث ، وأدلى اليه بآية القطبية منذ اللحظة الاولى فقد ناداه باسمه ونسبه مكتملا ، ووعده بان يلقنه علمي الدنيا والآخرة ، لهذا لزم الشاذلي استاذه ملازمة تامة منذ هذه اللحظة يأخذ عنه ويتتلمذ عليه ، فماذا أخذ الشاذلي عن ابن مشيش ؟

اخذ عنه حب الله والفناء في هذا الحب ، فهو القائل : ادمن على الشرب والمحبة وكاسهما مع السكر والصحو ، كلما افقت او تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكاس ، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كماله وجلاله .

واخذ الشاذلي عن أستاذه ابن مشيش الايمان والايمان القوي الكلي بالله حتى يجد الله في كل شيء فهو القائل :

« انظر ببصر الايمان تجد الله في كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتحت كل شيء ، وقريبا من كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هي نعته ، وعد عن الظرفية والحد ، وعن الاماكن ، وعن الصحبة والقرب والمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامح الكل بوصفه الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » .

واخذ ابن مشيش تلميذه الشاذلي بأن يعرض عن الخلق وان يلجأ الى الله وحده ، وروى الشاذلي انه كان في احدى سياحاته فأتى غارا يبيت فيه فسمع رجلا يتحدث ، فعجب من وجود انسان في هذا المكان المنعزل المهجور ولكنه لم يشأ ان يقلق هذا المتحدث في الليل ، فبات عند مدخل الغار فلما كان السحر تيقظ ابو الحسن فسمع الرجل يدعو ربه بقوله :

« اللهم ان اقواما سألوك اقبال الخلق عليهم وتسخيرهم لهم ، اللهم اني اسالك اعراضهم عني واعوجاجهم علي حتى لايكون لي ملجأ الا اليك » .

قال الشاذلي :

« ثم خرج الرجل من الغار فاذا هو استاذي (ابن مشيش) ، فقلت له : يا سيدي اني سمعتك البارحة تقول كذا وكذا ، فقال لي : يا علي ، انما خير لك ان تقول : كن لي بدلا من ان تقول لي سخر لي قلوب خلقك ، فاذا كان لك ، كان لك كل شيء » .

بهذه المباديء الروحانية العليا التي تنادي العبد بأن يقبل على حب الله وان يفنى في هذا الحب تخرج ابو الحسن الشاذلي على استاذه ابن مشيش فقد قال ابو الحسن :

« سألت استاذي — رحمه الله — عن ورد المحققين ، فقال : عليك باسقاط الهوى وصحبة المولى ، وآية المحبة الا يشتغل محب بغير محبوبه » .

واقبل الشاذلي — وهو في صحبة استاذه — على العبادة فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الاقبال على الخلق ، واقبل على حب الله وفنى في حبه ، فلما صفت نفسه واصبح اهلا للولاية ووراثة القطبانية امره استاذه أن يرحل عن فاس الى تونس ، وتنبأ له بما سيحدث له في مستقبل ايامه ، فقال له :

« ارحل الى افريقية واسكن بها بلدا تسمى شاذلة ، فان الله يسميك الشاذلي ، وبعد ذلك تنتقل الى مدينة تونس ، ويؤتى عليك من قبل السلطنة ، وبعد ذلك تنتقل الى بلاد الشرق وترث القطبانية » .

ترك ابو الحسن مدينة فاس واتجه تنفيذا لامر استاذه نحو تونس وعند دخوله اليها تقابل مع رجل حطاب فقير هو ابو الحسن علي الابرقي من اهل شاذلة وهي قرية قريبة من مدينة تونس ، فصحبه معه وخرج الرجلان واتجها نحو شاذلة ، وفي الطريق رأى الابرقي شواهد كثيرة من زهد الشاذلي وصلاحه ، فاقبل عليه وقبل يديه وسأله الدعاء ، وتقول الرواية ان بركات الشاذلي حلت برفيقه فاقبلت عليه الدنيا ووسع عليه في الرزق بعد ذلك .

ونزل ابو الحسن بطرف من اطراف شاذلة وقابل فيها أول من قابل الشيخ الصالح ابا محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي . وقد فرح الحبيبي بلقاء ابي الحسن فقد كان يترقب هذا اللقاء منذ مدة . قال الحبيبي :

« كنت احضر بتونس مجلس سيدنا الشيخ العارف ابي حفص الجاسوس ، فاخذت بيده يوما اطلب منه ان يقبلني تلميذا له وقلت له : يا سيدي اني اتخذتك شيخي ، فقال لي : يا بني ارتقب استاذك حتى يصل من المغرب وهو شريف حسني من كبار الاولياء وهو استاذك واليه تنتسب ، فكنت ارتقب كل من يأتي من الفقراء المغاربة واصحبه ، الى ان من الله علي بلقاء الشيخ ابي الحسن فاتخذته شيخي وصحبته » .

وفى شاذلة تاسى الشاذلي باستاذه ابن مشيش ، فلم يسكن فى القرية وانما لجأ الى غار فى جبل زغوان المطل على شاذلة ، واتخذ هذا الغار رباطا له يقيم ويتعبد فيه ، وكانت حياة الشاذلي فى هذا الغار كلها تقشف وزهد واغراق فى العبادة ، وكان يشاركه هذه الحياة فى معظم الاوقات تلميذه الجديد الحبيبي .

وقد روى الحبيبي انه اقام مرة مع ابى الحسن فى جبل زغوان اربعين يوما كان يفطر فيها على العشب وورق الدفلى حتى تقرحت اشداقه ، فقال له ابو الحسن : يا عبد الله كانك اشتهيت الطعام ، فقال له : يا سيدي ، نظرك الي يغنيني ، فقال ابو الحسن : غدا ان شاء الله نهبط الى شاذلة وستلقانا فى الطريق كرامة » .

واقام ابو الحسن فى شاذلة وطالت اقامته وذاعت شهرته وعرف الناس له فضله وصلاحه وتقواه وآمنوا بولايته ، وبدا الجزء الاول من نبوءة استاذه ابن مشيش يتحقق ، فعرف منذ ذلك الحين بالشاذلي وغلبت عليه هذه الشهرة ، وقصده الناس من الاماكن والبلدان المجاورة ، وبدا يخرج عن رباطه بعض الوقت فيقيم باحدى الدور فى مدينة تونس يدرس ويعظ وينشر دعوته وطريقته بين تلاميذه ومحبيه ومريديه .

ولم تكن تونس غريبة على ابى الحسن فقد دخلها من قبل طفلا واقام بها شابا يافعا ، وفيها تلقى دروسه الاولى ، وفيها كانت له مناظرات سابقة مع علمائها وفقهائها ، وقد وفد عليها هذه المرة رجلا مكتمل الرجولة عالما وافر العلم ، صوفيا صاحب حالات وكرامات ، لهذا لم يكن غريبا أن يقبل عليه الناس من كل حدب وصوب يغترفون من علمه ، ويتأدبون بآدابه ، ويستمعون الى دروسه ومواعظه وتعاليمه ، ويلتمسون منه الدعاء والبركة ، فاتسعت حلقات دروسه وكثر اتباعه ومريدوه ، فكان اذا جلس للدرس والوعظ تحلقوا حوله بالعشرات ، واذا سار او انتقل ساروا فى ركابه بالمئات .

قال المناوي فى الكواكب الدرية :

كان الشيخ أبو الحسن اذا ركب تمشى اكابر الفقراء واكابر الدنيا حوله ، وتنشر الاعلام على راسه ، وتضرب الكاسات بين يديه .

هذا الاقبال أثار حقد العلماء وحسد الفقهاء فى تونس ، وجر على الشاذلي شرا كثيرا ، فتعرض لمحنة كبيرة ، فقد كان قاضي الجماعة وعالمها فى مدينة تونس على ذلك الوقت هو ابو القاسم ابن البراء ، وقد ضاق ابن البراء بأبى الحسن عندما راى الناس ينفضون من حوله ويتحلقون حول الشاذلي فى كل مكان يحل به ، وآلمته هذه المواكب الحافلة تتقدمها الاعلام والكوسات والطبول كلما انتقل الشاذلي من مكان الى مكان ، فبدا يكيد لابى الحسن وسعى به لدى سلطان تونس ابى زكرياء الحفصي ، واتهمه لديه بانه يتآمر على سلطانه ، فهو حسني علوي ، ولعله يسعى لاقامة ملك لنفسه كما اقام الفاطميون ملكهم من قبل فى تونس نفسها .

ولم يقنع ابن البراء بهذه التهمة الخطيرة فاتهم ابا الحسن بتهمة اخرى لا تقل عنها خطورة اتهمه بالزندقة والالحاد والخروج على الدين ، ليغري به علماء تونس وفقهائها كما أغرى به السلطان .

قال صاحب درة الاسرار :

« دخل قاضي الجماعة ابن البراء على السلطان ابي زكرياء فقال : ان هاهنا رجلا من اهل شاذلة سراق الحمير يدعي الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعي انه الفاطمي ، ويشوش عليك فى بلادك » .

كان ادعاء ابن البراء ماهرا ماكرا ، وكانت التهمة خطيرة ، ففي تونس إقام عبد الله المهدي من قبل الخلافة الفاطمية ، والشيعة يؤمنون بفكرة المهدى المنتظر ، ومنذ زالت الخلافة الفاطمية وهم يتطلعون الى اعادتها ، وابو الحسن الشاذلي ينتسب الى الحسن بن علي بن ابي طالب ، والناس يؤمنون بقطبانيته ، وابن البراء لا يرى فى كلمة القطب الا انها ستار يخفى وراءه معنى الامام الفاطمي او المهدي ، ولكن الحقيقة أن ابا الحسن لم يكن يعنى بالسياسة ولم يكن يفكر فى الملك ؛ بل انه لم يكن يساير غلاة الشيعة فى معتقداتهم ، فالشيعة لا يؤمنون الا بعلي ، وينكرون خلافة ابى بكر وعمر وعثمان ، اما ابو الحسن فقد كان يعترف بهؤلاء الصحابة الاجلاء وانه يعترف من فضلهم ، فقد كان يجيب من يسأله عن شيخه بقوله :

« اما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش ، واما الآن فانا استقى من عشرة ابحر : خمسة آدمية ، وخمسة سماوية ، فالخمسة الآدمية : ابو بكر وعمر وعثمان وعلي والنبي صلى الله عليه وسلم » .

على كل فان السلطان ابا زكريا لم ياخذ باقوال ابن البراء ، بل كان حكيما عادلا فامر بأن يعقد مجلس يحضره ابو الحسن والعلماء والفقهاء ، وان يناقش ابو الحسن فى كل هذه الدعاوي وغيرها ، ويعطى الفرصة للدفاع عن نفسه .

وعقد المجلس وحضره السلطان ، وجلس وراء حجاب .

قال صاحب درة الاسرار :

« اجتمع ابن البراء وجماعة من الفقهاء فى القضية، وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضى الله عنه ، وسالوه عن نسبه مرارا ، والشيخ يجيبهم عليه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه فى العلوم كلها فاقاض عليهم بعلوم اسكتهم بها ، فما استطاعوا ان يجاوبوه عنها من العلوم الموهوبة ، والشيخ يتكلم معهم بالعلوم المكتسبة ويشاركهم فيها » .

وافحم ابن البراء وصحبه ، وعلت كلمة الشاذلي، واقتنع السلطان ببراءته ، بل وآمن بولايته ، فالتفت الى ابن البراء ومن معه وقال لهم :

« هذا رجل من اكابر الاولياء وما لكم به طاقة » .

واحس ابن البراء بحرج الموقف ، فقد كان أهل تونس جميعا واقفين بالباب منتظرين نتيجة المحاكمة ، فاراد ان يعود الى تحريض السلطان على أبى الحسن وان يخيفه من ثورة الناس ان هو اطلق سراحه ، فقال له :

« والله لئن خرج فى هذه الساعة ليدخلن عليك اهل تونس ويخرجوك من بين اظهرهم ، فانهم مجتمعون على بابك » .

ولكن السلطان لم يعر هذا القول التفاتا ، وامر الفقهاء ان ينصرفوا ، واستبقى الشيخ ابا الحسن ، ولبث معه وقتا يحدثه ويلاطفه ، الى ان حضر اخو السلطان ابو عبد الله اللحياني — وكان من المعتقدين فى الشيخ — ، فامره ان يصحب الشيخ الى داره معززا مكرما .

خرج ابو الحسن من هذه المحنة منتصرا ، ولكنه بدا يحس ان المقام لم يطب له فى تونس ، فانه توقع ان القاضي ابن البراء لا يمكن ان يخضع للهزيمة التي مني بها ،وأنه لابد مدبر مكيدة ، وان الفتنة توشك ان تنشب بين اتباعه وبين الفقهاء من اصحاب البراء ، وهو رجل صوفي ينشد الصفاء والهدوء والحياة الصافية ، لهذا ازمع على مغادرة تونس ، واخذ يدبر الامر للرحلة ، وسمع السلطان بالخبر ، فتالم ، وقال لمن حملوا اليه الخبر :

« اي شيء يسمع به عن اقليمنا ؟ انه اتاه ولي من اولياء الله فضاق عليه حتى خرج فارا بنفسه » .

ثم ارسل الى الشيخ ابي الحسن من يحاول ان يثنيه عن عزمه ، ولكن الشيخ اعتذر اعتذارا لطيفا وقال للرسول :

« انا ما خرجت الا بنية الحج ، واذا قضى الله حاجتي اعود ان شاء الله تعالى »

وعلى أساس هذا الوعد بالعودة الى تونس بعد اداء فريضة الحج سمح السلطان للشيخ ابي الحسن بالسفر .

وقبل ان يغادر الشاذلي تونس ارسل الى ابن البراء رسالة قصيرة بها جملة واحدة يسخر فيها منه ومن اطماعه وحقده ، قال فيها :

« اتراني أوسع لك مدينة تونس » ؟

ولكن ابن البراء كان قلبه لا يزال عامرا بالحقد على الشيخ ابي الحسن منذ مني بالهزيمة فى مجلس السلطان فدبر للشيخ مكيدة اخرى ، لقد اعد رسالة الى سلطان مصر ، وقع عليها معه عدد من الشهود وحدثه فيها حديث الشيخ ، واتهمه فيها بانه شريف علوي وانه يسعى الى اعادة ملك الفاطميين ، وقال فى ختام الرسالة

ان هذا الواصل اليكم شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم .

وامر حامل الرسالة ان يسرع بها ليصل الى مصر قبل وصول الشيخ اليها .

وكان سلطان مصر فى ذلك الوقت هو الملك الكامل محمد الايوبي ، والايوبيون سنيو المذهب وهم الذين قضوا على المذهب الشيعي والدولة الفاطمية فى مصر ، وكان اخشى ما يخشونه الحركات الشيعية التي تعمل لاعادة الملك للفاطميين ، لهذا وجدت هذه الرسالة عند السلطان اذنا صاغية ، ولم يكد الشيخ يصل الى الاسكندرية حتى قبضت عليه السلطات المصرية ، وارسل محروسا الى القاهرة ، وعند وصوله اليها صعد به الى القلعة حيث عقد السلطان مجلسا من القضاة والعلماء والفقهاء ، ووجه السلطان التهمة الى الشيخ ابي الحسن وقال له :

« هذا عقد مشهود فيك ، وجهه ابن البراء من تونس ، وعلامته فيه »

ثم اطلعه على العقد .

وكانت محاكمة ثانية ، وتحدث الشيخ فبهر الجميع بحديثه ، واخذ بالبابهم ، وخاصة الملك الكامل

فقد كان رجلا عالما مثقفا واسع الفكر ، فعرف للشيخ ابي الحسن مكانته ، وادرك أن التهمة مفرضة ، ولم يجد في الشيخ شرا يخافه ، وخاصة انه لم يكن معتزما المقام في مصر ، بل كان متجها في طريقه الى الحج ، فقربه اليه واكرمه ، يقول الشيخ ابو الحسن :

« واقمنا عنده – اي عند الملك الكامل – في القلعة اياما ، واهتزت لنا الديار المصرية الى ان طلعنا للحج » .

وبعد اداء فريضة الحج اسرع الشيخ ابو الحسن بالعودة الى تونس .

ترى هل نسي الشيخ ما فعله به ابن البراء وكيف سعى به لدى سلطان تونس ثم لدى سلطان مصر ؟ وابن البراء كان لا يزال حيا يمارس القضاء في تونس .

ان الشيخ ابا الحسن لم ينس هذا كله ، ولكنه عاد وفاء بالوعد الذي وعده للسلطان ان يذهب للحج ثم يعود وعاد لغرض آخر اهم من هذا كله ، عاد ليلتقي بتلميذه وصفيه وخليفته ابي العباس المرسي ، فانه يروى عن ابي الحسن انه قال :

« ما ردني الى تونس الا هذا الشاب »

يقصد ابا العباس المرسي

وكان ابو العباس قد خرج من مدينة سبتة هو وابوه وامه واخوه في سنة 640 يقصدون الحج ، وحملتهم سفينة عبر البحر الابيض ، ولكن السفينة غرقت بالقرب من بونة ، وقدر لابي العباس واخيه ان ينجوا من الغرق ، فاتجها الى تونس واقاما بها الى أن عاد اليها ابو الحسن الشاذلي ، فتعرف اليه ابو العباس ، ولازمه منذ ذلك الحين ، ولم يقم الشيخ في تونس طويلا هذه المرة ، بل سرعان ما صحب تلميذه ومريديه ورحل نهائيا الى مدينة الاسكندرية في سنة 642 هـ . ولمقابلة التلميذ بالشيخ قصة يعنينا منها ان نعرف أن ابا الحسن كان يترقب هذه المقابلة وانه كان قد القى اليه خبر ابي العباس واتصاله به منذ امد طويل ، فقد قال لابي العباس في ختام مقابلته الاولى له :

« رفعت الي منذ عشر سنين » .

وبعد ان تحققت النبوءة لم يعد هناك ما يربط الشيخ بتونس ، لهذا لم يمكث بها هذه المرة غير سنتين وعمل في خلالهما على تصفية اموره ، فباع داره بها ثم اعد العدة للرحيل الى الشرق ، وكان في هذا تحقيق للجزء الاخير من نبوءة استاذه ابن مشيش التي كان قد ختمها بقوله « وبعد ذلك تنتقل الى بلاد المشرق وترث القطبانية » .

وفي سنة 542 اذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال الى مصر ، فقد روى عن الشيخ انه قال : رايت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا علي انتقل الى الديار المصرية فانك تربي فيها اربعين صديقا»

وكان الشاذلي قد مر بالديار المصرية مرارا اثناء روحاته السابقة الى الحج وغدواته منه ، وقد اعجب ولاشك اثناء زياراته هذه بمدينة الاسكندرية ، ولهذا آثر ان يحط رحاله بها ، وكان في صحبته عند رحيله عدد كبير من تلاميذه ومريديه الذين آثروا صحبته على البقاء في اوطانهم ، وكان في مقدمتهم تلميذه الاثير ابو العباس المرسي ، وخادمه الامين ابو العزائم ماضي بن سلطان ، والحاج محمد القرطبي ، وابو عبد الله البجائي ، وابو الحسن البجائي ، والخراز ، وغيرهم كثيرون .

وكان الركب وهو في طريقه الى الاسكندرية يتزايد عدده كلما مر بمدينة من المدن ، فينضم اليه الاتباع والمريدون يؤثرون الرحلة مع الشيخ على البقاء في اوطانهم ، يلتمسون في صحبته البركة ، وكانوا اثناء السير يتسابقون على القرب من دابته ، ويقضون الوقت في السمر والحديث اللطيف ، وعين الشيخ ترقبهم من بعيد واذنه تستمع الى حديثهم فيشاركهم مرة ويعلن اعجابه بما يسمع مرة اخرى .

روى صاحب المفاخر العلية ان رجلين كانا يمشيان قريبا من دابة الشيخ يستظلان برجله ، فقال احدهما للاخر يعاتبه : « يا فلان ، رايت فلانا يسيء معك العشرة وانت له محسن ؟ فقال صاحبه ان فلانا هذا من بلدي ، وانا اتمثل في معاملتي له بقول مجنون ليلى :

رأى المجنون في البيداء كلبا
فجر له من الاحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه
وقالوا كم انلت الكلب نيلا
فقال : دعوا الملامة أن عيني
راته مرة في حي ليلى

وسمع الشيخ – رضي الله عنه – حديث الرجلين – فاعجبه ، واخرج راسه من المحارة وقال للرجل : « اعد يا بني ما قلت » .

فاعاد الرجل مقالته ، فاهتزت نفس الشيخ طربا واخذ يتمايل في مكانه وهو يردد البيت الاخير :

دعوا الملامة ان عيني　　راته مرة في حي ليلا

« خذها يا بني والبسها فانت اولى بها مني ، جزاك الله يا بني على حسن عهدك » .

هذه القصة الظريفة تدل على ان الشيخ كان ذا ذوق ادبي رفيع يطرب للقول الجميل وللمعنى السامي ،

كما تدل على الاسلوب الذي كان يصطنعه لتاديب مريديه واتباعه فهو لا يترك فرصة ــ وان كانت عارضة ــ الا انتهزها للمكافاة على الخلق الكريم ليتسابق الكل في التحلي به والاقتداء بصاحب المكافاة .

وقد وصل الشيخ ابو الحسن وركبه وصحبه الى عمود السواري ودخلوا الاسكندرية من باب سدرة المقابل لهذا الباب ، واتخذ الشيخ له دارا يقيم فيها بالقرب من كوم الديماس ــ كوم الدكة الحالي ــ

وبدا الشيخ يلقي دروسه ويعقد الحلقات بعظ الناس ويدعو الى طريقته ومبادئه ، وجذبت اليه هذه الدروس والمواعيظ الجلة من علماء المدينة وفقهائها وفضلائها فلازموها ملازمة تامة ، وسيكون هؤلاء التلاميذ فيما بعد قادة الحياة الفكرية والروحية في المدينة ، نذكر منهم تلميذه الاثير ابا العباس المرسي ، والشيخ مكية الدين الاسمر ، والشيخ عبد الحكيم بن ابي الحوافر والشيخ ابا القاسم القباري ، والشيخ امين الدين جبريل ، والشيخ أبي المنير والشيخ شرف الدين البوتي وكثيرين غيرهم .

وكان الشيخ يعقد حلقات درسه في مسجد العطارين ، وهو اقرب المساجد الى داره ، وروى صاحب المفاخر العلية ان الشيخ كان يعقد كل ليلة في داره مجلسا ياتي الناس اليه من البلد يسمعون كلامه .

وقد اخذ الشيخ ابو الحسن الشاذلي تلاميذه ومريديه بالمبادىء المثلى في التصوف فهو لم يكن يفهم التصوف كما كان يفهمه بعض معاصريه وبعض المتدروشين حتى اليوم على انه بطالة تامة بحجة الزهد والتفرغ للعبادة ، بل كان يفهمه على انه صفاء تام في النفس وتقوى خالصة لله وحب لله تعالى وتعلق به وارتفاع بالروح وبالعمل وبالقول عن الدنايا .

وهذا كله لا يمكن ان يقعد الانسان عن السعي والعمل وطلب الرزق ، وكان يكره من المتصوفة التظاهر بالفقر فهو نوع من الادعاء ، ولكي يضرب لاتباعه المثل والقدوة كان يحيا هو حياة نظيفة منعمة فكان يلبس فاخر الثياب ، ويركب فاره الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد ، وكان يكره أن يلبس الصوفية الملابس المرقعة التي اصطلح الفقراء واهل الطريق على لبسها ، لانه كان يرى ان هذا اللباس ينادي على صاحبه : انا الفقير فاعطوني شيئا ، وينادي على سره بالافشاء ومن لبس الزي واتخذ المرقعة في دابه فقد ادعى . ومن اقواله :

« ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا باكل الشعير والنخالة ، وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية « وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

ودخل على الشيخ ابى الحسن مرة فقير عليه ملابس شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا منه ذلك الفقير وامسك ملابسه وقال :

« يا سيدي ما عبد الله بهذا اللباس الذي عليه ؟ »

فامسك الشيخ بملابس الفقير فوجد فيها خشونة فقال له :

« ولا عبد الله بهذا اللباس الذي عليك ، لباسي يقول للناس انا غني عنكم فلا تعطوني ، ولباسك يقول انا فقير اليكم فأعطوني » .

وكان ابو الحسن يدعو أتباعه الى العمل والسعي ويكره المريد المتعطل الذي يركن الى البطالة ويرتزق من سؤال الناس ، فالاسلام دين عزة وكرامة وجد وعمل ، وهذه الطرق الصوفية في رايه لا يجب ان تخرج عن التعاليم الاساسية للاسلام ، وان كان لها من هدف بعد هذا فانما هو الدعوة الى صفاء النفس وتقوى الله ، بل انه كان يغالي فيرى في العمل نوعا من العبادة بل هو خير عبادة ، انه التسبيح الدائم باسم الله . لهذا كان يقول لمريديه :

« عليكم بالسبب ــ اي العمل والسعي وراء الرزق ــ وليجعل احدكم مكوكه سبحته او تحريك اصابعه في الخياطة او الضفر سبحته » .

وقال ابن عطاء الله السكندري :

كان الشيخ ابو الحسن يكره المريد المتعطل ، ويكره ان يسأل تابعه الناس وقد كان جوادا بما يملك وكريما يكره البخل ويحث على طرق باب الاسباب والعمل »

وكان الشيخ يرى ان عبادة الله لا تستلزم ان تشق على نفسك وتعذبها وتكلفها من امرها شططا ، فانك اذا حمدت الله وانت متألم مما بك من فقر وفاقة أو مما تحس من تقشف وخشونة فان حمدك يكون مشوبا بالمرارة والضيق ، ولكنك لو حمدته ونفسك راضية مرضية بما يحيط بك من نعم الله الوفيرة وروحك هادئة مطمئنة بما هو مبسوط لديك من خيرات الله العميمة ، فان حمدك يكون صادرا من القلب والنفس والروح والجسم جميعا ، بل ان كل عضو من اعضائك يشاركك في هذا الحمد ، وما اجمل قول ابى الحسن في هذا المعنى :

« يا بني : برد الماء ، فانك اذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة ، واذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب كل عضو فيك بالحمد لله » .

يتبع

الرباط : الدكتور جمال السنال . المستشار الثقافي بسفارة الج . ع . م .

أبحاث ومقالات

سابق البربري ثانية

للأستاذ: عبد الله كنون

كنت نشرت في العدد الاول من السنة الثانية لمجلة دعوة الحق مقالا عن سابق البربري تعرضت فيه لشيء من التعريف بشخصه وادبه ، وضمنته ما تجمع لدي من شعره النفيس مبادرة بتسجيله في نشرة عمومية خشية ان يتفرق ايادي كما كان قبل ان اوفق الى جمعه ، لاسيما وهو حصيلة سنين من البحث ، وذخيرة عشرات من الكتب التي قد لا يحتوي الواحد منها الا على البيت او البيتين مغمورين في عدة ابيات ومقطعات شتى لشعراء من كل طبقة يأتي اسم سابق بينها نادرا كالكبريت الاحمر .

وعلى كثرة المراجع التي استقيت منها ما اثبته من معلومات قليلة عنه ، وما جمعته من شعره ، فقد بقيت هناك مراجع مهمة لترجمته لم تصل اليها يدي . واهمها تاريخ دمشق لابن عساكر ، كما اني اغفلت بعض المراجع التي لدي ، اثناء كتابة ذلك المقال ، وهي مما كان عندي لهذا البحث ، معلما عليه بعلامته ، ولكني انسيتها ، وسبحان من لا يعتريه سهو ولا ذهول .

والآن وقد وقفت على ترجمته في تاريخ ابن عساكر ، مصور معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، في رحلتي الاخيرة للقاهرة ، واستذكرت المراجع الاخرى التي فاتتني في المقال السابق ، اعود اليه ثانية فألقي بعض الضوء على على معالم شخصيته المجهولة ، واضيف الى النبذ الشعرية التي ذكرتها له قدرا آخر من شعره ، يكون مع تلك النبذ مجموعة لا باس بها من ادبه السامي الاغراض النبيل الاهداف، ومن يدري فلعلي اعود اليه مرة ثالثة اذا ظفرت بمعلومات جديدة عنه ، لاسيما وتاريخ الرقة للحراني قد طبع فيما بلغني، وهو مظنة لان يحتوي على شيء من اخباره وآثاره .

ولسهولة الروابط بين هذا المقال وسالفه احصر البحث في عناصره الاولى وهي اسم سابق ونسبه واخباره وشعره .

اسمه ونسبه :

فاما اسمه فقد انفصلت فيه على انه سابق بن عبد الله ، وان كنيته ابو سعيد من غير خلاف . ولكني وجدت في ابن عساكر اثناء بعض اسانيد روايته عنه تسمية والده بسعيد ، وانه يكنى ايضا ابا عبد الله وابا المهاجر وابا امية . ومقتضى ما عند الذهبي في الميزان وتبعه ابن حجر في اللسان ان هذه الكنى لسابق آخر غير صاحبنا ، وهو المعروف بالرقي .

وقد ذكرهما ابن ابي حاتم في الجرح والتعديل (ج ني قم ل ، طبع الهند) على انهما شخصان مختلفان فقال في الاول : « سابق البربري روى عن مكحول وروى عنه الاوزاعي سمعت ابي يقول ذلك » وقال في الثاني : « سابق الرقي روى عن العلاء بن عبد الرحمن وخطيب وابي خلف ، وروى عنه موسى بن اعين ومعافى بن عمران الموصلي وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، سمعت ابي يقول ذلك »

على ان ابن عدي جوز ان يكون هناك ثلاثة اشخاص يعرفون بهذا الاسم ، اعني سابق بن عبد الله ، كما في اللسان (ج 3 طبع الهند) وذلك انه لما وجد حديث اذا مدح الفاسق اهتز له العرش مرويا عن سابق بن عبد الله عن ابي خلف عن انس (ض) وابو خلف هذا لا يعرف ، استبعد ان يكون الراوي عنه هو سابق الرقي ، قال لان احاديثه مستقيمة عن مطرف وابي حنيفة، وان يكونهو سابق البربري الذي انما له كلام في الحكمة والزهد وغيرهما فاحتمل ان يكون راوي هذا الحديث شخصا ثالثا مسمى بهذا الاسم . وليت شعري ما المانع ان يكون سابق البربري صاحب الكلام في الحكمة والزهد راوية للحديث بقطع النظر عن كونه ثقة او ضعيفا في روايته ؟ ..

ونرجع الى ابن عساكر فنجده يقول : « سابق بن عبد الله ابو سعيد الرقي المعروف بالبربري » فيجمع له بين الوصفين البربري والرقي . ثم يقول : « روى عن ربيعة بن عبد الرحمن وداود بن ابي هند (ومكحول) وشعبة وعبد الله ابن سعيد بن ابي هند (ومطرف بن طريف) والعلاء بن عبد الرحمن) .. روى عنه (الاوزاعي) ومحمد بن يزيد ابن سنان الرهاوي وعبيد بن يزيد القردواني ومحمد بن سليم بن ابي داود وابو بدر شجاع بن الوليد السكوني (وموسى بن اعين) و (وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي) .. الخ » فيثبت ان الرقي الذي ذكر ابن ابي حاتم انه يروي عن العلاء بن عبد الرحمن وذكر ابن عدي انه يروي عن مطرف فضلا عن اشتراكه في بقية من روى عنهم من الشيوخ او رووا عنه بذكر الجميع كمكحول والاوزاعي .

ثم يشير ابن عساكر الى ما جنح اليه ابي حاتم من انهما شخصان اثنان وتجويز ابن عدي ان يكونوا ثلاثة ولكنه يتفضل على انهما اي البربري والرقي شخص واحد ، ويؤكد ذلك بالروايات التي يثبتها بسنده المتصل اليه من طريق ذكرهم من الرواة عنه والذين روى عنهم ، ومن جماعتهم خصيب وابو خلف اللذان ذكرهما ابن ابي حاتم في شيوخ الرقي وابو حنيفة المذكور كذلك عند ابن عدي .

فوضح ان كلا من سابق البربري وسابق الرقي انما هما اسم لشخص واحد ، وان تلك الكنى المختلفة هي لهذا الشخص بالذات . وان كان بقي معنا خلاف فانما هو في سابق المطاطي الذي قد يتوهم انه هو صاحبنا ، والامر على ما رجحناه في بحثنا السابق من انه غيره ، وهناك سابق آخر هو ابن ناجية من الرواة ولا يشتبه بمن ذكرنا .

واما نسبه فقد اشتهر انه البربري ، ويضاف اليه بناء على التحقيق المار آنفا انه الرقي لسكناه في الرقة كما يأتينا قريبا في اخباره .

وجاء في اللباب لابن الاثير « الصحيح ان سابقا البربري ليس منسوبا الى البربر وانما هو لقب له » ولاشك ان ابن الاثير يعقب بهذا التصحيح على السمعاني الذي نسب صاحبنا الى البربر . واغرب الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم حيث قال فيه سابق البلوي المعروف بالبربري فجعله عربيا ونسبه الى بلي من عرب اليمن بدون تردد ، وهو ما لم نعرفه لغيره .

لكنا نجد في ابن عساكر خبرا مرويا عن ابي عبيد الله بن مروان المزرابي يقول : « سابق البربري مولى الوليد يكنى ابا عبد الله ويقال ابو امية ، احد الزهاد المشهورين وله مع عمر بن عبد العزيز اخبار » فهو قد جعله مولى للوليد (بن عبد الملك) مما يقوي انه غير عربي وانه يمكن ان يكون من البربر لمكان فتوح الاموية في بلاد المغرب . وهنا لابد ان نتذكر ابيات سابق المطماطي التي رواها صاحب كتاب الذخيرة السنية في قتال البربر للروم بافريقية ايام سليمان بن عبد الملك ، وقد اوردناها في المقال الاول . وقائلها لابد ان يكون معاصرا لذلك القتال ، وليس عندنا شاعر يسمى بسابق وقته الا صاحبنا ، فان يكن هو قائلها فقد تزيد اطمئناننا الى انه بربري وانه من مطماطة بالذات .

وليس هذا فقط فقد جاء في لسان الميزان تعقيبا على ما سبق عن ابن عدي من ان صاحبنا انما له كلام في الحكمة والزهد ما نصه : « ومقتضاه ان البربري ليست له رواية ، وليس كذلك ، فقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال هذا من اهل بربر سكن الرقة » ففيه التصريح على سبيل الجزم بانه من البربر ، وبذلك لا يبقى لنا شك في نسبة البربري اخذا بقواعدهم من ان من حفظ حجة على من لم يحفظ وان المثبت مقدم على النافي — الى ان يقوم لنا دليل قاطع على خلاف ذلك .

اخبـــــاره :

واخبار سابق كثيرة ، روى ابن عساكر عن ابي احمد الحاكم قال : ابو سعيد سابق بن عبد الله البربري امام مسجد الرقة وقاضي اهلها ثم ذكر مشيخته ومن روى عنه وقال يعد في الشاميين . وروى ابن عساكر ايضا عن ابي بكر الخطيب انمن جملة مشيخته الامام اباحنيفة، وروى عن البخاري قال سابق البربري روى عنه الاوزاعي مرسل يعد في الشاميين . ثم عقب على ذلك بقوله كذا قال ويعني انه روى عنه مشافهة لا ارسالا كما في تهذيب تاريخ ابن عساكر .
وجاء في احد اسانيد ابن عساكر عنه اخبرنا سابق بن عبد الله وكان من البكائين .

اما الاحاديث التي رويت عنه حسبما ذكر ابن عساكر فهي : 1) حديث اذا مدح الفاسق غضب الله عز وجل ، وفي رواية اذا مدح الفاسق اهتز العرش وغضب له الرب عز وجل وهو الحديث الذي تكلم فيه ابن عدي على ما مر بسبب رواية سابق له عن ابي خلف وهو شخص غير معروف . وفي الرواية الثانية له عرفه الراوي بانه خادم انس بن مالك 2) حديث كان النبي صلى الله عليه وسلم يوتر من اول الليل ووسطه وآخره ثم ثبت له آخر الليل . 3) حديث الحلال بين والحرام بين وبين ذلك مشتبهات . فمن رتع فيهن فمن ان يأثم ومن اجتنبهن فهو ارفق بدينه كالمرتعي الى جنب حمى ، ومن ارتعى الى جنب حمى فيوشك ان يقع فيه ولكل ملك حمى، وحمى الله عز وجل في الارض الحرام .

وروى ابن عساكر ايضا عنه هذا الخبر قال : « كتب مكحول الى الحسن ونحن بدابق يسأله عن الطالب والمطلوب قال فجاءه الكتاب ، ان كنت طالبا فصل بالارض وان كنت مطلوبا فصل على الارض وعقب على ذلك بان الصواب فصل على الدابة .

وفي ميزان الاعتدال للذهبي ان محمد بن عبد الله القردواني روى عن ابيه عن سابق الرقي نحو ثلاثين حديثا .

شعره :

روى ابن عساكر بسنده الى احمد بن محمد بن يزيد الانصاري قال كنا عند محمد بن مصعب القرقشاني فقال لنا : بيت من الشعر من اخبرني لمن هو من الشعراء فله ثلاثون حديثا . وكان معنا رجل يعرف الشعر فقال : قولوا له اي بيت هو ؟ فقال محمد بن مصعب :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
كما يجلي سواد الظلمة القمر

قال فقال الرجل هذا لسابق البربري ، قال صدق : صدق ! فاي شيء بعده ؟ قال :

والعلم فيه حياة للقلوب كما
تحيى البلاد اذا ما مسها المطر

قال صدق والله ! واي شيء بعد ؟ قال :

فأنتم جزر للموت يأخذكم
كما البهائم في الدنيا لنا جزر

قال ابو علي الانصاري فحدثنا بالثلاثين حديثا التي وعده، والذي يعرف قيمة الحديث عند رجاله وضنهم به يقدر ما كان لسابق وشعره في نفس هذا الشيخ من منزلة حتى انه جعل من يعرف بيتا واحدا من شعره يستحق ان يحدث بثلاثين حديثا .

وذكر ابن عبد البر هذا الخبر برواية اخرى جاء فيها ان احمد بن يزيد بن مسلم الانصاري المعروف بابن ابي الحناجر قال كنا على باب محمد بن مصعب القرقشاني جماعة من اهل الحديث وفينا رجل عراقي بصير بالشعر ونحن نتمنى ان يخرج الينا فيحدثنا حديثا واحدا او حديثين اذ خرج الينا فقال قد خطر على قلبي بيت من الشعر فمن يخبرني لمن هو حدثته ثلاثة احاديث .. وفي آخر الخبر : فحدثته ستة احاديث سمعناها معه . وهي رواية تبرز الاهمية التي كان هذا الشيخ المحدث يعطيها لشعر سابق كما تفيد وتزيد بالنص عن تشوف من كان بباب الشيخ من اهل الحديث الى السماع منه ولو حديثا واحدا فاذا بهم يحصلون على ستة احاديث بسبب معرفة العراقي بشعر سابق .

وتحدث الجاحظ في البيان والتبيين عن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري فأطراهما بما اشتملا عليه من الحكمة والامثال التي لو تفرقت في اشعار غيرهما لا غنتها، وهذا قوله في ذلك : « لو كان شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري مفرقا في اشعار كثيرة لصارت تلك الاشعار ارفع مما هي عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق . ولكن القصيدة اذا كانت كلها امثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع » .

هذا بعض ما يتعلق بتقدير المتقدمين لادب سابق وشعره ، واذكر فيما يتعلق بذلك من طرف المتأخرين اني تحدث ذات مرة الى عميد الادب العربي الدكتور طه حسين على انه من الطلائع الاولى للادباء الذين ينتمون الى هذا المغرب الكبير (1) وانشدته بعض اشعاره السائرة وذكرت له ما كان من احتفال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز به في حين انه كان لا يأبه كثيرا بكبار شعراء العربية من امثال الفرزدق وجرير ، فلم يمالك الدكتور نفسه ان قال لي بفرنسيته الحلوة متحمسا . (o la la)

واستشهاد النحاة بشعره هو مما يدخل في باب تقدير المتقدمين له ، اذ كانوا لا يستشهدون الا بمن سلمت لغته من الشوائب . وقد تقدم الالماع في بحثنا الاول الى ما كان من نسبة بعضهم له ذلك البيت الشهير الذي يستشهد به على نصب الفعل بان مضمرة بعد الواو ، وهو :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك اذا فعلت عظيم

وان كان الصواب انه لغيره . كذلك استشهدوا في معاني اللام بقوله :

وللموت تغذو الوالدات سخالها
كما لخراب الدهر تبنى المساكن

ولعله من قصيدة تقدمت ثلاث مقطوعات منها . وهذا البيت بالخصوص هو مما نسبه له المرزباني كما عند ابن عساكر

الا ربما صار البغيض مصافيا
وحال عن العهد الصديق المنافق

---

(1) لم نحقق بعد ما اذا كان سابق ينتمي الى برابرة مغربنا الصغير ، وما جاء في صدر مقالنا السابق بدعوة الحق من هذه العبارة « دراسات في تاريخ الادب المغربية » لم يكن من وضعنا وانما هو من وضع قلم التحرير في المجلة

فلا تغرر ما عشت من متجمل
بظاهر ود قد تغطى البطائن

وانشد له الزجاجي في اماليه :

فلا تحقرن يسيرا تريد اخا بها
فانك فيها انت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما
تصبه على رغم عواقب ما صنع

وهو مما يستشهد به ايضا لجزم تصبه بدون جازم . واظنه من قصيدة طويلة سبق لنا رواية مقطوعة منها على نفس الوزن والقافية مما انشده سابق لعمر بن عبد العزيز .

ومما نسبه له المرزباني برواية ابن عساكر :

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى
سفاها وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع في سوف ويهلك دونها
وكم من حريص اهلكته مطامعه

ونسب اليه ايضا البيت الشهير :
وكائن ترى من صامت لك معجب الخ .. وهو لزهير كما لا يخفى

وروى ابن عساكر ايضا قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله : وليس يزجركم ما توعظون به الخ :

ما يشعرون بما في دينهم نقصوا
جهلا وان نقصوا دنياهم شعروا

وروي عن عثمان بن عبد الحميد قال دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر عظني يا سابق واوجز قال نعم يا امير المؤمنين وابلغ ان شاء الله ، فقال له هات . فأنشده :

اذا انت لم ترحل بزاد من التقى
ووافيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ان لا تكون شريكه
وارصدت قبل الموت ما كان ارصدا

وروي له مما ثبت في وصية الحسن بن سهل لابنه ابراهيم ابن الحسن منسوبا الى سابق هذه الابيات :

العلم والحلم خلتان هما ... لذي خلق زين اذا هما اجتمعا
صنوان لا يستتم حسنهما ... الا بجمع لذا وذاك معا
كم من وضيع سما به العلم والحلم ... فنال العلاء وارتفعا
ومن رفيع البنا اضاعهما ... اخمله ما ضاع فاتضعا

وروى مما انشده ابو الفضل الرياشي هذه القصيدة :

ان كنت متخذا خليلا ... فتوق وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفا ... في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها ... واكسب لها عملا جميلا
ومن استخف بنفسه ... زرعت له قالا وقيلا
واقل ما تجد الثيم ... عليك الا مستطيلا
والمرء ان عرف الجميل ... وجدته يأتي الجميلا
ولربما مثل البخيل ... الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا اجد السبيل ... اليه ، يكره ان ينيلا
ولذاك لا جعل الاله ... له الى خير سبيلا
يا مبتني الدار التي ... هو مزمع عنها الرحيلا
ان لم تنل خيرا اخاك ... فكن له عبدا ذليلا
وتجنب الشهوات واحذر ... ان تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة ... قد اورثت حزنا طويلا

وله ايضا هذه القصيدة في الاتعاظ بالموت واحواله رواها ابن عساكر

تأوبني هم كثير بلابله
طروقا فغال النوم عني غوائله

فويحي من الموت الذي هو واقع
وللموت باب انت لابد داخله

أيا من ريب الدهر يا نفس واهن
تجيش له بالمفظعات مراجله

فلم ار في الدنيا وذو الجهل غافل
اسيرا يخاف القتل واللهو شاغله

فما باله يفدي من الموت نفسه
ويأمن سيف الدهر والدهر قاتله

ولا يفتدي من موقف لو رمى الردى
به جبلا اضحت سرابا جنادله

وبعد دخول القبر يا نفس كربة
وهول يشيب المرضعين زلازله

اذا الارض جفت بعد ثقل جبالها
وخلى سبيل البحر يا نفس ساحله

فلا يرتجي عونا على حمل وزره
مسيء واولى الناس بالوزر حامله

اذا الجسد المعمور زايل روحه
خوى وجمال البيت يا نفس اهله

وقد كان فيه الروح حينا يزينه
وما العمد لولا نصله وحمائله

يزايلني مالي اذا النفس حشرجت
واهلي وكدحي لازمي لا ازايله

اذا كل عند الجهد يا نفس منطقي
وعاينت عند الموت ما لا احاوله

ويغل ما بالجلد من ظاهر الاذى
ولا يغسل الذنب الحالق غاسله

ومن تفلت الامراض يوما فانه
سيوشك يوما ان تصاب مقاتله

وقد تفلت الوحش الحبال وربما
تقبضت الوحشي يوما حبائله

اذا العلم لم تعمل به صار حجة
عليك ولم تعذر بما انت جاهله

وقد يعش الذكر القلوب وانما
يكون حياة العود في الماء وابله

ارى الغصن لا ينمى اذا جف اصله
وليس بباق من ابيحت اوائله

فان كنت قد ابصرت هذا فانما
يصدق قول المرء ما هو فاعله

ولا يستقيم الدهر سهم لوجهه
به ميل حتى يقوم مائله

وفيك الى الدنيا اعتراض وانما
تكال لمن الميزان ما انت كائله

فلا تنكث بعد الهدى عن بصيرة
كما نكث الحبل المضاعف فاتله

وتطلب في الدنيا المنازل والعلا
وتبغي نعيما دائما لا تزايله

كمن غره لمع السراب بقيعة
فقصر عن ورد تجيش مناهله

وقد خانت الدنيا قرونا تتابعوا
كما خان اعلى البيت يوما اسافله

وتصبح فيها آمنا ثم لم تكن
لتأمن في واد به الخوف نازله

وقد ختلتنا باللطيف من الهوى
كما يختل الوحشي بالشيء خاتله

رضينا بما فيها سفاها ولم يكن
يبيع سمين اللحم بالغث آكله

وعاقبة اللذات تخشى وانما
يكدر يوما عاجل الامر آجله

وان فرحت بالمرء يوما حلائل
فلابد يوما ان تساء حلائله

فكم من فتى قد كان في شرة الصبا
فأقصى بعد العذل عنه عواذله

اذا ما سما حق اليك وباطل
عليك فلا يذهب بحقك باطله

وقد يأمل الراجي فيكذب ظنه
امور ويلقى الشيء ما كان يأمله

وله هذه الابيات من الرجز في مدح رجل اسمه عون ذكرها في تهذيب تاريخ ابن عساكر وقال انها مما رواه الحافظ من طريق ابى بكر الجوزقي ولم يذكر قصتها :

بورك في عون وفي اعوانه
وفي جواريه وفي غلمانه
وبارك الله على دعائه
أطعمنا عون على خوانه
يعطي وما يقلع عن جفانه
وعن هداياه وعن ايوانه

ولا توجد هذه الابيات في مصور الاصل الذي اطلعنا عليه .

ومن تفاريق الابيات التي وقفنا عليها له في جامع بيان العلم لابن عبد البر مما لم يتقدم قوله :

والعلم يشفي ان اشتفى المجهول به
وبالدواء قديما يحسم الداء

قد قيل قبلي في الزمان الاقدم
اني وجدت العلم بالتعلم

ونحفظه : انا وجدنا .

وروى فيه ان سفيان الثوري كان ينشد متمثلا ببيتين له من لاميته الطويلة المارة آنفا وهما :

اذا العلم لم تعمل به كان حجة
عليك ولم تعذر بما انت جاهله
فان كنت قد اوتيت علما فانما
يصدق قول المرء ما هو فاعله

وفيهما مخالفة قليلة لرواية القصيدة .

واخيرا وليس آخرا بحول الله هذه تسعة وستون بيتا من شعر سابق تضاف الى ثمانية وثمانين بيتا تضمنها البحث السابق فيكون المجموع سبعة وخمسين ومائة ، وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا ، ان شاء الله .

طنجة : عبد الله كنون

بمناسبة المائة التاسعة لذكرى ابن حزم
عصره وإنتاجه

للأستاذ فتحي النجاري

قبل ان نحاول ان نحيط ببعض مظاهر ابن حزم ذلك الكاتب العظيم الذي انجبته مدينة قرطبة من بين مفكريها نود ان نلقي نظرة ولو سريعة على عصر ابن حزم وما كانت عليه الاحوال في ذلك الزمن اما له من تداخل بين الوسط والانتاج الفكري ولتأثير البيئة على اصحابها ، مع العلم بان هذا لا يكفي لتفسير ظهور كتاب وشعراء فطاحل من الآونة الى الاخرى اذ انه يبقى مجال للمواهب الخاصة وللعبقرية الشخصية .

على كل حال فما كانت عليه الاندلس مجملا من الناحية السياسية والفكرية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري آخر القرن العاشر المسيحي الذي انجب ابن حزم الذي يعد بمثابة علم من اعلام الدين، والشعر والادب والسياسة والتاريخ والفلسفة فقد توفي الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة 350 ه بعد عهد مزدهر دام خمسين سنة قضى على الاضطرابات وهيأ للناس رخاء وامنا ساعدا على رفع شان العلم والعرفان . وقد ساهم الخليفة مباشرة في احياء هذه الحركة العلمية بتقريبه له الكتاب والشعراء وفتح خزائنه لهم . كما اعتمد في حكمه على الصقالبة الذين كان يثق بهم اكثر من العرب والبربر ، حتى كان كثير منهم من الارستقراطيين في المال والجاه . وقد يصف احمد امين قرطبة في هذه الفترة في كتابه ظهر الاسلام ج 3 فيقول :

« ومن اجل هدوء البلاد وطمأنينتها وطول عهد عبد الرحمن استطاعت الحضارة الاندلسية ان تزهو وتزدهر ، حتى كانت قرطبة تفوق كثير من مدن اوربا . ازدهرت التجارة والزراعة ، حتى بلغ دخل الدولة السنوي من طريق الضرائب والمكوس في عهد عبد الرحمن الناصر 20 مليون دينار ، ويقول الاستاذ بروفنسال : انها بلغت فيما بعد 40 مليونا وربما كان وصف العمارة التي انشئت في عهد عبد الرحمن من اكبر الدلائل على حضارته ، كالاوصاف البديعة التي وصفوا بها مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن هذا ، وسماها باسم جارية حظية عنده . قالوا انه عمل في بنائها عشرة آلاف عامل في خمس وعشرين سنة ، وبنى فيها قصرا للخليفة ومنازل للموظفين ، الى البساتين والقاعات من الذهب والرخام ذي الالوان المتعددة ، وبجانب هذه الحضارة المادية كانت الحضارة الفكرية من شعر وفلسفة وتصوف وحركات دينية وعلمية .

وهذا ما حدا بابن حزم ان يكتب رسالة في فضل علماء الاندلس ، عاب فيها على اهل بلده تقصيرهم في ذكر علمائهم وآثارهم، فقد بين في رسالته هذه ان الاندلسيين لا يقلون على الشرقيين في سائر العلوم اللهم الا ما كان من علم الكلام والحساب والهندسة وهذا ما يؤكده القلقشندي في رسالة له في فضل الاندلس : « ان الاجماع حصل على فضل الاندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والادباء والشعراء ما اشتهر في الآفاق الى ان ذهبت اخبارهم ودرسوا ودرست آثارهم » وكان من ملوكهم العلماء : المنصور بن ابي عامر ، وبنو عباد ، وبنو صمادح ، وبنو الافطس ، وبنو ذي النون ، وبنو هود. ومن وزرائهم الادباء الذين بالغوا شوطا عظيما في النظم والنثر.

وقد اشتهر منهم في الفقه عبد الملك بن حبيب ، وابو الوليد الباجي ، وابو بكر بن العربي، وابو الوليد ابن رشد وفي الحفظ ابن حزم الذي زهد في الوزارة ومال الى رتبة العلم التي اعتبرها فوق كل رتبة . وقد يطول بنا الكلام لو اردنا ذكر مشاهيرهم ولنكتف بالاشارة الى اللغوي الكبير ابن سيده صاحب كتاب المحكم ، والنحوي ابي علي الشلوبيني والفيلسوف ابن باجة ، والمنجم المقتدر ابن هود والطبيب ابن طفيل والادب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . اما مدينة قرطبة نفسها فقد كانت عاصمة ملك ومركز ادب وعلم ، وصفها الثعالبي بهذا التعبير « واما قرطبة فكرسي المملكة في القديم ، ومركز العلم ، ومنار التقى ، ومحل التعظيم والتقدير » . وقد كان للفقهاء سطوة كبيرة حيث

كان الخلفاء لا يقدمون على كبيرة اوصغيرة الا بعد استشارتهم، وكان جلهم من اهل السنة والجماعة من اتباع مالك . كما ورد ذلك عند عدة مؤلفين من بينهم الجغرافي المقدسي الذي اهتم كثيرا بالفرق الاسلامية والاديان في كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» قال «واهل الاندلس على مذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون : « لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك فان ظهروا على حنفي او شافعي نفوه ، وان عثروا على معتزلي او شيعي ربما قتلوه ... »

فعلى هذه الحال من ازدهار فكري وادبي ونوع من التعصب المذهبي كانت الاندلس على عهد دولة الامويين . فبعد وفاة الناصر سنة 350 تولى ابنه الحكم فسار على سيرة ابيه .

وقد كان كذلك ولوعا بالعلم والادب ويجمل بنا ان نذكر في هذا الصدد ، مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه حيث قال : ان عدة الفهارس في خزانة الحكم العلمية ، التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة وليس فيها الا ذكر الدواوين فقط » .

وقد توفي سنة 366 بعد حكم طال ست عشرة سنة . وبوفاته ضعفت الدولة الاموية وبدأت تظهر علامات الفتور والاضمحلال على العهد الذهبي للاندلس بقيام الفتن والاضطرابات ومن ثمة لم تقم للامويين قائمة اذ استتب الامر للوزراء والحجاب فنشأت بذلك دولة بني عامر في عهد هشام ابن الحكم الذي كان يبلغ عشرة اعوام فقط، فبانقراض الخلافة الاموية استقل كل وال بولايته ، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الاندلس فظهر ابن جهور في قرطبة وابن عباد في اشبيلية والفتن قائمة حتى ملك الاندلس يوسف بن تاشفين من المرابطين .

هذه نظرة خاطفة عن الدولة الاموية وانقراضها الذي يصادف العهد المضطرب الذي شهده وعاشه ابن حزم . فكيف تكون نشأته وتربيته وانفعالاته في مثل هذه البيئة ؟

اصله ، ونشأته ، وشبابه :

اسمه الكامل : ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم ، وقد اجمع مترجموه على انه ازداد يوم آخر رمضان سنة 384 هـ الموافق 7 نوفمبر 994 بقرطبة . وكان ينتمي الى عائلة اصلها من قلعة « منشت ليشم » فـي اقليم الزاوية على حسب «ارشاد الاريب» ولم يعتنق الاسلام الا جده الاعلى يزيد الذي كان مسيحيا وذا اصل فارسي . وتولى والده الوزارة للحاجب المنصور بن ابي عامر ثم لابنه المظفر واسرته كما قال الفتح بن خاقان : « بنو حزم فتية علم وادب وتنبيه ومجد وحسب » وقد طعن بعض الناس في انتساب ابن حزم الى فارس كما ورد ذلك عند ياقوت . وقد تغير حال الاب والابن بتغير السلطان وابعاد العامريين خصوصا بعد ان تولى الحكم هشام الثاني في ذي الحجة عام 400 الموافق ليوليوز سنة 1010 . فتوفي ابوه بذي القعدة سنة اثنتين واربعمائة بعد ان عاش هذه الانقلابات السياسية والاضطرابات والفتن الناتجة عنها التي غيرت حاله واساءت اليه بعد عز شامخ ورفاهية كبيرة . فغادر ابو محمد علي بن حزم قرطبة في محرم 404 وكانت هذه قد اثرت فيها الفتن . ومن حسن حظنا ان ابن حزم اعطانا صورا صافية عن طفولته وشبابه في كتابه « طوق الحمامة في الالف والالفة » الذي يمكن ان يعد من عدة وجوه كترجمة ذاتية للكاتب او «اعترافات» له مكتوبة في قالب شاعري يسحر من يطالع عليه ويغمره كما يمكننا ان نرى فيه ، كما سيأتي ذلك من بعد لما نتكلم عن ابن حزم كأديب وشاعر ، دقة تصويره وتعبيره لما يروج في النفوس من الخواطر والهواجس وانفعالات الاشخاص خصوصا النساء منهم الشيء الذي يجعله يذكرنا في اولئك الكتاب الفرنسيين الذين ظهروا في القرن السابع عشر كراسين على الخصوص ، ولا غرابة في ذلك اذ المنبع واحد ، وهو الثقافة اليونانية . والذي يهمنا هنا هو اننا نجد معلومات صافية عن نشأته وشبابه ودراسته ومراهقته وحبه في تأليفه هذا الذي قد يكون من الراجح انه انتهى من كتابته سنة418 وعمره يناهز حينئذ اربعا وثلاثين سنة . فقد اخبرنا ابن حزم انه نشأ نشأة المترفين كما يؤكد ذلك صاعد حين يصفه بانه كان : « يلبس الحرير ولا يرضى بالمكانة الا بالسرير » . وقد وصف ابن حزم قصور آبائه التي كان يتنقل بينها وهو منعم غير مكلف بعمل حتى توفي والده .

وامتازت تربية ابن حزم بالعناية الخاصة التي اولاها له ابوه حيث جعل له المربيات اللواتي اعتنين بنشأته وتهذيبه . ومن جملة ما يحكي عن طفولته قوله : «ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري » لاني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين ايديهن ، ولم اعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وانا في الشباب وحين تبقل وجهي ؛ وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الاشعار ، ودربنني في الخط . ولم يكن وكدي واعمال ذهني منذ اول فهمي وانا في سن الطفولة جدا ، الا تعرف اسبابهن والبحث عن اخبارهن وتحصيل ذلك ، وانا لا انسى شيئا مما اراه منهن » وبدل ان تصرفه هذه العيشة الراضية والتربية الارستقراطية عن الجد والمثابرة في طلب العلم فانها ضاعفت احساساته وشعوره ونمت فيه مدارك الملاحظة واستقراء الامور وتمييزها . ويخبرنا ياقوت ان ابن حزم :« اقام في الوزارة من وقت بلوغه الى انتهاء سنه ست وعشرين سنة » كما وزر للمرتضى صاحب بلنسية وحارب في جيشه بغرناطة وقد اسر سنة 403 . ثم لما تولى الخلافة صديقه عبد الرحمن المستظهر في رمضان سنة 414اسند له الوزارة التي اقام فيها بضعة اشهر حتى مقتل عبد الرحمن في

نفس السنة وعاد ابن حزم الى الوزارة من جديد ايام هشام المعتد فيما بين سنة 418 ـ 422 وتنتهي هنا حياته الوزارية التي سيتركها نهائيا ليصرف كل جهوده في العلم والتصنيف والجدل وبث دعوته في المذهب الظاهري والدفاع عن آرائه.

وقد تسبب لابن حزم من اجل تشيعه للامويين نكبات حيث انقرضت دولتهم وقامت دولة العلويين الطالبيين وابن جهور خصوصا ، وامتاز ابن حزم بصراحة متناهية ورباطة جأش جعلتاه لا يتراجع في الحق ولا يقبل مهاودة فيه ، ولا يتخذ سبل المصانعة او الرياء او ما نسميه اليوم بالسياسة والمداراة . وقال يصف تلك النكبات التي حلت بقرطبة واعتقاله وتغريبه : « ثم شغلنا بعد قيام امير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء ارباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والاغرام الفادح والاستتار وارزمت الفتنة والقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا الى ان توفي ابي ، الوزير رحمه الله ونحن في هذه الاحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام 402 هـ واتصلت بنا تلك الحال بعده .. ثم ضرب الدهر ضرباته ، واجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة اول المحرم سنة 404 هـ .... » وها هو يصف خراب دوره مستعملا نثرا بديعا ممتعا : « وقد اخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها : انه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها ، وقد امحت رسومها ، وطمست اعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة ، بعد الانس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعابا مفزعة بعد الامن .. » ثم يزيد قائلا في خاتمة كتابه « طوق الحمامة » ما كان عليه من اضطراب وترحال وتنكر الاحباب : « فانت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهتم بما نحن فيه من نبو الديار ، والجلاء عن الاوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الاخوان وفساد الاحوال ، وتبدل الايام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والاجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب الجاه والمال ، والفكر في صيانة الاهل والولد ، والياس من الرجوع الى موضوع الاهل ، ومدافعة الدهر وانتظار الاقدار .... » فلم يذق ابن حزم الاستقرار الا في اول عهد شبابه ثم لم ينعم بعد بطمأنينة الاستقرار في اي مكان من اجل اغراء حساده به ووشايتهم له لحدة لسانه وافراطه في الصراحة . فهذا ما جعله يطوف بين المرية وشاطبة وبلنسية واشبيلية وجزيرة ميورقة ويرحل الى القيروان فيرجع لوطنه الاندلس .

طلبه وعلمه ومصنفاته :

لقد تقدم لنا انه تعلم مبادىء العلوم والقرآن على يد نساء من قصر ابيه لكن لم يستوعب الامور بل حتى في السادسة والعشرين من عمره وهو يجهل ابسط الامور الفقهية كما يشهد بذلك « ارشاد الاريب » انني بلغت الى هذا الشأن وانا لا ادري كيف اجبر صلاة من الصلوات » وقد يخبرنا الوزير الامام ابو محمد بن العربي عن الظروف المباشرة التي دلت ابن حزم ليتفقه في علوم الدين وهي جهله بأبسط الامور الفقهية . اما الفتن والمحن فقد ارغمته كذلك ان يترك الوزارة ويتعاطى الدرس والبحث والتأليف ، والمقري وابن بشكوال في الصلة ، يحددان تاريخ اول سماعه بقولهما : «واول سماعه عن ابن الجسور قبل الاربعمائة » .

شيوخه :

سمع ابن حزم كذلك على عدة شيوخ نخص بالذكر منهم : ابا عمر احمد بن الحسين ويحيى بن مسعود ابن وجه الجنة ، ويوسف ابن عبد الله القاضي ، وابا بكر حمام بن احمد القاضي ، ومحمد بن سعيد بن نبات . وقرأ الفقه على ابي عبد الله بن دحون . وقد اخذ بالقول بالظاهر ـ على ما يظهر ـ عن مسعود بن سليمان بن مفلت ابو الخيار . قال الضبي : « مسعود فقيه عالم زاهد يميل الى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره ابو محمد بن حزم وكان احد شيوخه » وقد تتلمذ لشيوخ كثيرين وذكر هو نفسه في « طوق الحمامة » أنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة .

تلاميذه :

وقرأ عليه بدوره طلاب منهم ابو عبد الله الحميدي وابنه الفضل ابو رفع ، والامام الوزير ابو محمد بن العربي . وقد روى عنه الكثير وصاحبه ابن العربي سبعة اعوام وقرأ عليه اكثر تصانيفه ، كما يشهد بذلك : « صحبت الامام ابا محمد علي بن حزم سبعة اعوام ، وسمعت منه جميع مصنفاته » حاشا المجلد الاخير من كتاب «الفصل» . ومما يروى عن عزيمته لطلب العلم وحسن نيته مجادلته مع الباجي الذي قال له : « انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك طلبته وانت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وانا اسهر بقنديل بائت في السوق ، فاجابه ابن حزم بهذا الجواب المسكت الذي يظهر دهاء مؤلفنا وذكاءه : وغايتي القصوى من طلب العلم من اجل العلم ، هذا الكلام عليك لا لك ، لانك طلبت العلم وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وانا طلبته في حين ما تعلمته وما ذكرته ، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والاخرة » . فكانت غايته هي نشر العلم والعرفان وانشد في ذلك :

مناي من الدنيا علوم ابثها
وانشرها في كل باد وحاضر

دعاء الى القرآن والسنن ، التي
تأسى رجال ذكرها في المحاضر

وقد بلغ منتاه فعلا بانصرافه الكامل للعلم المنقول والمعقول الشائع في عصره ، فابو مروان بن حيان يقول فيه : « كان ابو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدال ونسب وما يتعلق باذيال الادب مع المشاركة في كثير من انواع التعليم القديم من المنطق والفلسفة » والذهبي يشهد بدوره ان : «ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه ادوات الاجتهاد كاملة» فطبعه الحاد وصراحته التي لا تعرف حدودا ، ومعارضته لمخالفيه اشد الاعتراض تلك هي ميزته وظاهرة من مزاجه جعلته يناظر ويجادل بابلغ العبارات واشدها ولا يقبل مهاودة ممن لا يشاطره رأيه كما يتجلى ذلك في كتبه المذهبية والفقهية التي يروي فيها جداله ككتابيه « الملل والاهواء والنحل » و « المحلى » .

مصنفاتـــه :

ورجل كابن حزم الذي امتاز بفكر عميق ومعرفة واسعة صرف كل همه للعلم ونشره ، لا غرابة ان يصنف الكتب الكثيرة المتعددة المواضع واكثرها في الفلسفة والمنطق والكلام والشريعة والحديث والادب . ومن المؤسف جدا اننا لم نتوصل الا بالقليل من تلك الكتب التي كانت على ما يزعمه مترجمو ابن حزم نحو الاربعمائة . وفقدانها راجع الى امرين : صراحة ابن حزم وجداله العنيف ، وعدم تسامح الحكام والعنصرية المذهبية المالكية السائدة حينئذ في الاندلس والتي ادت بابن عباد تحت ضغط الحساد والفقهاء الى احراق كتب ابن حزم باشبيلية . وقد تعرض ابن حزم لذلك بقوله :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل اذ انزل ويدفن في قبري

دعوني من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

والا فعودوا في المكاتب بدأة
فكم دون ما تبغون لله من ستر

وسنقتصر على ذكر البعض من كتبه التي وصلت الينا حتى لا يقع ملل من جراء سرد اسمائها كلها فنذكر على الخصوص :

— ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد .
— الاحكام في اصول الاحكام .
— الاخلاق والسير .
— اخلاق النفس .
— اسماء الله الحسنى .
— الاصول والفروع .
— اظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل وبيان تناقض ما بايديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل .
— الامامة والسياسة .
— البيان عن حقيقة الايمان .
— التقريب لحدود المنطق .
— جمهرة الانساب .
— شرح احاديث الموطأ والكلام على مسائله .
— الصادع في الرد على من قال بالتقليد .
— طوق الحمامة .
— الفصل في الملل والاهواء والنحل .
— رسالة في المفاضلة بين الصحابة .
— كشف الالتباس لما بين الظاهرية واصحاب القياس .
— المحلى في شرح المجلى .
— مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل .
— الناسخ والمنسوخ .
— نقط العروس .
— نكت الاسلام .

ومن خلال مصنفاته التي وصلت الينا يتبين ان ابن حزم جمع بين العلم والادب والشعر والاصول والفقه والتاريخ والفلسفة والكلام والجدال لذلك رأينا لزاما ان نشير ولو بايجاز الى هذين المظهرين الذين غلبا عليه فهو شاعر اديب ذو لوعة صادقة وعاطفة ناطقة وشعور رقيق ، وفي نفس الوقت امام كبير ومجادل فقيه يدافع عن آرائه بكل ما اوتي من صراحة وقوة .

ابن حزم شاعر أديب :

وقد كان لمؤلفاته هذه تأثير عميق على الاجيال التي تلته الى درجة ان فريقا يعتبره اديبا كبيرا وفريقا آخر اماما وفقيها عظيما .

ومما يلاحظ ان جانبه الادبي الشاعري طغى على جانبه الآخر الفقهي والفلسفي عند سواد الناس .

فاسم ابن حزم مقرون عند العوام وسواد الناس بكتابه « طوق الحمامة » وذلك لما فيه من عاطفة صادقة ودقة الوصف وسحر البلاغة ، ولا غرابة في هذا فان الظاهرة الغير الجدية والكتابة الحقيقة هي التي تطغى على الكتاب الكبار . فالجاحظ مثلا معروف بنكته عند العوام اكثر مما هو معروف بتآليفه الجدية . اضف الى هذا اننا نجد في هذا الكتاب مرآة واضحة عن نفسية ابن حزم ومجتمعه فنشاطره افراحه واحزانه وحبه رغم مر القرون . والذي يزيده تقديرا هو انه لم يكتب قط بشعره فانه كان يقول الشعر لارضاء نفسه مترجما عن آلامه واحزانه ومسراته وحبه فيضفي فيه شعوره وعواطفه الصادقة

وقد ترك لنا اكثر من الف بيت في موضوع الحب كما ترك نثرا بديعا في هذا الموضوع ومن جملة ذلك هذه الاعترافات التي تعبر عن عواطف صادقة ومشاعر رقيقة : « ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وادركت الحظوظ على اختلافها . فما الدنو من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ولا الاوبة بعد طول الغيبة ، ولا الامن بعد الخوف ، ولا التروح على المال .. من الموقع في النفس ما للوصل ، ولا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجرة ..

وقد قال ايضا في هذا الباب : « ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه . ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رايت اشد تبجحا ولا اعظم سرورا بما هو فيه من محب ايقن ان قلب محبوبه عنده... » وحضرت مقام المعتذرين بين ايدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رايت اذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان . » وهذا يدل على رهافة نفس الشاعر الاديب الذي احب وعرف الحب وتوصل الى تعرف النفوس وما انطوت عليها . وقد انتقد شعره بانه تغلب عليه من الآونة الى الاخرى الوان اساليب الفقهاء لكن هذا لا ينقص من قيمته كثيرا ففيه كذلك كما رأينا معاني لطيفة وتعبير عن عاطفة صادقة . ومن ذلك قوله :

لئن اصبحت مرتحلا بجسمي
فقلبي عندكم ابدا مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى
له سأل المعاينة الكليم

ابن حزم فقيه مجادل :

وقد يتفادى هذا النقص ـ ان اعتبرنا هذا نقصا ـ تراثه الفقهي الذي خلفه فانه يجب ان لا يغيب عن ذهننا ان ابا محمد علي بن حزم كان قبل كل شيء اماما يدعو الى الظاهرية وفقيها جليلا يهتم بمسائل الدين والشريعة ، وقد يمكن ان تدخل هنا ريبة في بعض الاذهان عن صدق هذا الامام وهو صاحب غزل له المام بأحوال النساء ، لكنه ان احب تعفف ، ويقول في هذا المضمار : « اني لاعرف هذا واتقنه ، ومع هذا يعلم الله ـ وكفى به عليما ـ اني بريء الساحة ، سليم الاديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة . واني اقسم بالله اجل الاقسام اني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت الى يومي هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى ، والمعتصم فيما بقي . » فلا تناقض في حياة ابن حزم فهو اديب متعفف ، وامام كبير ، قال احمد امين في ظهر الاسلام : « وكان عالم الاندلس الديني غير مدافع ابن حزم ، فقد كان واسع الاطلاع ، قوي النفس في الجدال ، متعدد نواحي النبوغ لسنا يهاجم من خالفه ، حتى يدخله في قمقم . يظن من يقرأ له علما انه لا يحسن غير هذا العلم لمهارته فيه . فاذا هو كذلك يحسن كل علم تقريبا ، فهو نابغة في الحديث ، وفي علم الكلام ، وفي التاريخ ، وفي اصول الفقه ، وفي الادب » ومما امتاز به ابن حزم انه لم يتبع في الفقه المذهب الشائع في الاندلس وهو مذهب الامام مالك بن انس . ولكنه اختار المذهب الشافعي وهذا هو احد اسباب اضطهاده من لدن الولاة والفقهاء لكنه سرعان ما عدل عن مذهب الشافعي واجتهد لنفسه على «قواعد اهل الظاهر» وذلك يرجع لكراهيته للتقليد ولتأثير استاذه الظاهري ابي الخيار فأخذ بالكتاب والسنة والاجماع واستنكر الرأي والقياس كما فعل من قبل صاحب هذا المذهب داود بن علي الاصفهاني المتوفى سنة 270 ه وقد اوضح وبسط مذهب الظاهرية في كتابه في اصول الفقه « الاحكام في اصول الاحكام » الذي يضع فيه اسس الظاهرية وهي : نفي القياس ، والتمسك بالعموم اعني بذلك القرآن والحديث والقول بالبراءة الاصلية وهي اباحة كل شيء ما لم يمنعه نص صريح ويتأثر ابن تيمية بهذا لما يقول بالتوقيف في العبادات والعفو في المعاملات ، ثم التمسك بظاهر اللفظ بدل التأويل . وقد حمل الفقهاء على هذا المذهب وانتقدوا عليه كونه يضعف الشريعة والعقيدة بتركه المشكلات التي لم تخطر لنبي محمد (ص) ولا لاصحابه ، ويؤدي هذا كذلك الى التشبيه والتجسيم فيما يخص صفات الله عز وجل ، ولكن ابن حزم قد استطاع ان يتجنب التشبيه باتخاذه موقفا وسطا بين اهل السنة والجماعة واصحاب التأويل المعتزلة فيما يتعلق بالصفات .

اما كتابه في الفروع « المحلى » فانه عرض للمذهب الظاهري كما يفهمه ابن حزم الذي يظهر فيه بمظهر المجتهد المطلق .

وتأليفه في اصول الدين المسمى بـ « كتاب الملل والاهواء والنحل » فقد يقارن فيه الاسلام بباقي الديانات التي بحثها في « كتاب النحل » ثم يدرس الفرق الاسلامية في كتاب الملل فيقسم تلك الفرق الى اربع دون اهل السنة والجماعة :

1 ـ المرجئة التي يتعرض اثناء دراستها الى مسألة الايمان والكفر والوعيد .

2 ـ المعتزلة فيبحث في نفس الوقت مسألة التوحيد التي له فيها موقف خاص .

3 ـ الشيعة التي يدرس معها الامامة التي تهتم بها وتجعلها محورها التي تقوم عليه . وموقف ابن حزم من الامامة والخلافة واضح ، فانه كان يميل الى الامويين ،

وكان يعتبر معاوية كمجتهد مخطئ ، وقد اوضح فكرته هذه في كتابه « المفاضلة بين الصحابة » .

4 ـ الخوارج وما يشغلهم من مسائل كالايمان هل يزيد او ينقص ، وما موقف الاسلام من تارك الصلاة او مرتكب الكبائر وتحديد الامة ، هل يعتبر من دار الكفر او الايمان من لم يتبع الخوارج . ويعتبر ابن حزم اهل السنة اهل حق ، اذ الفرق الاخرى هم اهل البدع لكن لا يمنعه هذا من الرد على الاشاعرة بالاخص وان انتسبوا الى اهل السنة والجماعة .

وعلى نقيض ما شهدناه في ابن حزم الاديب الشاعر من رقة العواطف ونبل الشعور ورهافة النفس فانه يظهر في مصنفاته العلمية بمظهر المجادل العنيف الذي لا يقبل مهاودة ولا تسامحا في الافكار . فتأليفه مثلا « الملل والاهواء والنحل » مرآة لتلك الحلقات التي كان يناظر فيها بعض الفقهاء المسلمين كأبي الوليد الباجي وحتى بعض احبار اليهود والنصارى . فأسلوبه هنا عنيف جدا غير هادئ . ويظهر من هذا انه كان مع الاسف ضيق النفس وحاد المزاج يناقش خصومه بعبارات ممزوجة بالسب والقذف لا تليق بمقامه وعلمه ، فانه لم يعمل بقوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي احسن » وقوله : « ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » فلقد كان بوده ان يدافع عن افكاره بطرق الليق به ويقنع مخالفيه بدل ان ينفرهم منه ويؤلبهم عليه . فالصراحة لا تتنافى في نظرنا مع اللياقة وفرض الرأي بالعنف والقوة وشدة اللهجة بل السب هو وسيلة الضعفاء الذين لا يستطيعون الادلاء بالحجج القاطعة . وحاشا مع هذا ان يكون ابن حزم من اولائك الذين تنقصهم الحجة ولا يعرفون طرق الجدال لكن ذلك راجع الى مزاجه وابتلائه بما اسميه : « داء الصراحة » ، والطبيعة تغلب على التطبع . وقد لحق ابن حزم ـ كما اشرنا الى ذلك ـ اضطهادات وتألب المخالفين والحساد عليه طوال حياته وبعد مماته من جراء قساوة لهجته وعنفه . فقد ساهم بنفسه في طرف من من نكباته وليست صفة العبقري التي اتصف بها هذا الكاتب العظيم هي التي جعلته غير مفهوم من عصره . فالكمال لله وكفى المرء نبلا ان تعد معائبه .

وجانب من جوانب انتاج هذا الكاتب العبقري تكفي لنكفر عنه بقية هفواته . ومما يشرفه انه يعتبر اول مؤرخ للافكار الدينية ، في كتابه « الفصل » الذي يمتاز به عن من سبقه بطريقته العلمية في التبويب والاستنباط ، وهي طريقة البحث العلمي المعمول بها في يومنا هذا . وقد شرح ذلك الاستاذ الشهير Asin - Palacios في مقدمة ترجمته « للفصل » واستعرض مناقشة ابن حزم لليهودية وكتبها خصوصا التوراة والبراهين العقلية التاريخية التي اوردها لينكر صحة هذه ويبين تحريفها .

وابرز ان ابن حزم يناقش كذلك العقائد الانجيلية المسيحية بجميع الحجج والمناقضات التي اوردها فيما بعد بحاث القرن الثامن عشر امثال فولتير . وبدراسته للنصوص دراسة علمية ، نقدية تاريخية فهو معلم « رونان » . ولم يكن تأثيره مقتصرا على دراسات تأريخ الاديان وعلم مقارناتها بل اغرب من هذا ، فلا يبعد ان يكون ابن حزم قد اثر حتى في الديانة المسيحية كديانة بطرق غير مباشرة . فقد يلاحظ الاستاذ اسين بلاسيوس عن حق ان ابن حزم استعمل مذهبه الظاهري كذلك في تفسير الانجيل كما فعل في الاسلام . فكان يستنكر تأويل رجال الكنيسة ويخشى ان يكونوا خاطئين في تأويلاتهم هذه . فكانت نتيجة ذلك القول بالرجوع الى النصوص ، وترك التأويلات والعمل بالاجتهاد الشخصي . وهذا ما جاءت به مدرسة الاصلاح المسيحي البرتستانية .

وشخصية كانت تحمل مثل افكار ابن حزم واثرت حتى في الديانات الاخرى فمن باب اولى واحرى ان تؤثر في دينها كذلك تأثيرا بالغا وتبعث فيه تيارات جديدة . فحركة الاصلاح في الاسلام هي مدينة لامور كثيرة لابن حزم ، منها استنكاره للتقليد ، وادخاله الطرق العلمية العقلية في دراسة الاديان . فله فضل كبير على آباء حركة التجديد والاصلاح في الاسلام التي تقول بالرجوع الى النصوص وبالاجتهاد ، خصوصا منهم ابن تيمية الحنبلي ، وعبد الوهاب ومن تلاهم من بعد كالافغاني والشيخ عبده ورشيد رضا .

فقد كان ابن حزم يمثل اهل التوحيد الذين حاربوا التوسل بالاولياء ومذاهب الصوفية لما فيها من انزلاقات وخرافات ، ولذا يعتبر ابن حزم ابا الحركة السلفية .

فكاتب جمع بين الادب والعلم بما فيه السماعي والعقلي وكان لانتاجه هذا الضخم الكبير ، اثر في الاجيال التي تلته ولا زال تأثيره يسري ويعمل ، ولا ادل على ذلك من حركة التجديد والاصلاح الاسلامية التي ظهرت في اول هذا القرن والطرق العلمية لدراسة النصوص الدينية دراسة نقدية ، كان لابد ان ينصف ويجد من يعترف له باصالة فكره وسعة اطلاعه ويجعله في المقام الذي يليق به رغم ما عرف به من عنف الجدال وضيق الصدر الذي ينفر منه الناس ويؤلبهم عليه . فالمؤرخ الشهير والفقيه الجليل الذهبي يشهد بأن « ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه ادوات الاجتهاد كاملة . » وابن تيمية كثيرا ما يعتمد عليه ويستشهد به ولم يتوقف صيت ابن حزم في القرون الخالية بل استمر مفعوله حتى قرننا هذا حيث اصبح موضع دراسات وابحاث من طرف عظماء المؤرخين والكتاب الشرقيين منهم والغربيين وقد يطول ذكر اسمائهم ان نحن اردنا ان نعرض اليهم كلهم ، وهذا ما يمنح ابن حزم صبغة عالمية فيحتل المكانة اللائقة به بين عباقرة وعظماء الانسانية .

الرباط ـ فتحي النجاري

المعتمد بن عبّاد في المغرب

للأستاذ : عبد القادر زمامة

حظي المعتمد بن عباد عند المؤرخين القدامى والمعاصرين بمكانة مرموقة لم يحظ بها غيره من ملوك الطوائف الذين كان لهم نفس الاتجاه في الحياة . وكان لهم نفس المصير الذي صار اليه المعتمد على يد المرابطين ... واهتزت المشاعر .. وجادت المدامع وتحركت الاقلام .. لوصف مأساة المعتمد كملك جواد شجاع . وكشاعر رقيق مكلوم القلب مرزأ . ابتسمت له الحياة حينا من الدهر في قصور قرطبة واشبيلية لتتجهم له في اغمات ..

وقد شقي المرابطون بقضية المعتمد وكيل لهم بالحق والباطل ما نشاهده في آثار الاقلام الشرقية والغربية .. وفوقت سهام النقد للبطل العظيم يوسف بن تاشفين من اجل المصير الذي اختاره للمعتمد ! !

ونحن في هذا المقام لا نبكي المعتمد ولا نرثي شاعريته . كما اننا لانضع ابن تاشفين في ميزان النقد التاريخي من جديد ؛ لنتهمه مع المتهمين .. او نبرئه مع المبرئين .. او لنتلمس له الاعذار مع المتلمسين .. وقد قال التاريخ كلمته في الموضوع ومن العبث تكرارها ..

والذي يهمنا هنا ان نبحث ادبيا وتاريخيا عن حياة المعتمد في المغرب كيف بدات وكيف انتهت . مع الالمام بالاثار الشعرية التي رافقت هذه الحياة وسجلتها .

هل عرف المعتمد المغرب قبل النفي ..؟

ان ابن دحية 633 هـ يشير في كتابه المطرب من اشعار اهل المغرب (✻) يشير الى ان المعتمد بن عباد جاز البحر الى المغرب من اجل الاستنجاد بيوسف بن تاشفين قبل معركة الزلاقة ، وصاحب القرطاس يسجل هذا الجو في شيء من التفصيل ويعين لنا المكان الذي تلاقى فيه الرجلان لاول مرة (بليطة ؟) على ثلاث مراحل من سبتة . (✻)

والمراكشي في المعجب يقول :

ولما كانت سنة 479 هـ جاز المعتمد على الله البحر قاصدا مدينة مراكش الى يوسف بن تاشفين مستنصرا به على الروم (✻) .

وينقل صاحب الاستقصاء عن ابن خلدون ان المعتمد اتصل بابن تاشفين في مدينة فاس (✻) .

والى جانب هذه الروايات التي تثبت جواز المعتمد الى المغرب .. نجد روايات اخرى تقتصر على المراسلات التي تمت بين الرجلين مع الوفد الذي كان يضم نخبة من علماء الاندلس وقضاتها ورجال الراي فيها لحث ابن تاشفين على القيام بحملة لصد اطماع الصليبيين عن الحواضر الاندلسية ....

وقد نقل أبو العباس المقري في النفح كثيرا من هذه الروايات عن عدة مصادر وسجل كلمة المعتمد التي اجاب بها من لامه على الاستنجاد بالمرابطين فقال :

✻ انظر ص 25

✻ ص 51 ج 2

✻ ص 130 ط القاهرة

✻ ص 34 ج 2 ط الدار البيضاء

رعي الجمال خير من رعي الخنازير .. !

وعلى كل فسيظل السؤال مطروحا فى انتظار ظفرنا بنصوص معاصرة تجعلنا نطمئن كل الاطمئنان..

والمصدر المعاصر الذي بين ايدينا الآن هو مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة . وقد كتبها فى منفاه باغمات وهي لا تشير الا الى الرسائل والسفارات . ولا تعرج على جواز المعتمد الى المغرب .

قرار يوسف بن تاشفين

كان ابن تاشفين ومساعدوه الاقربون من قواد ووزراء ورجال القضاء والفتوى الشرعية لا تعوزهم المبررات المادية والدينية ؛ وقد عالجوا القضية الاندلسية طيلة سنوات وخاضوا عدة معارك لصد التيار الصليبي .. كما كان ابن تاشفين لا تعوزه المبررات السياسية لتصفية نظام ملوك الطوائف على أساس يضمن لما بقي فى يد المسلمين من المدن والقرى والحصون حياة الاستقرار والامن والعدل والوحدة ولو الى حين .. ! فاتخذ قراره الخطير ونفذه بنفسه فيما يرجع لبني زيري ملوك غرناطة اذ ذاك . ومالقة..

وارسل كلا من تميم بن بلقين امير مالقة .. واخيه عبد الله امير غرناطة الى المغرب ... اما فيما يرجع لبني عباد فى اشبيلية وقرطبة وبني الافطس وغيرهما فقد عهد به الى قائديه : سير بن ابي بكر . وابن الحاج ..

ولم يقع المعتمد بن عباد فى قبضة القواد المرابطين الا بعد معارك طاحنة سالت فيها الدماء وتراكمت الاشلاء واملى فيها امير اشبيلية وابناؤه المدافعون عن قرطبة وغيرها على خصومهم دروسا عن البطولة والفروسية مانزال تجد روعتها . وقد فصلتها عنا احقاب من السنين .

وقد كان من سوء طالع المعتمد ان يقع اسيرا فى قبضة قواد يوسف لا فى قبضة يد يوسف نفسها ...

المعتمد فى طنجة

كانت طنجة هي المرحلة الاولى فى طريق المعتمد الى منفاه السحيق فى اغمات بعد ان تجرع مرارة الثكل في ابنائه الاربعة الذين سقطوا دفاعا عن حوزتهم .. !

وفى طنجة يمكث اياما لا ندري عددها بالضبط ولكنها ايام سمحت له بالاتصال بشعرائها الذين تهافتوا عليه كما كانوا يتهافتون على بلاطه فى اشبيلية ...

ولم نعرف من هؤلاء الشعراء الا ابا الحسن بن عبد الغني الفهري المعروف بالحصري الضرير وكان شاعرا مطبوعا هاجر من وطنه القيروان الى الاندلس واتصل بملوك الطوائف ونال جوائزهم ؛ وقد دخل على المعتمد بعد موت ابيه المعتضد فانشده ارتجالا :

مات عباد ولكن
بقي الفرع الكريم
فكأن الميت حي
غير ان « الضاد » ميم

ثم استوطن طنجة ومنها كان يبعث باشعاره الى المعتمد .. وقد حدثنا ابن خلكان (*) فى الوفيات انه بعث غلامه الى المعتمد فى اشبيلية . فابطأ عنه وبلغه ان المعتمد لم يحتفل به فقال :

تبه الركب الهجوعا
ولم الدهر الفجوعا ..!!
حمص الجنة قالت
لغلامي لا رجوعا ..!!
رحم الله غلامي
مات فى الجنة جوعا ..!!

وهو صاحب القصيدة الشهيرة التي عارضها كثير من فحول الشعراء فى القديم والحديث :

يا ليل الصب متى غده
اقيام الساعة موعده

وقد كانت للحصري دالة على المعتمد وله فى دولته عدة قصائد ومقطعات وقد الف له كتاب (المستحسن من الاشعار)

ويشاء القدر الا يتمكن الحصري من رفعه للمعتمد الا وهو اسير فى طنجة .. فياخذ الكتاب ويثيب صاحبه بصلة هزيلة .. هي كل ما يملك الامير الاسير .. مع قطعة شعرية للاعتذار ..

ولكن الحصري لم يجب المعتمد كما يقتضي الوفاء ؛ بل وادب اللياقة .. فكتب له المعتمد هذه الابيات يلومه :

---

* ج 3 ص 20

قل لمن قد جمع العلـ
ـم وما احصى صوابه
كان في الصرة شعر
فانتظرنا جوابه
قد اثبناك فهلا
جلب الشعر ثوابه

ويظهر ان من يسميهم المراكشي فى المعجب بزعانفة الشعراء وملحقي اهل الكدية . بلغهم صنيع المعتمد بشاعره القديم ... فتهافتوا على الامير الاسير وتعرضوا له بكل طريق . طامعين ان ينالهم طل من وبله .. أو غيض من فيضه ... ولكن هيهات فالمعتمد سلبته الايام كل شيء الا اريحيته ..!! فلذلك قال مستسلما متحسرا :

شعراء طنجة كلهم والمغرب
ذهبوا من الاغراب ابعد مذهب
سالوا العسير من الاسير وانه
بسؤلهم لاحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية
طي الحشا ساواهم فى المطلب

وهكذا مكث المعتمد فى طنجة اياما معدودات ولكن عين التاريخ لم تهملها فسجلت لنا هذه الاتصالات . ويا ليتها سجلت لنا اشياء اخرى كنا فى حاجة اليها كاسماء هؤلاء الشعراء .

وتصدر الاوامر للخروج بالمعتمد من طنجة فإلى اين يسير ..؟

يظهر انه الى حد صدور هذه الاوامر . لم يكن قد تقرر مصيره النهائي فى اغمات .. بل لم يكن تقرر مصير الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الذي سبقه الى الاسر بشهور .. والذي سينقل بعد ذلك هو ايضا الى اغمات ...

والذين ارخوا لمأساة المعتمد وتتبعوا اقامته فى المغرب منذ حل بطنجة سنة 484 الى ان توفي باغمات سنة 488 يذكرون انه مكث بمكناسة اشهرا قبل ان يلزم بالاقامة فى اغمات

لكننا عثرنا على معلومات اخرى ننقلها عن مصدرها فيما ياتي :

المعتمد فى قلعة فازار بالاطلس المتوسط

في كتاب الاستبصار هذا النص ننقله بتمامه لاهميته الجغرافية والتاريخية (*) ...

« ... ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازار وهو جبل كبير تسكنه امم كثيرة من البربر . ويطردهم الثلج فينزلون الى ريف البحر الغربي . وهم اهل كسب من الغنم والبقر والخيل ...

« وفى هذا الجبل قلعة كبيرة تنسب للمهدي بن توالي الجيفشي ؟ ... وهي فى نهاية المنعة . اقام عليها عسكر اللمتونيين سبع سنوات ! وبناؤها بالالواح .. واليها كان تغريب المعتمد بن عباد .. فقال متمثلا حزينا : بنقض العهود لبلد اهله يهود ! وبناؤه عود !.. وجيرانه قرود .. ! وكان اليهود فى ذلك التاريخ اكثر سكانه لانهم سوقة فيلتجؤون للحصن حيطة على سلعتهم » .

ومن هذا النص تدرك ان المعتمد نقل من طنجة الى قلعة فازار بالاطلس المتوسط قبل ان يلتحق بمكناس ولعل ابن تاشفين كان له رأي فى ذلك ثم عدل عنه .

المعتمد فى مكناسة

سبق المعتمد الى هذه المدينة الامير عبد الله كاتب المذكرات واخوه تميم وهناك كان يستطلع اخبار الاندلس وما آل اليه امر ملوك الطوائف ويكتب معلوماته وخواطره عن هذه الاحداث . وقد ترك لنا معلومات مدققة لا نستغني عنها فى معرفة هذه الحقبة من تاريخ المرابطين وسياستهم .

وقد مكث المعتمد فى مكناسة عدة شهور كما يقول المراكشي ، ويظهر ان السبب فى تاخير تقرير مصير ملوك الطوائف كان يرجع الى عملية التصفية التي يقوم بها القواد المرابطون فى الاندلس .

ويقول صاحب المذكرات عن المعتمد :

« فقدم الينا بمكناسة مع دخلته وبقي فيها الى ان سيق معنا الى اغمات » .

(*) ص 187

ولم نستطع ان نجد للمعتمد كلمة سجلها في مقامه بمكناسة لامدحا . ولا ذما . ولا شعرا . ولا نثرا . بل لم نعثر له على اي اتصال بينه وبين اهلها .. وقد نامت عين التاريخ هذه المرة عن مقام المعتمد في مكناسة . وعن الطريق التي سلكها من الشمال الى الجنوب ولم تستيقظ الا والمعتمد يرسف في قيوده باغمات . (*)

المعتمد في اغمات

بوصول المعتمد الى اغمات تبدا حياة الاسر الحقيقية . ويلقي التاريخ اضواءه على كثير من الاحداث . ويتهافت المؤرخون على تسجيل كثير منها على اختلاف مشاربهم .. كما تثير توابع الاسر من نفي وسجن وقيد مشاعر المعتمد ومشاعر الشعراء الذين عاشوا حينا من الدهر على نعمته ..

وشعر المعتمد في هذه الحقبة من حياته شعر القلب المكلوم المفجوع . والجد العاثر . والجناح الكسير ... غير ان ذلك لم يكن ليفقده عزة النفس وعلو الهمة ...

فقد ناجى قيده مرة بقوله :

غنتك اغماتية الالحان
ثقلت على الارواح والابدان

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى
فغدا عليك القيد كالثعبان

متمددا بحذاك كل تمدد
متعطفا لا رحمة للعاني

قلبي الى الرحمن يشكو بثه
ما خاب من يشكو الى الرحمن

ومرة بقوله :

قيدي اما تعلمني مسلما
ابيت ان تشفق او ترحما

دمي شراب لك واللحم قد
اكلته لا تهشم الاعظما

يبصرني فيك ابو هاشم
فينثني القلب وقد هشما

ويظهر ان السنوات التي قضاها المعتمد في اغمات لم تكن على وتيرة واحدة . فتارة تجده سجينا يرسف في قيده . وتارة تجده طليقا يخالط الناس ويجالس الزائرين . وينظم الشعر ويراسل الاصدقاء .

والفرق واضح بين المعاملة التي عومل بها الامير عبد الله صاحب المذكرات من اللين والتغاضي .. والمعاملة التي عومل بها المعتمد ولعل قيام ابنه عبد الجبار بثورة على المرابطين في الاندلس كان في مقدمة الاسباب التي جعلتهم يشددون الخناق عليه ...

وقد سجل المعتمد هذه الثورة في قصيدته :

كذا يهلك السيف في جفنه
الى هز كفي طويل الحنين

وفيها يتمنى ان لو كان بامكانه ان يخوض المعارك ويباشر نزال خصومه ...

وفي اغمات وصلته قصيدة من بنته بثينة التي فقدت يوم حوصر قصره في اشبيلية .. وكان مصيرها ان بيعت في سوق الرقيق على انها سبية ..! ولكنها امتنعت على مالكها .. وابت ان تمكن نفسها منه الا بزواج شرعي يرتضيه ابوها المعتمد ويوافق عليه ...

فاجابها المعتمد بابيات يوافق على هذا الزواج ويقول :

بثينتي كوني به برة
قد قضى الدهر باسعافه

ولم يودع راجفة بثينة . حتى استقبل رادفة زوجته « اعتماد » الرمكية . وكانت صبابة ما انفت له الايام من المسليات . ودفنت الى جوار محبسه .. فصار يستعجل الايام . ويحث خطاها . لياخذ مضجعه في التراب بازائها وقد اسعفه الدهر . بهذه الامنية فنام قرير العين بها

اولاد المعتمد في الاسر

كان للمعتمد عدد وافر من البنات والبنين . نعرف منهم الامراء الاربعة الذين قتلوا قبل وصوله

---

* قد روى له بعض المؤرخين قوله في جبال درن (الاطلس) :

هذه جبال درن — وكم بها من درن
فليتني لم ارها — وليتها لم ترني

الى المنفى . كما نعرف منهم عبد الجبار الذي ثار على المرابطين واعتصم بحصن اركش بعد نفي ابيه .. حتى سقط صريع سهم اصماه ...

اما في اغمات فنجد معه طفله الصغير ابا هاشم الذي رآه في القيد فارتاع .

يبصرني فيك ابو هاشم
فينثني والقلب قد هشما

كما نجد المعتمد يصف بناته يوم العيد في قطعته الشهيرة :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا
فساءك العيد في اغمات ماسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

ونجد معه في اغمات ابنه فخر الدولة الذي تعلم الصياغة ورآه الشاعر ابن اللبانة فقال في ذلك قصيدة شهيرة .

ونجد له ابنا آخر اسمه شرف الدولة ذكره ابن اللبانة ايضا ووصفه بحسن السمت وكثرة الصمت ..

واخيرا نجد في مخطوطة الذيل والتكملة للحافظ ابن عبد الملك ترجمة صغيرة لعبد الوهاب بن المعتمد الذي كان يلقب بعز الدولة .

قال ابن عبد الملك : اخذ عبد الوهاب عن مالك بن وهيب وغيره ولما خلع ابوه اخذ عن مالك بمراكش. وولي صلاة الفريضة بمراكش واستنيب بالخطبة دهرا طويلا ثم تخلى عن ذلك وانقبض وذهب الى تادلا وبها توفي بعد العشرين وخمسمائة .

المعتمد يستقبل زائريه في اغمات

خلد المعتمد عدة قصائد ومقطعات يسجل فيها شعوره بالغربة نقرا منها الشيء الكثير الجيد في كتب التاريخ والادب وقد بالغ بعض المسرفين في حب المعتمد الحانقين على المرابطين فقال : « لولا المعتمد ما ذكرت اغمات » .

وقد صارت في سنوات نفيه كعبة قصدها اهل الوفاء من شعرائه واصدقائه . كما صار قبره فيما بعد مزار المعجبين بشعره وشخصيته .

ولم تكن اغمات اذ ذاك قرية مهجورة في سفح الاطلس الكبير كما يحلو لبعضهم ان يقول .. **لاننا نعلم** انها كانت هي العاصمة الاولى للمرابطين قبل ان يلتحقوا بمراكش .. وقد كان لها شان كبير في التجارة والفراسة والفلاحة ويتحدث عنها المؤرخون والجغرافيون حديثا طويلا .

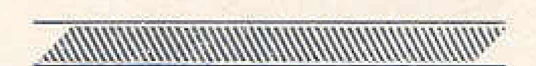
وعلى عهد المعتمد كانت حواء بنت يوسف بن تاشفين تسكن اغمات **وقد سالها المعتمد خباء** فاعتذرت ... فقال في ذلك شعرا .

واستقبل المعتمد في منفاه شاعره الفحل ابا بكر بن اللبانة الداني وقد خلد هذا الشاعر قصة المعتمد شعرا ونثرا والف كتاب « نظم السلوك في وعظ الملوك » الذي ينقل عنه المقري كثيرا من اخبار المعتمد . كما الف كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » في شعر ابن عباد .. وشعره في ابن عباد شهير لانطيل بذكره ...

وكذلك زاره الشاعران ابن حمديس الصقلي وابو بحر بن عبد الصمد ولكل منهما قصائد في الموضوع ...

ثم ودع المعتمد هذه الحياة بشرها وخيرها ولسان حاله يكرر كلمته الشهيرة : « رعي الجمال خير من رعي الخنازير .. !! » .

فاس : عبد القادر زمامة



الفكر المغربي في عصر بني مرين

للأستاذ : الحسن السائح

كان امل المرينيين يهدف الى احياء مذهب مالك . لذلك اسسوا لتحقيق هذه الدعوة مدارس داخلية . واشرفوا على سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهي، وشجعوا الطلبة على الاقامة بعاصمة فاس ليرتووا من معين المذهبية الموجهة ، وزادوا فى تمكينهم للقرويين فسارعوا الى الاحتفاظ بما تبقى من تراث الاندلس المذهبي وايواء خزائنها ، فنقلوا الكتب من الاندلس الى المغرب ، ويروى ان ثلاثة عشر حملا من نفائس المخطوطات نقلت الى فاس ، وكما آوت الكتب آوت العلماء الواردين على المغرب ، ومنهم : ابن الخطيب ، وابن خلدون ، وغيرهما من فطاحل الفكر فى المغرب العربي الذين سعوا الى تحصين الثقافة فى الجناح الغربي للعالم الاسلامي .

وعند ما تساقطت عدة مدن فى يد العدو ومنها سبتة التي استولى عليها البرتغال سنة 118 هـ 1415 م لاذ علماؤها بالقرويين واصبحت مركز الاشعاع الثقافي فى العالم الاسلامي وتعددت بها كراسي العلوم خصوصا المعتنية بالنصوص الدينية حفظا وفهما مع الايثار للحفظ ، وتعددت المدارس حيث زاد المرينيون على ما بقي منها فى عهد المرابطين والموحدين . وكان لكل مدرسة استاذان يراجعان مع التلاميذ ، كما تعددت الخزائن الكتبية بها ولذلك ازدهرت القرويين فى عصر بني مرين ازدهارا كبيرا ويقول ليفي بروفنصال انه بفضل ملوك بنى مرين لم تكن عاصمة فاس فى القرن الرابع عشر الميلادي لتحسد العواصم الاسلامية الاخرى ، بل ان (باديا ليليش) المعروف بابي العباس اعتبر فاسا بمثابة اثينا افريقيا ، وذكر مثل قوله الدكتور رينو فى كتابه الطب القديم بالمغرب ، واصبحت القرويين ملتقى الاجانب من مختلف الجنسيات والديار كما قال ذلك دوكامبو .. وذكر كابريال شارمس فى كتاب (سفارة الى المغرب) : ان مدارس فاس كانت طوال مدة مديدة اولى مدارس العالم ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التي شاع نورها فى اسبانيا فاضاء جوانب اوربا وشجعت الحركة التعليمية تشجيعا منقطع النظير ، وكان الاساتذة يتقاضون علاوات من اللحم والحبوب والزيوت وكل ما يحتاجون اليه طوال السنة ، ويتمتعون بحق السكنى مجانا كما ورد ذلك عن الحرشاوي احد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس فى القرن التاسع عشر . فقد روي عنه : وكان الاساتذة ملزمين بالمكث فى فاس وقد بني ابو يوسف المدارس والمعاهد ورتب الاوقاف واجرى المرتبات على العلماء والطلبة فى كل شهر كما بنى الزوايا فى الفلوات النائية واوقف عليها الاوقاف وسار المرينيون على منواله فانشا ابو الحسن فى كل بلد من بلاد المغرب الاقصى والاوسط (مدرسة) فى فاس وتازا ومكناس وطنجة وسبتة وآنفا وازمور واسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان كما جاء فى المسند الصحيح لابن مرزوق (ص 35 من مجلة هسبريس عام 952) ، وقد وقف محمد الابلي العبدري استاذ ابن خلدون ضد بناء المدارس ، ولاحظ ان العلم اذهبه بناء المدارس وايده احمد بابا السوداني الذي ذكر بانه اصبح يتعاطى الاقراء على الكراسي من لا يحسن العلم ، حيث صار ذلك بالتوارث (انظر نيل الابتهاج ص 246) ، وقد حبست اوقاف على تشجيع دراسة بعض العلوم فكان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازي وكانت كراسي العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها احباس خاصة .

وكان الطلبة يقيمون في احدى المدارس الاربع عشرة ويتقاضون خبزة في اليوم وجرت العادة ان يشتري الطالب غرفته بالمدرسة وله ان يبيع المفتاح عند انتهاء مدة الدروس ، ولاحظ ابن مرزوق ان انشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى انشئت مدرسة الحلفائيين بفاس هي الصفارين المؤسسة عام 670 ، ثم انشا ابو سعيد مدرسة العطارين ، والبيضاء والصهريج والوادي والمصباحية ويظهر ان المقصود عند ابن مرزوق هو انتشار المدارس ، والا فقد ذكر عبد السلام القادري في (الاحوال في شرفاء وزان) أن يوسف بن تاشفين اسس مدرسة الصابرين بفاس .

التعليم في العصر المريني :

لقد جمد اسلوب التعليم في اول العصر المريني واصبح كما عبر عنه ابن خلدون بقوله : « وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين ، وانما تصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها .

وخمدت الحركة الفكرية الحرة التي بثها الموحدون ولم تبق منها الا بقايا ضئيلة محفوظة عند بعض العلماء المبثوثين في عدة مدن هم الذين تسلسل فيهم النبوغ المغربي ، كالحضرمي ، وابن خلدون ، وابن الخطيب وغيرهم ، على انهم بلغوا القمة في الشروح والحواشي الفقهية ، وكان من نبغاء علماء الاسلام في هذا العصر العبدوسي ، وابن الصباغ الذي املي في الحديث اربعمائة فائدة ، وصرف العلماء همتهم في هذا العصر الى التلخيصات والاختصار ، وقد وفقوا في بعضها ولم يوفقوا في بعضها الآخر ، ولعل من اهم المحاولات ما كتبه ابن آجروم ذلك المختصر الصغير لدراسة النحو العربي الذي كان يعتبر تجربة للتبسيط والاختصار والاخذ بمختلف المذاهب النحوية ، فلم يتقيد بمدرسة البصرة او الكوفة ، فهو يرى الاعراب معنويا على عادة الكوفيين ، وقسمه الى اربعة اقسام ، منها الجزم على طريقة البصريين ولم يذكر في التوابع عطف البدل .. الخ ملاحظته .

على ان اهم علم نبغ فيه المغاربة هو علم القراآت، فقد اشتغلوا به واتقنوه ويقول عنه الدكتور عبد العزيز الاهواني في مجلة (معهد المخطوطات العربية ، المجلة الاولى ، الجزء الاول) بان هذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة .

ولعل عنايتهم بالفقه فاقت العناية باي علم آخر، واصبح مختصر خليل هو المدونة الجديدة التي يعذب الكلام في حل رموزه ، وقد ادخل مختصر خليل الى فاس ابن اسحاق المالكي المتوفى سنة 767 هـ . والفقيه محمد بن المفتوح التلمساني المتوفي سنة 818 بمكناس ، حيث كتب عليه عشرات الشروح والحواشي والتعليقات واستنبطت منه الفتاوي والاحكام كما يبدو في تآليف هذا العصر ، ورغم ان الثقافة المغربية الاسلامية اجتازت عدة قرون فلا نجد محاولات في تغيير الاساليب والمناهج الا ما يلاحظ من شدة الاقبال على العلم ونشاط بعض فروع المعرفة ، ولدينا وثيقة مهمة جدا عن سير الدراسة وبرامج التعليم ومناهجه في القرويين على عهد الوطاسيين ، وهي (الرسالة المجازة في معرفة الاجازة) التي الفها الصوفي المغربي الكبير ابو الحسن علي بن ميمون المولود (سنة 854 . درس بفاس سنة 887) ، ويظهر من هذه الرسالة ان العلوم الشائعة في هذا العهد هي الفقه المالكي والحديث والتفسير والنحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وباقي العلوم العقلية ، وان الدراسة كانت تعتمد على حفظ النصوص ولا يقدرون من الطلبة والاساتذة من لايحفظ النصوص ، وكان شعارهم (من لم يحفظ النص فهو لص) ، ويروي مؤلف السلوة عن الرسالة التي اقتطف شذرات منها في السلوة بان مؤلفها ابن ميمون جال في تلمسان وبجاية والشام وتونس والحجاز ومصر ، فلم ير في علماء هذه المدن واشياخها من يصل الى درجة علماء (مدينة فاس) ويستفاد من هذه الرسالة بان التلميذ قبل الدخول الى القرويين كان لابد ان يكون حافظا للقرآن والرسم والتجويد وحفظ المصنفات والمنظومات . وفي ذلك منظومة في الفرائض والحساب ورسالة ابي زيد القيرواني .

وكان الشروع في الدراسة يبتديء في الفجر الى ما بعد العشاء ، ويذكر ابن ميمون انه كان يشرع في وقت مبكر ولا يستطيع العودة الى المدرسة لتناول الغذاء بل لا يتناول الا وجبة العشاء فقط ، وكان الاسلوب المتبع في درس الحديث هو النقل الغزير ودراسة الرواة وانسابهم مع ضبط المتن لغويا ونحويا وفقهيا ، واشتهر كتاب الجزولي على الرسالة في الفقه ، اما المدونة فكانت تدرس بالنقل الكثير من كلام مشايخ المدونة من اولهم الى آخرهم ، وكان النحو يدرس بالمدخل للامام الجزولي المصمودي ، والفية ابن مالك ، وقبل وقت العصر كان الطلاب يتصرفون عادة

الى خزانة الكتب حيث يطالعون الكتب التي يوزعها عليهم الوكيل ، ويذكر المؤلف ان الخزائن بفاس لدى عهده كانت ثلاثة ، تشتمل على كتب كثيرة لا تكاد تحصى .

اما الحساب والفرائض فكانا يعلمان يوم الخميس والجمعة ، وهكذا يقضي الطلبة ايامهم الدراسية الى ان يحصلوا على العلم الوافر ويصبحوا في عداد الاساتذة ...

ويتكلم الوزاني الفاسي المعروف بليون الافريقي في كتابه وقف افريقيا عن كيفية التعليم بفاس ذاكرا انه توجد بفاس (في عصره) مائتا مدرسة لتعليم الاطفال ، وهي عبارة عن قاعات واسعة داخلها محاط بالدكاكين لجلوس التلاميذ ، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على الواح واسعة يكتب التلاميذ فيها جزءا من القرآن في كل يوم ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن في سنتين او ثلاثة ، ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظونه عن ظهر قلب ، واقصى ما يقضون في ذلك سبع سنين ، ويتعلمون مع ذلك مبادىء الرسم ، وهذا الفن يدرس بسائر المدارس العلمية ويدرس كذلك النحو ، واجرة المعلم طفيفة ، واذا ختم الابن اقام الاب حفلة لابنه حيث ياتي راكبا على جواد رفيع يعيره عامل المدينة بسلاحه الثمين ، (الى آخر ما وصفه من حفلات الكتاب كحفلة عيد المولد مثلا) ، والتعليم الثانوي يكون في المسجد ، ويمكث الطلبة الآفاقيون في المدارس ، ولم تبق لهم في عصره جرايات وانما يتعيشون مما يتصدق عليهم به اهل البلد او اهل نواحيها .

وكانوا من قبل يقيمون سبعة اعوام سكنى واكلا وكسوة ولكن حروب ابي سعيد عثمان بن ابي العباس آخر ملوك بني مرين قبل ولده عبد الحق اتت على مداخيل المدارس بينما كان الطلبة في عهد ابي عثمان من اعز الناس واكثرهم عددا ورزقا كما ذكر صاحب نيل الابتهاج .

وينتقد المقري في ازهار الرياض التآليف المكتوبة بعاصمة المغرب (فاس) بهذا العصر لانها ضئيلة سواء في التلخيصات او الارتجال ، وانما تآليف فاس في النسج بالتآليف على ما هو عليه كما في مدونة ابن الحسن الزرويلي الصغير المتوفى سنة 719 كما في الديباج ، ثم جاء طلبة الجزولي الذي نسبت اليه تقاييد في الفقه وان كانت في الواقع من تقاييد تلامذته ، على ان المقري يتأثر باراء ابن خلدون في كون صناعة التعليم او ما يسمى اليوم بالبيداجوجية لم تبلغ الى فاس وانما رسخت اقدامها في تونس ، ويذكر السلسلة العلمية الفقهية المبتدئة من الامام المازري ، اما العلوم النظرية فلا حظ للتونسيين ولا للمغاربة على السواء الى اواخر القرن السابع حيث رحل ابن زيتون وحملها الى تلمسان .

ويروي لسان الدين ان الصبيان كانت تدرب على حمل السلاح وتعلم القرآن ، كما شاعت المحاضرات في عصر بني مرين فقد سافر عبد القادر بن سوار المحاربي الى غرناطة سنة 757 والقى بها عدة محاضرات .

واشهر المدارس بفاس لهذا العهد هي :

مدرسة الحلفاويين التي بنيت سنة 670 على يد ابي يوسف يعقوب المريني وقد حبس عليها الكتب المهمة الواردة من الاندلس .

ومدرسة العطارين بناها ابو سعيد المريني سنة 723 واوقف عليها عدة املاك وضياع .

ومدرسة البيضاء بناها ابو سعيد المريني سنة 720 .

ومدرسة الصهريج بناها ابو سعيد وبها البيلة المجلوبة من المرية بالاندلس .

ومدرسة الرخام بناها ابو الحسن المريني ونقل اليها بيلة من المرية سنة 725 وتسمى مصباحية لان مصباح الباصلوني المتوفى سنة 750 اول من علم بها .

والمدرسة العنانية بناها ابو عنان المريني وتقابلها ساعة عجيبة مائية من صنع علي بن احمد التلمساني 758 .

ومدرسة جامع الاندلس بناها ابو الحسن المريني سنة 721

ومدرسة الوادي انشاها ابو سعيد المريني عام 723 .

ونشأت مدرسة المهندسين بدار المخزن بفاس الجديد شيدها ابو سعيد في المدينة البيضاء ، ونقل مؤلف كتاب تاريخ الطب ان هذه المدرسة سميت سنة 1844 مدرسة المهندسين لان السلطان ادرج في برامجها اذ ذاك دراسة العلوم .

وازدهرت الخزائن في العهد المريني ازدهارا منقطع النظير ، وكانت خزائن عامة يقصدها الطلاب والعلماء على السواء للاستفادة منها ، وربما كانت خزانة ابي يوسف المريني بالمدرسة اليعقوبية هي اول خزانة

اسست للعموم ، واشهر الخزائن المرينية هي خزانة يعقوب المريني وخزانة ابي عنان .

ومن المعلوم في تاريخ المغرب ان ابا يوسف المريني اشترط على ملك اشبيلية منحه المخطوطات ، وحمل منها الى جامعة القرويين ثلاثة عشر حملا كما في القرطاس .

بل ان غالب مخطوطات الاسكوريال من المغرب ، فقد كلف زيدان السعدي قنصلا فرنسيا عام 1617 بنقل اربعة آلاف مخطوط عربي الى اكادير فحول شراع مركبه الى فرنسا ولكن القرصان اسروه وحملوا الكتب الى الاسكوريال .

ولعل اهم خزانة بالمغرب هي التي اسسها ابو عنان المريني سنة 750 التي وصف كنوزها ابن القاضي في الجذوة ، وقد ضمت خزانة يوسف الموحدي واصبحت من اهم خزائن العالم الاسلامي وضمت اليها كتب السلطان ابي يوسف المريني المجلوبة من الاندلس على يد سانجة وكانت ثلاثة عشر حملا .

الحركة العلمية :

ورغم ما يشاهد من تهلهل في وسائل التعلم والتدريس فقد تفتقت العبقرية المغربية في هذا العصر عن انبغ مفكري العرب الذين نذكر منهم اشهرهم على الاطلاق المؤرخ ابن خلدون صاحب المقدمة ، والاديب ابن الخطيب الشاعر المثقف ، والعلامة الحضرمي ، واذا كان الكلام عن هؤلاء باعثا على دراسات وابحاث يطول موضوعها ولا تناسب هذا المختصر ، فان الامانة تقتضي ان نتعرض لترجمة اسلوب تعليم عالمين مشهورين وهما المشدالي والعبدوسي .

اما المشدالي الذي عاش في القرن الثامن كما في عنوان الدراية فهو من اعلام الثقافة العامة والبيداغوجية في المغرب ، فقد ذكر الشوكاني في ترجمته لما رحل الى المشرق انه ماهر في النحو والصرف والعروض والمنطق والاصول والميقات والحساب والمعاني والبيان والتفسير والحديث والفقه والجبر والمقابلة والهيئة والاوفاق والطب والموسيقى والاسطرلاب ، اما طريقة تعليمه فقد ذكر الشوكاني ان له اسلوبا غريبا بعبارة جزلة فصيحة، وقد تبرم طلبته من غموض افكاره وطالبوه ان يتنزل في عبارته ليفهموه فقال لهم لا تنزلوني اليكم ودعوني ارقيكم الى بعد مدة معينة حددها لهم ، فكان الامر كما قال ، كما كانت العبدوسية طريقة خاصة في التعليم

فقد ذكر ان العبدوسي اورد المدونة بطريقة خاصة ، حيث كان يبتدىء بذكر الطبقة الاولى من كبار مالك ، ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل الى علماء الاقطار من المصريين والافارقة والمغاربة والاندلسيين وائمة الاسلام واهل الوثائق والاحكام ، اما في التفسير فعند ما يقرا الآية يفتح بما يناسبها من الاحاديث النبوية واخبار السلف من الصحابة والتابعين واتباعهم ، ثم بعد ذلك يرجع الى الآية ، وربما ياخذ في نقل الاحاديث فيقول الحديث الاول كذا والثاني كذا الى المائة ، ثم يبتدىء المائة الثانية حتى يختمها ، وكذلك يسلك في النحو مسلك المدونة يبدا باصحاب سيبويه ثم السيرافي وشراح الكتاب وطبقات النحاة .

وذكر صاحب نيل الابتهاج نقلا ان هذه الطريقة في التدريس هي التي يدرس بها ابن اخيه الامام عبد الله العبدوسي بجامع القرويين بفاس المتوفى سنة 884 كما في جذوة الاقتباس لابن القاضي .

الحركة الصوفية :

وازدهر علم التصوف الذي تزعمه كثير من العلماء واستنبط اسسه ابن خلدون في مقدمته ؛ ولقد تاثر ابن خلدون بالنظريات الصوفية في المغرب وكتب يقول بعد عودته من المغرب الى الاندلس انه وصل وله ورد ووظيف وسبحة وحظ من الخير ، والف ابن الخطيب ، روضة التعريف في الحب الشريف ، التي حوكم من اجل شطحاتها ، وفيها تحليل صوفي لاسرار الحب والنفس ، كما طفح كتابه نفاضة الجراب باخبار صلحاء المغرب ، كما الف الغيرة على اهل الحيرة ، وسد الذريعة في تفضيل الشريعة ، والرد على اهل الاباحة وتقريب الشبه .

وجاء في الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ان عبد الحق المريني كانت له بركة ودعاء مستجاب (ص 29) ، واذا سمع بصالح قصده لزيارته (ص30) . وكان ابو سعيد موقرا للصالحين يتوضع امامهم

وجاء في اللمحة البدرية لابن الخطيب (ص42) ان ابا يوسف المريني كان اشبه بالشيوخ منه بالملوك ؛ ويوجد في (انس الفقير وعز الحقير) لابن قنفد ذكر للمتصوفين المغاربة وبالأخص دراسة لسيدي احمد بن عاشر السلاوي .

وفي كتاب شفاء السائل الماع الى تاريخ التصوف في المغرب والعالم الاسلامي .

ومن اشهر رجال التصوف في هذا العصر الامام زروق الملقب بمحتسب الصوفية ، وقد ترك لنا كتاب القواعد الذي يعتبر وثيقة مهمة عن الحركة الصوفية في عصره ، تلك الحركة التي استفحلت وظهر فيها كثير من المشعوذين فتصدى الامام زروق للكشف عنهم ، وقد شرح مذهبه الصوفي في القاعدة (59) ، فقد قال: لكل فريق طريق ، فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ، وللعابد تصوف دعى اليه الغزالي في منهاجه، وللمتريض تصوف ذكره القشيري في رسالته ، وللناسك تصوف القوت والاحياء ، وللحكيم تصوف نحا اليه ابن سعيد ، وللطبائعي تصوف جاء به اليوني في اسراره ، وللاصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه . ويقول في القاعدة (26) ايضا : كن فقيها صوفيا ، ولا تكن صوفيا فقيها .

ومنهم ابن القاسم الذي استقضاه ابو عنان على فاس وله قصيدة سماها (لمحة العارض لتكملة الفية ابن الفارض) ، ومنهم محمد بن علي الجزولي الاصولي الكبير كان قاضيا بفاس في عهد ابي سعيد المريني ولبس الخرقة .

ومنهم ابن الدباغ المراكشي صاحب مواسم الطريقة في علم الحقيقة .

ومنهم المحدث الطيب بن محمد المريفشي

ومنهم عبد الله بن يعقوب السملالي الجزولي وعبد الله بن ابي بكر الجزولي نزيل الاسكندرية .

ومنهم محمد الحلفاوي الذي اعان ابا عنان المريني بالضرب على ايدي المعتدين وكان الامير ابو محمد عبد الحق معظما للصلحاء يتواضع بين ايديهم (كما في الذخيرة السنية 37) .

واذا كانت تقاليد الدول المغربية من لدى المرابطين الى الموحدين توجب امتحانات لادعياء التصوف ، فقد خف ذلك في عهد المرينيين لقوتهم ، ومع ذلك فقد امتحن ابو عبد الله محمد الشيخ المريني الملقب بالبرتقالي المتصوف عبد الله الغزواني بفاس وسجنه .

وهناك كتب كثيرة الفت في هذا العصر في هذا الفن ، منها : المترع اللطيف في ذكر صلحاء الريف . لعبد الحق الباديسي (القرن الثامن) .

والسلسل العذب الاصلي في صلحاء فاس ومكناسة وسلا ، لمحمد الحضرمي الذي صنفه في القرن الثامن .

والكوكب الوقاد فيمن حل بيته من العلماء والصلحاء والعباد .

واعقب المغرب في اواخر عصر المرينيين تدهور شامل في حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية وذلك نظرا لعدة امور : 1) الانهيار الشامل للحضارة العربية. 2) الاوبئة والامراض التي اجتازت المغرب كمرض الطاعون والكوليرا . (بوكليب) . 3) المجاعات المتتالية. 4) الغزو الاستعماري الذي استفحل على شواطىء الاطلنطيك . . وكان من نتائج هذا ان تدهورت الثقافة الاسلامية في المغرب ، وحسب اقوال المؤرخين فان دكالة وحاحة والسوس والريف وغيرها كانت بها نهضة ثقافية تلاشت ودرست معالمها ، ولكن بقيت الثقافة الاسلامية معتصمة بالقرويين التي يرجع اليها الفضل في المحافظة على كيان المغرب الثقافي والروحي .

وذكر (رينو) ان فاسا افل نجمها ابان السعديين وذلك نظرا للاضطرابات والاوبئة والاعتداءات الاستعمارية على الحدود المغربية ، وعاد المغرب الى نشاطه في عصر العلويين ، وقد تحدث لفي بروفنصال في كتابه مؤرخ الشرفاء عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية كما تحدث عبد العزيز بنعبد الله عن نهضة الدراسة الطبية في كتاب الطب والاطباء بالمغرب، غير ان هذه الظاهرة ساعدت على (المركزية العلمية) حين آوت جامعة القرويين علماء المغرب من سائر النواحي والمراكز الثقافية ، من الزاوية الدلائية والناصرية وغيرهما ، وعادت القرويين الى دراسة الطب ، ويشير (دلفان) في كتابه عن فاس وجامعتها الى اعتناء الطلبة بدراسة كتب الطب كالكامل للرازي ، والقانون لابن سينا ، وزبدة الطب للجرجاني ، والتذكرة للسويدي ، وغير ذلك من الكتب الطبية المشهورة . وبدون شك فان هذه الدراسة لم تزدهر الا بعد ازدهار الثقافة الاسلامية .

وخلف هذا العصر برامج واثباتا تحوي العلـوم المعروفة ورجالها فمنهـا :

برنامج ابن ابي الربيع المتوفى سـنة 688 .

برنامج الوادياشي المتوفى بسوس 749 .

برنامج ابن الشـاط السبتي المتوفى سنة 723 .

عنوان الدراية للغبريني المتوفى سنة 714 .

برنامج ابن القاسم بن يوسف التجيبي البلنسي من اهل سبتة (اول القرن الثامن) .

ثبت احمد بن علي البلـوي الوادي آشـي (أول القرن العاشر) .

فهرست ابن غازي المكناسي .

روضة الاعـلام بمنزلة العربيـة وعلوم الاسـلام لمحمد بن الازرق الغرناطي (في اول القـرن التاسـع) يتكلم عن العلوم الشائعة في عصره وعلوم العربية بصفة خاصة وكيفية التدريس .

ولهذا المؤلف كتاب في السـياسة يرد فيه على ابن خلدون في بعض المسـائل ، يوجد بالخزانة العامة ج 64 وهو بدائع السلك في طبائع الملك ج 93 .

وفهرست يحيـى السراج المتوفـى سنـة 805 وهناك عين الاصفـر .

وفهرسـت ابراهيم ابـن السراج السـجلماسـي المتوفى سـنة 903 .

وفهرست الونشريين المتوفى سنة 914 .

وفهرست ابن غازي المتوفى سنة 919 .

الرباط ــ الحسن السائح



أفلوطين ومدرسة الإسكندرية

للدكتور : نجيب بلدي

طلبت المجلة الى الدكتور نجيب بلدي أن ينشر على صفحاتها نص محاضرته القيمة التي القاها على مدرج كلية الاداب ، وقد تفضل قلبى رغبتنـــا ، والمجلـة التي تفخر بصداقته تشكره على هذه العناية وتتمنى أن يكون مقامه بالمغرب سعيدا طيبا وخصبا ، ونقدم للقراء فيما يلي ترجمة موجزة للدكتور الكريم :

حصل على ليسانس الفلسفة ، وليسانس الاداب الانجليزية من جامعة القاهرة، وسافر فى بعثة الجامعة الى باريس حيث نال من السربون ليسانس الدولة فى الاداب، ثم دبلوم الدراسات العليا فى الفلسفة ، ثم دكتوراه الدولة فى الاداب بمرتبـة الشرف الاولـــى .

عين مدرسا بجامعة القاهرة فى عام 1938 ثم مدرسا بجامعة الاسكندرية عنـد افتتاحها فى عام 1942 وبقي بها حتى عين استاذا لكرسي (الفلسفـة الحديثـة) فى عـــام 1951 .

سافر الى الولايات المتحدة حيث كان استاذا زائرا بجامعتها أثناء العام الجامعي 1956 ـ 1957؛ثم عين استاذا للفلسفة وتاريخها بجامعة محمد الخامس فى اكتوبر 1962.

من أهم مؤلفاته باللغة العربيـة : (باسكال) و (ديكارت) و (مراحـل الفكـر الاخلاقي) و (تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية) . طبعت بدار المعارف بالقاهرة . وباللغة الفرنسية : (فلسفة باركلي الدينية) (ثوابت الفكر الفرنسي) (قيمـة الماضي) طبعت بباريس .



اعتاد المؤرخون فى دراستهم لافلوطين أن يقفـوا عند امرين اثنين : اولهما اصول فلسفتـه ومذهبـه ، والثاني مصادر هذه الفلسـفة فى الفلسـفة اليونانيـــة القديمة ، وفى محاورات افلاطون بوجه خاص . وتكاد تنحصر دراسة هذه المصادر عندهم فى بيان مواضع من محاورات افلاطون اشار اليها أفلوطين ، وارتبطت فى تفكيره بتفكير المعلم القديم ، ارتباطا رقيقا خفيفا او ارتباطا وثيقا . ولم يتساءل المؤرخون بعد ذلك ، عما اذا لم يكن لطول الفترة بين الرجلين اثر ما فى طبيعـة الاتصال بينهما : احدهما عاش فى القرن الرابع قبـل الميلاد ، والآخر في القرن الميلادي الثالث ؛ بينهمـا حضارات تتغير ، وعلوم تتجدد ، واخرى تتكشـف ، واجواء روحية دينية تتنوع ، وتختلف . بين أثينا فـي عهد الاسكندر وأثينا الرواقية ؛ بينهما وبين الاسكندرية البطلمية ، فالرومانية ، فاسكندرية تتفتح الى الروح الدينية النابعة من آسيا ، ثم بين هذه الاسكندريـات

كلها وروما التي توفى فيها افلوطين ، وكانت الوثنية فيها على وشك الاحتضار ، والمسيحية على وشك الانتصار .

تغافل غريب اغرب ما فيه ، انه لم يمنع المؤرخين من ربط افلوطين بالاسكندرية ، ومن اعتباره فيلسوف المدينة ، وزعيم مدرستها ، بالرغم من أن الرجل قد ترك المدينة ، وهو في مقتبل العمر ، لم ينشيء فيها مدرسة ، ولم ينشر كتابا . تركها الى روما ، حيث استقر حتى وفاته في سن الخامسة والستين ، بعد انشاء مدرسة ، واعطاء تعاليم ، كان من ثمراتها كتاب « التساعات » الذي جمعه فورفيريوس ، مترجم حياته .

تغافل غريب . وتغافل مزدوج . فالمؤرخون بعد ما اهملوا دراسة الزمن والاحداث بين افلوطين المصري والاسكندراني وبين افلوطين الروماني ، بين تفكير أفلوطين اثناء اقامته في البلاد التي ولد فيها ونشأ وتعلم الفلسفة ، وتفكيره عند ما استقر في المدينة التي اسس فيها مدرسته ، واعطى تعاليمه ، وكتب او املى او الهم « تساعاته » الشهيرة .

وهذا التغافل في دراسة مصادر الفكر الافلوطيني وتاريخ هذا الفكر ، هو الذي دعاني الى البحث في معنى مدرسة الاسكندرية ، ومبلغ دين افلوطين اليها ، ومعنى خروجه منها .

ولد افلوطين في عام 205 م ، بمدينة ليكوبوليس الواقعة بالقرب من مدينة اخميم الحالية بصعيد مصر . واننا لا نعرف الا القليل عن حياته بمصر قبل اقامته بمدينة الاسكندرية . حادث وحيد يقصه علينا فورفيريوس ، مترجم حياته : انه حتى سن الثامنة ، أي حتى الوقت الذي بدأ يذهب فيه الى المدرسة ، كان يكشف عن صدر مرضعته ويرضع من ثديها . وعند ما قيل له ان هذا فعل طفل سيء الخلق ، خجل خجلا شديدا ، ورجع عن الفعل رجوعا نهائيا . والفطام المفاجيء والمتأخر حتى هذا السن قد يؤدي الى نوع ن العصاب ، لا يصعب ايجاد القرائن عليه في حياة افلوطين أو في « تساعاته » : منها عدم اشارته على الاطلاق الى اهله وذويه ، ومنها تركه المفاجيء لمدينة الاسكندرية ، وقيامه برحلة الى آسيا الصغرى قد كان من الممكن ان يموت اثناءها ، ومنها الحاجة المستمر في ضرورة الهروب من العالم ، ومنها أخيرا اهماله البالغ لعلاج جسمه ، ورفضه اتباع ارشادات الطبيب له في ذلك ، حتى اصبحت رائحته كريهة وتفشت على وجهه وذراعيه علامات مرض جلدي خبيث ، منع اصدقاءه من معانقته عند زيارتهم له ، ثم منعهم من زيارته في نهاية حياته .

ولا نعرف بالضبط في اي وقت اتى الى الاسكندرية . ومن المحتمل جدا أنه عاش فيها مدة ما قبل التقائه بمعلمه امونيوس ، عند ما بلغ الثامنة والعشرين ، وتخصصه على هذا المعلم ، تخصصا نهائيا في الفلسفة الافلاطونية . والاغلب انه اختلف قبل ذلك على مدارس بالاسكندرية ، كانت تعلم فيها الفلسفة ، ممتزجة بالبلاغة والخطابة ، وانه لم يرض عن تلك الدراسة . ففاتح في ذلك صديقا له نصحه بتعلم الفلسفة على امونيوس . وعند ما التقى افلوطين بهذا الاخير ، اعترف لصديقه بانه قد وجد الرجل الذي كان يبحث عنه .

ولا نعرف شيئا عن حياته بالاسكندرية سوى اتصالا دام عشر سنوات كاملة بينه وبين معلمه ، وعدا بعض اتصالات اخرى باصدقاء جاءوا فيما بعد لزيارته بروما ، عند ما استقر فيها .

ولما بلغ التاسعة والثلاثين ، فاجا اصدقاءه بعزمه على ترك الاسكندرية ، واقتفاء اثار الامبراطور جورديان الذي كان قد بدأ يهاجم في ذلك الوقت جيوش فارس في آسيا الصغرى ، بغية استرجاع هذا الجزء من الدولة الرومانية ، ثم القضاء على دولة فارس في فارس والهند .

علل فورفيريوس هذا القرار المفاجيء برغبة الفيلسوف تعلم فلسفات فارس والهند . واننا لا نجد هذا التعليل مقنعا ، لان افلوطين لم يقم بآسيا اكثر من اشهر ثلاثة ، ولم يجاوز في اقامته هذه حدود آسيا الصغرى : ترك بلاد الشرق كلها بعد فشل جورديان في مهمته وقتله بمكيدة رومانية ، واتجه مباشرة الى روما ، ليستقر فيها ، وهذا علامة على أن الدافع لرحلته الى الشرق قد زال بوفاة جورديان . اما قرار اقامته بروما ، فلا يمكن تفسيره بغض النظر عن قراره الاول ترك الاسكندرية واقتفاء آثار جورديان ، فالقراران مرتبطان فيما بينهما ، والدافع اليهما واحد ، وسنأتي اليه عند عرض نشأة فلسفته .

وصل اذن الى روما واستقر فيها وانشأ مدرسته واستمر في تعليمه حتى نهاية حياته تقريبا ، عند ما اشتدت عليه امراض معوية لازمته منذ مدة ، فاقعدته الى الفراش دون أن تعوق تفكيره حتى النهاية .

هذه هي الاحداث الرئيسية لحياة افلوطين ، يمكن تقسيمها الى مراحل ثلاث ، لكل منها علاقة بفلسفته ، سواء اكان ذلك بمحتواها او بجوها الروحي: مصرية صعيدية ، هي مرحلة نشأة الرجل ، كان لها بدون شك أثر عميق في عقليته وشخصيته ، وان كانت معلوماتنا عنها قليلة جدا ، اكتفينا منها باشارة سابقة سنأتي الى معناها في نهاية كلامنا .

ثم مرحلة اسكندرية بدأت بعلاقاته بأمونيوس ، وانتهت بتركه المدينة الى الشرق الاسيوي ثم الى روما . هذه المرحلة كانت حاسمة في تكوين ثقافته ، ونشأة نظرياته الفلسفية ، وخاصة في العالم المعقول .

ثم مرحلة رومانية ارتبطت بتاسيس المدرسة وتاليف « التساعات » ، وبالصورة النهائية التي اتخذتها فلسفته ، لا سيما نظريته في الاله .

ولا شك في ان انطلاق فلسفته بدأ في المرحلة الاسكندرانية ، وكان متصلا اشد الاتصال بتعليم امونيوس الافلاطوني بالاسكندرية .

من الصعب التكلم عن امونيوس هذا وعن التعليم الذي ناله افلوطين على يده . والاغلب انه كان مصريا مثل افلوطين ، وان دروسه كانت في محاورات افلاطون وطريقة مطالعتها وفهمها ، ولعله كان اول من علم طريقة دراسة النص الفلسفي ، اي بمقارنته بنصوص الفيلسوف الاخرى . والامر المؤكد في علاقة افلوطين به هو هذا القسم الذي اخذه هو وزملاؤه على انفسهم، الا يذيعوا شيئا من تعاليم معلمهم .

في هذا القسم اشارة الى نوع تلك التعاليم ودلالة اولى على اتصال افلوطين بمدرسة الاسكندرية : فيه ما يدل على ان تعليم الافلاطونية بالاسكندرية كان يحمل اسرارا لا تكشف الا للخاصة .. فالمدرسة الافلاطونية كانت بأثينا مفتوحة للجميع ، وتعاليمها معروفة علنية ، اما التعليم السري ، فهو خاص بالاسكندرية ، وخاص بذلك العهد من الاسكندرية . لم يكن تعليما بالمعنى المفهوم ، بل كان ارشادا وتلقينا Initiation . لذلك وجب اعتبار امونيوس مرشدا ، ملقنا لتلاميذه ، وهؤلاء مريدين له .

اما وان كنا لا نعرف شيئا عن طبيعة الارشاد الذي تلقاه أفلوطين من معلمه ، فاننا نعرف قيام تعليم اسكندرانى آخر ، كان هو ايضا ارشادا وتلقينا ، وكان معاصرا لتعليم امونيوس ، وهو التعليم الذي نجد في المجموعة الهرمسية Corpus hermeticum تعبيرا واضحا عنه . وهذا التعليم ، اذ كان أوضح أثر لما يمكن تسميته في عصر افلوطين « مدرسة الاسكندرية » ، هو المدخل لدراستنا العلاقة بين افلوطين ومدرسة الاسكندرية .

حتى الوقت الذي شرع فيه افلوطين تعلم الفلسفة الافلاطونية على أمونيوس السقاء لم يكن هناك وجود فعلى لمدرسة الاسكندرية ، أي لمدرسة فلسفية تشابه بوجه من الوجوه مدارس اثينا الفلسفية التي كان لكل منها معلم واحد ، وتعاليم واحدة . لهذا السبب ، يجب ان تطلق العبارة « مدرسة الاسكندرية» على نزعة فلسفية ظهرت بوادرها بمدينة الاسكندرية منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ، نزعة اتجهت الى تجديد فلسفة افلاطون بوجه عام ، واحياء نظرياته في معرفة الاله ، وتوجيه تلك النظريات توجيها دينيا بوجه خاص .

نشأت هذه النزعة ، وتطورت ، وتجسمت ، اذا صح القول ، تحت تأثير عوامل اغلبها غير فلسفي ، بعضها ديني ، وبعضها الآخر والاهم سياسي .

وكان الاسكندر الفاتح من اهم العوامل المؤثرة : فقد ادت فتوحاته الى انتشار الثقافة اليونانية بين الشمال والجنوب ، وبين الغرب والشرق ، والى بداية امتزاج هذه الثقافة بالثقافات الشرقية . – ثم ادت أعماله السياسية وتصرفاته الدينية المرتبطة ارتباطا وثيقا بتلك الاعمال الى تحول الفلسفة بعد افلاطون وارسطو الى الرواقية . وكانت الرواقية متهيئة بطبيعة نشأتها هذه الى شيوع ورواج خارج بلاد اليونان ، ومتهيئة ايضا لان تحمل الفلسفات اليونانية السابقة ، وتدمجها في فلسفة واحدة . – وكان الاسكندر اخيرا مؤسس مدينة الاسكندرية التي تم بناؤها على يد البطالمة، فيها بذلك الى تأسيس متحف الاسكندرية ومكتباتها ،

اي الى تأسيس معاهد العلم والفن التي حملت لواء الثقافة العلمية قرنين من الزمن على الاقل . وكانت فتوحات الاسكندر وتنقلاته السريعة ومشروعاته في فتح جديد واكتشاف وطواف ، علامات على قلق شديد في نفسه ، لم يتوقف عنده الا بموته ، ولم يتوقف انتشاره في العالم المتمدن الا على نحو مؤقت وتحت تأثير الحروب ، وتحت تأثير التنظيم العلمي والسياسي الذي تم بوجه خاص بمدينة الاسكندرية ، أثناء العصر البطلمي ، وفي تلك المدينة وفي حوض البحر المتوسط بوجه عام أثناء الحكم الروماني . وما ان خمدت روح التنظيم والانشاء هذه الا وعاد القلق الى النفوس ، وعاصر ذلك القلق بداية انتشار الدعوات الدينية الشرقية، قديمة أكانت ام جديدة . وبهذا الانتشار وبفضل المزج الذي مهد اليه الاسكندر بين الفلسفات ، وبين الحضارات ، وبينها وبين الاديان ، بين الروح الفلسفية والروح الدينية ، تكونت عقلية جديدة أو نزعة جديدة، هي التي تسميها « مدرسة الاسكندرية » . فالاسكندر اذن في أساس نشأة هذه العقلية وهذه النزعة ، وبالتالي في اساس نشأة مدرسة الاسكندرية ذاتها .

واحب ان اتابع في اختصار وبمدينة الاسكندرية ذاتها ، مظاهر ثلاثة لتطور النزعة العقلية المذكورة ، كانت بمثابة مراحل تكوين « مدرسة الاسكندرية » حتى مجيء افلوطين .

بدأت المرحلة الاولى في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، عند ما قرر بطليوس ترجمة اسفار العهد القديم للكتاب المقدس من العبرية الى اليونانية . فاحضر خصيصا من فلسطين الى مدينة الاسكندرية سبعين حبرا من احبار اليهود ، قاموا بانشاء النص السبعيني للكتاب ، عاونهم في ذلك بعض رجال الاسكندرية من اليهود المثقفين ثقافة يونانية ، وكان ضلع هؤلاء المعاونين كبيرا جدا في اثبات النص في مرحلته النهائية : فهم لم يسهموا في ترجمة « الكتاب » فحسب بل قاموا بتأليف اسفار جديدة باللغة اليونانية ، اهمها ما نسب من اسفار « الحكمة » لسليمان النبي . وتضمنت هذه الاسفار معاني جديدة على الكتب العبرية القديمة ، معاني ماخوذة من الفلسفة اليونانية ، من افلاطون والرواقيين ، ومرتبطة بمسالة العقل الالهي وعلاقته بالعالـــــم .

وفي هذا دليل على انتشار الفلسفة اليونانية بمدينة الاسكندرية وعلى تعليم هذه الفلسفة بتلك المدينة . فالساهمون في انشاء النص السبعيني لم يتعلموا هذه المعاني بمطالعتها في الكتب ، بل تعلموها في المدارس الخاصة التي كانت مجاورة لمجامع اليهود وكنائسهم : هذا لان الفلسفة كان نصيبها في المتحف ضعيفا جدا ، وكانت تدرس فيه مختلطة بالبلاغة والخطابة . اما دراسة الفلسفة كمادة مستقلة عن الخطابة ، فكانت منظمة في مدارس خاصة انشئت خارج المتحف ، وذلك لمختلف جاليات المدينة ، ومن بينها الجالية اليهودية . تدرس لمن يريد من افرادها الفلسفة مع التوراة والشريعة الاسرائيلية .

ويتضح امر هذه المدارس الفلسفية الخاصة اتضاحا اكبر عند ما نبلغ المرحلتين الثانية والثالثة لتطور مدرسة الاسكندرية .

تبدأ المرحلة الثانية في مستهل العصر الميلادي، وتتمثل بنوع خاص في تاليف فيلون اليهودي السكندري الذي توفي حوالي عام 40 م . وتاليف فيلون هذا شاهد في نظري على تطور النزعة العقلية التي أشرنا اليها وعلى بداية تكوين مدرسة الاسكندرية ، وذلك لاسباب رئيسية ثلاثة : الاول ان تاليفه يشهد على علم غزير لتاريخ الفلسفة اليونانية ، علم لابد كان منتشرا في ذلك الوقت بمدينة الاسكندرية ، والغالب ان فيلون حصل عليه في نهاية ثقافته المدرسية بدليل اعترافه بأن الفلسفة كانت الغاية التي من اجلها حرص على تلقي العلوم من صغره . والسبب الثاني ان تاليف فيلون هذا يدل على استخدام الفلسفة اليونانية في شرح العهد القديم للكتاب المقدس واحداثه ، وذلك لغاية فهم الكتاب فهما عميقا يهيىء صاحبه ـ باعتراف فيلون ـ الى المرحلة الاخيرة من المعرفة ، وهي مرحلة التصوف اي تأمل الاله والاتحاد به . والسبب الثالث ان في تاليف فيلون شهادة على اتصاله بجماعات من اليهود تألفت بجوار الاسكندرية وعلى ضفة بحيرة مريوط ، مماثلة لتلك الجماعات التي تألفت في فلسطين بجوار البحر الميت . انتظمت هذه الجماعات على هيئة صوامع خصصت لافراد ارادوا التفرغ للتأمل في الاله . ويشعرنا فيلون بأنه لولا انشغاله بأمور الطائفة الاسرائيلية بمدينة الاسكندرية لكان انضم الى تلك الجماعات . وفي راينا ان جماعات « المتأملين » هذه لم تكن قاصرة على اليهود ، بل كانت شائعة بمدينة الاسكندرية على هيئة مدارس خاصة هي مدارس الارشاد والتلقين التي اشرنا اليها في كلامنا عن أمونيوس معلم افلوطين .

لذلك نبلغ الآن المرحلة الثالثة والاخيرة لتطور النزعة العقلية التي انتهت بنشاة «مدرسة الاسكندرية» وتمثل هذه المرحلة فى التعليم الفلسفي والديني الذي نجد صداه العميق فيما عرف بالمجموعة الهرمسية

اول ما يجب قوله عن هذه المجموعة انها لا ترجع الى العصر المصري القديم ، وانها ليست من تاليف كهنة مصريين وانها ـ خارج الاجزاء الخاصة بالتنجيم التي ترجع الى العصر الفارسي فى مصر ، وخارج الاجزاء الخاصة بالكيمياء التي الفها مصريون اثناء العصر البطلمي ـ خارج هذا ، فالمجموعة كلها ترجع الى النصف الاخير من القرن الميلادي الثاني ؛ وان مؤلفيها كانوا اما يونان تمصروا او مصريين تهلنوا ؛ وهو الارجح . وكانت هيلنيتهم اقوى من مصريتهم ؛ فقد كان تاليفهم مرتبطا اشد الارتباط بما كان يكتب او يعلم عن الفلسفة الافلاطونية فى ذلك الوقت ، وكان يحاكي التاليف الفلسفي المعاصر فى تعظيم الشرق وانبيائه واديانه ، واديان فارس والهند بوجه خاص ؛ وفى محاولة الجمع بين هذه الاديان وهؤلاء الانبياء من ناحية ، وبين فلاسفة اليونان ـ افلاطون وفيثاغورس خاصة ـ من ناحية اخرى .

وكان اسلوب التاليف لتلك المجموعة من علامات العصر ايضا . كان اسلوب الاقوال Logoi اي اسلوب التاليف القصير ، قد لا يعدو احيانا بعض جمل ، وقد يضم احيانا اخرى عدة صفحات : اسلوب حكم ومواعظ وارشاد فى الحالة الاولى ، اسلوب درس فى الحالة الثانية ، ودرس من نوع خاص : يبدا بمناقشة قصيرة ، بين معلم وتلميذ ، وينتهي بدعاء موجه الى الالهة ، والى الاله هرمس ـ طوت ، اله الحكمة والتاليف عند قدماء المصريين .

وقد تبين بعض المؤرخين المعاصرين ـ ومن اخصهم بوسيت Bousset وفستوجيير Festugière فى هذا التاليف ، وخاصة فى المواضع التي يطول فيها علامات على ان التعليم لم يكن فى اساسه بين معلم وفصل مدرسي ، او بين معلم ومدرسة ، بل كان بين معلم وتلميذ واحد . وان ذكر رفيق لهذا التلميذ فلان التلميذ الاصلي كان غائبا لسبب من الاسباب .

ثم هناك خاصية اخرى لهذا التعليم ، تظهر فى المرحلة الاخيرة منه ، هي اعتماد المعلم على اسطورة من الاساطير كما لو كانت مصدر تفكيره ، او على وحي الهي يبدو انه تلقاه مباشرة او سمعه من الذين تلقوه . هذه الاسطورة مختلفة كل الاختلاف عن الاساطير التي كان يلجا اليها افلاطون فى محاوراته ، سواء لشرح فكرة غامضة او للتمثيل عليها . ان اسطورة المعلم الهرمسي كانت موضع اثبات قاطع .

لنحاول الآن أن نبين فى اختصار فحوى التعليم الهرمسي فى المسالة الرئيسية ، اي فى مسالة معرفة الاله . تعليما موجها كما ذكرنا فى المبدا الى خلاص النفس .

ابتدا الهرامسة فى هذه المسالة باتباع الموقف الذي اتخذه افلاطون فى محاوراته : وهو ان الاله يعرف عن طريقين : طريق التامل فى العالم ونظامه ، تاملا يؤدي الى اثبات وجود عقل منظم للعالم ؛ وطريق التقشف والزهد ، وترويض النفس عن البدن حتى تتم لها معرفة ذاتها ، والاله الذي تنتمي اليه .

ولكن هناك مرحلة ثالثة ، مرحلة اتصال واتحاد، اشار اليها افلاطون فى غموض ، ولعله لم يستطع المضي فيها لنقص فى ثقافته ورياضته الدينيتين ، وضعف فى ايمانه بالوحي الالهي : هذه المرحلة لا تتم بمجرد الاعتماد على قوى العقل الطبيعية ، ولا يقف الانسان فيها عند معرفة الاله بل يبلغ فيها مرتبة الاتحاد .

واساس هذه المرحلة ان الاله ، كما قال افلاطون فى « الجمهورية » هو الخير ، وان الخير يعرف فى تعارضه مع الاجسام . فالخير لا جسمي Asômatos او هو اللا جسمي To asômaton . والخير خير لان لا شيء يحده كما هو الحال فى الاجسام . انه اللاجسمي، واللا محدود

وما اللا جسمي ؟ وما اللا محدود ؟ ليست معرفة الاله ـ كما توحي به صيغة السؤال ـ معرفة سلبية . ان السؤال السابق معناه : ما الخير الذي كان فى جوهره لا جسميا لا محدودا ؟ والاجابة هي عندئذ : الخير هو الفكر O nous لا الفكر من حيث هو صفة عارضة لكائن مثل الانسان لا يتعادل كلية وهذه الصفة ذاتها . الخير هو الفكر من حيث هو وجود ، انه الوجود الفكري .

وان صح ذلك ، فحركة النفس نحو الاله للاتحاد به ، هي محاولة الانسان ليتحول الى الوجود الالهي ، الى وجود فكري خالص .

ويمتاز هذا الفكر الالهي بأنه اسرع الاشياء واقواها « ولو امرت فكرك بالذهاب الى الهند ، لوصل اليها بسرعة تفوق أمرك ذاته . ولو امرته بأن يطير الى السماء ، لطار اليها ، ولما عاق طيرانه عائق » .

هذا التحول للفكر الانساني الى الفكر الالهي هو التصوف ذاته . وغاية التصوف ان تحل القوة الالهية محل الفكر الانساني ومحل الوجود الانساني .

يشرح الهرامسة هذا التصوف فى نص غريب :

« اعمل على ان تصبح اكبر فاكبر ، حتى يكون مقدارك لا متناهيا ، وذلك بقفزة تحررك من جميع الحدود المكانية والزمنية ، واعتبر ان لا شيء متعذر عليك . اعتبر نفسك خالدا وقادرا على فهم كل شيء ، كل فن وكل علم ، وخاصة كل كائن حي . ارتفع فوق كل علو ، وانزل تحت كل عمق . اجمع فى نفسك تاثيرات جميع الكائنات : النار والماء ، اليابس والرطب. تصور انك فى كل مكان : على الارض وعلى البحر ، وفى السماء ؛ لم تولد بعد من بطن امك ، شاب ، شيخ ، ميت ، عائش بعد الموت . ان احتضنت بالفكر جميع هذه الاشياء معا ، من ازمنة وأمكنة ، وجواهر وكيفيات ، ومقادير ، استطعت فهم الاله ومعرفته .

اينما سرت جاء الاله للقائك ، ومثل امامك حتى فى المكان الذي لا تنتظره فيه ، وحتى فى اللحظة التي لا تتوقعه عندها ، نائما كنت ام مستيقظا ، مسافرا على البحر ام على البر ، فى الليل ام فى النهار ، متكلما أم صامتا ، اذ لا يوجد شيء الا كان هو » .

ويلجأ الهرمسي الى تقريب هذا الوجود الفكري من اشبه الاشياء به ؛ من الضوء في مصدره وجوهره الاصيل . وهو مدين فى ذلك الى تشبيه افلاطون للخير بالشمس . ولكن الهرمسي يجاوز التشبيه ويجاوز التقريب ، فيعادل بين الفكر والنور ، واقفا موقف الاديان المعاصرة : فالانسان الذي يتحول الى وجود فكري خالص ، يصبح كائنا نورانيا خالصا .

(يتبـــع)

الرباط — الدكتور نجيب بلدي



تحية على الذكرى

لابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب

للدكتور : زكي المحاسني

كنت اطرب لابي الطيب المتنبي حين اجده متغزلا، لكنه كان يخرج من الغزل منفضا أثوابه ، غاسلا يديه ، واحسبه كان غارقا يومئذ فى الهوى والشباب والامل المنشود ، وقد ضاعت جميعها من يديه ، اذ كان مطلبه فى الحياة فوق هم الفؤاد اللهو والحب . لقد كان متيما بالمثل العليا فى البأس والحرب ، وكان كأنه يسمع اصواتها تدعوه الى لقائها ، فوطد نفسه منذ صباه على الاستجابة لندائها ، ولكن نداءاتها البعيدة الشريدة اضاعته فى خضم الحياة كما ضاع « عوليس» حين استجاب فى مضيعة البحار لنداءات « السيرين » عرائس البحر المسدلات شعور الذهب ذوات الانصاف الدنيا بجلود الحيتان .

وكذلك رحت فى الدهر الحديث أرى صديقي شاعر فلسطين الذي كان اول الثائرين لحرية بلاده وخلوصها من قبل ان يجلو سكانها عنها ، ومن قبل ان تعصف بها عواصف الكوارث .

كان ابراهيم طوقان يرحمه الله ، باديا فى روح شاعر شد نظره الى مدارات النجوم ، وكم كنت احسبه لو عاش الى هذه الفترة ان يتمنى الحصول على فقدان الوزن فى عصر الفضاء ، ليخف طيارا مفدا في الاجواء التي لا تنتهي ، تاركا هذه الدنيا بشقاواتها ، منطلقا نحو السماء ، وطالما كان يقول من وراء الغيب قبل ان يغيب :

يلذ لي يا عين ان تهدئي
وتشتري الصفو بطيب الكرى
لي رقدة طويلة في غد
لله ما أعمقها في الثرى

الم تري طير الصبا في يدي
اخشى مع الغفلة ان ينفرا
طال جناحاه وقد يهتدي
الى أعالي دوحه مبكرا

❊ ❊ ❊

اري الثلاثين ستعدو بيه
مغيرة أفراسها باقتراب
وبعد عشر يلتوي عوديه
وينضب الزيت ويخبو الشهاب

ان لحياة ابراهيم طوقان شطرين واحد في الغزل ، والآخر فى الحماسة . لقد كان غزلا مدلها مولعا بالجمال يتبعه ، كصاحبه القديم ابن ابي ربيعة فى العصر الاموي ، فهو منذ وجد عملا تدريسيا فى الجامعة الامريكية فى بيروت علق بفتاة كانت تجيء هنالك مكتبة الجامعة فتغزل بها ، وذهب شعره على الافواه ، فتناقله الفتيان والفتيات : كان يقول فيها :

وغريرة في المكتبه
بجمالها متنقبه
يا ليت حظ كتابها
لضلوعي المتعذبه
حضنته تقرأ ما حوى
وحنت عليه وما انتبه
سمحت لأنملها الجميل
بريقها كي تقلبه

واستبد به الهوى الطواف فكان مثل نحل يطوف على الازاهير ، فتعلق بغانية كانت ترعاه فى مرضه ،

وطالما ضعفت أعصاب الرضى تحت اشعة العيــون المواسية المطلة من وجوه متوردة لبست صاحبتهـا الاردية البيض فكن كالملائكة ، يبعثن البرء في القلوب قبل دواء الاطباء ، فتحت هاتيك الهدب السواحر راح صاحبي ابراهيم طوقان يقــول :

بيـض الحمائـم حسبهنـــه
انـــي اردد سجعهنــــــه
فـي كـل روض فـــوق دا
نيـة القطـــوف لهـــن انـه
الحـانيـــات على المـــريـض
غـــدون أشبــاهـــا لهنــه
مـــا الكهـــربـــاء وطبهـــا
بـأجـل مـــن نظـــراتهنــــه
مهـــلا فعنــدي فـــارق
بيـــن الحمـــام وبينهنـــه
فلربمـــا انقطــــع الحمـــا ـ
ـم في الدجى عــن شدوهنـه
امـا جميــــل المحسنـــا ـ
ـت ففي النهـار وفـي الدجنـة

لقد رأيته ببيروت في اواخر عهده بالحياة حوالي سنة ــ 1940 ــ فسألته حاله ، فشكا الي القرحــة التي خرجت في معدته ، وانها طالما اتكأت عليه ، ولم اعلم ان ذلك اللقاء سيكون الاخير بيننا .

لقد جعلتني بعد غروبه احاول ان اطلع محياه من غيوبه ، فكتبت عنه كتابا كنت أول من الف في أدبـه وشعره بعد موته ، وكم كانت اخته الشاعرة الملهمـة (فدوى) تنتظر انجازي لذلك الكتاب وقد دفعت الي بمخطوط ديوانه قبل ان ينشر ، وقد نشره أخوهــا الاستاذ « احمد » بعد صدور كتابي حين بررت لهــا بالوعد ، فتواقعت على صفحاته كاللهيفة المعطشــى ، تبل ظما احزانها على اخيها بمواده الخضلة الخالــدة .

كان طوقان شاعر فلسطين المبكر الذي ملأ دنيا العرب لوعة على انطفاء شعلة جسمه ، ستبقى روحه لماحة ساطعة في سماء الادب العربي الحديث .

لكأن جلاجل حماسته في شعره تطن في سمــع الدهر وهو يتداول اذنه الابدية انملة كما يقول ابـــو الطيـــــب :

وترك فـي الدنيـا دويـا كأنمـا
تداول سمع المرء انملـه العشـر

من هذا الشعر المدوي في الحماســة العربيــة المعاصرة وقد دعا فيه ابراهيم طوقان الى حمايــة فلسطين وانبعاث الثورة قوله :

يا جناة على البلاد بدعوى الخير والبر لا نعمتم رقادا
في غد ينشأ الصغار فيبغون تلادا وما تركتم تــلادا
يعتمون الى العدو فمن أين يلاقــون ملجــا ومهــادا
انتم اليوم تزرعون فسادا وغدا سوف يثمر استعبادا

كذلك يا شاعري ، انني من ضفاف بردي ارسل اليك هذه التحية فانشرها كازاهير ، اجدد بها ذكراك وارد عهدك في الشعر الى الحب والحماســة ، الى المتنبي الذي جئت مثله بالــروح الساميــة والامـل الكبير ، وطرقت مبكرا ، وقبل الاوان من غروب العمر، ذلك الرتاج الاعظم الذي طرقه ودخل منه قبلك بنحــو من الف عام ، وهو باب الخلود .
طوقان ، يا شاعري ، سلام عليك ، انك دخلـت التـــاريـــخ .

الدكتور زكـي المحاسنـي
دمشق في 22 مارس 1963



نظرة تاريخية وجغرافية على بوغاز جبل طارق

للأستاذ : عبد اللطيف الخطيب

لبوغاز جبل طارق أهميته الموقعية الكبرى بالنسبة للمواصلات العالمية وخاصة بالقياس الى وطننا . وقد شاء الاستاذ عبد اللطيف الخطيب أن يقدم هذا البحث الى قرائنا مشتملا على كافة المعلومات الجغرافية بالاضافة الى دراسة تاريخية جامعة ننشرها في هذا العدد شاكرين للاستاذ باسم المجلة وقرائها هذه العناية وهذا الاهتمام

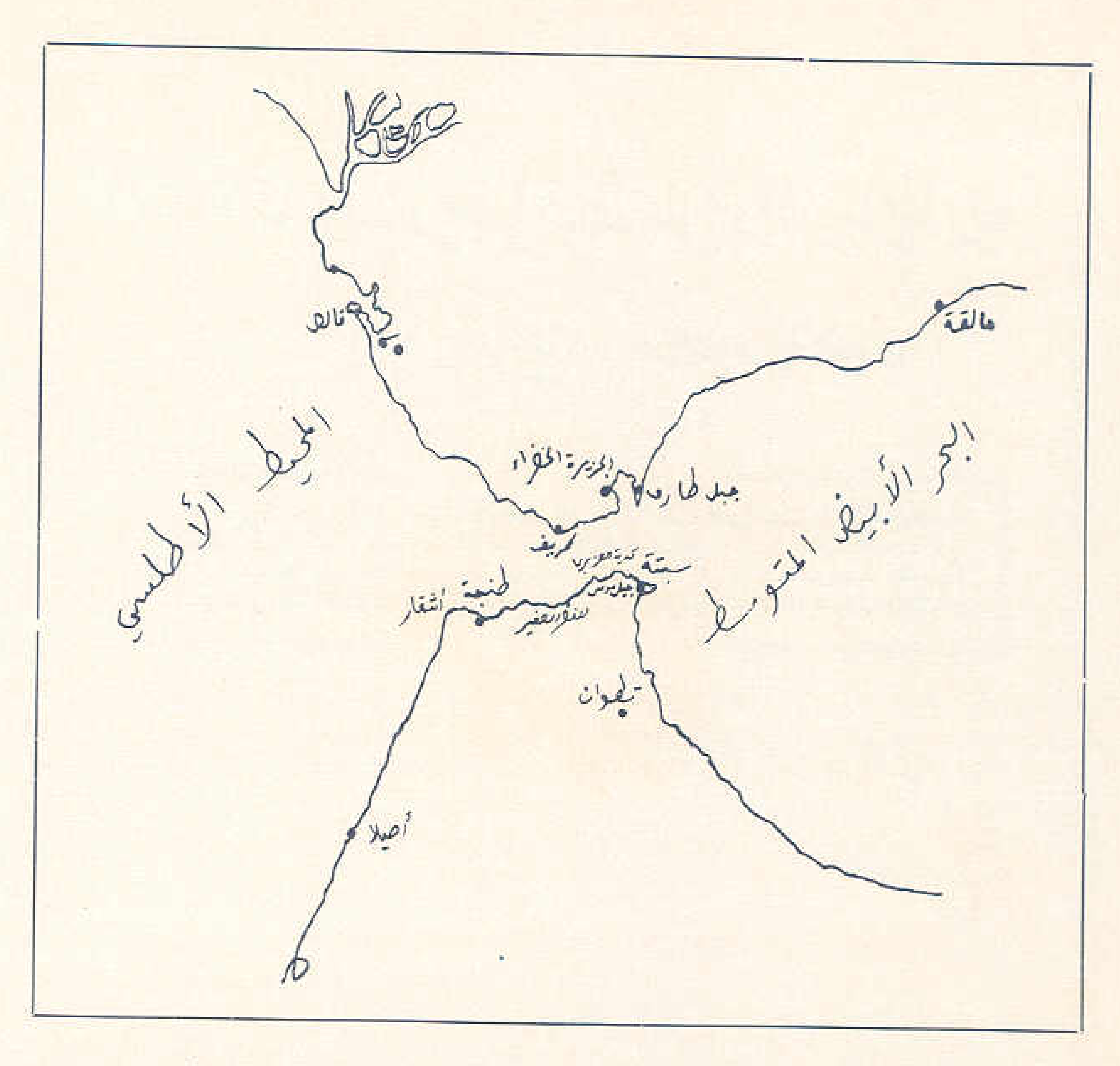
نقول في تحديد موقع بوغاز جبل طارق ان خط العرض السادس والثلاثين يمر بمياهه محاذيا لما يسميه الاسبانيون بـ « الرأس المغربي » غرب مدينة طريف . وهو اقرب اراضي الاندلس الى شواطئنا . وهو يقع بين خطي الطول الخامس والسادس المارين غرب « غرينتش » . ويمكن ان نقول ان الدقيقة الثلاثين تتقاطع مع خط العرض المذكور شرق مدينة طريف في مكان يقع الى الجنوب الغربي من مدينة الجزيرة الخضراء تجاه « القصر الصغير » بالضبط .

ونحن اذا نظرنا الى البوغاز فيما بين خط الطول المار بـ « الطرف الاغر » ، غرب طريف وخط الطول المار بـ « رأس اوربا » بجنوب جبل طارق وجدنا ان طوله يبلغ خمسة وخمسين ميلا على السواحل الاسبانية ، اما على شواطئنا فيبلغ طوله اثنين واربعين ميلا فيما بين خط الطول المار برأس «اشقار» بطنجة وخط الطول المار برأس الميناء في سبتة .

اما اتساعه فتتفاوت بحسب الانعراج الذي يلاحظ بصورة خاصة على شواطئه بشبه الجزيرة ، وان كانت سواحلنا تمتد امتدادا مستقيما يلاحظ عليها نتوء كلما امتدت الى الشمال . فالمسافة بين « رأس اشقار » و « الطرف الاغر » ، اربعة وعشرون ميلا وخمس الميل ، وهي تعادل اربعة واربعين كيلومترا . اما فيما بين « رأس اوربا » و « رأس الميناء » جهة الشرق فهي لا تعدو اثني عشر ميلا ونصف الميل ، اي ما يعادل ثلاثة وعشرين كيلومترا بالضبط . وتبلغ المسافة بين « جزيرة الحمام » التي توجد في ممر خط العرض السادس والثلاثين جنوب « الرأس المغربي » عند طريف و « كدية العزيزي » شرق القصر الصغير ثمانية اميال وخمس الميل ، اي خمسة عشر كيلومترا . اما اقصر مسافة بين الشواطيء المغربية والاسبانية فهي التي توجد بين « كدية العزيزي » و « رأس لانتشونيس » جنوب مدينة طريف .

وتتفاوت الاعماق في البوغاز كما تتفاوت المسافات بين ضفتيه . فعمقه عند « الطرف الاغر » ثلاثمائة متر . اما اذا سرنا نحو الشرق فهو يقارب سبعمائة متر قرب طريف ليصل الى الف وخمسة وثمانين مترا عند مدخل جون الجزيرة الخضراء بجوار رأس « كارنيرو » ، والى الف وثلاثمائة متر عند مصبه بالشرق . ويتكاثر هذا العمق كلما توغلنا في البحر الابيض المتوسط .

ويقدر بستة وعشرين الفا من الامتار المكعبة حجم الماء الذي يرسله المحيط الاطلسي الى البحر الابيض المتوسط عبر البوغاز في كل ثانية تفاديا لجفافه من جراء التبخر . ويسير الماء في هذا الاتجاه بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة . ويمر بالبوغاز ايضا تياران بحريان تفوق سرعتهما سرعة التيارات الموجودة بالمحيط والبحر . فأما التيار الاول والكبير فهو تيار سطحي يدخل الى البوغاز قادما من المحيط ليصب في البحر المتوسط ، واما التيار الاخر فعميق بسبب وزن الاملاح الموجودة في الماء بهذا البحر الذي يصب في المحيط ثلاثة آلاف من الامتار المكعبة في الثانية .



ولما كان البوغاز ممرا بين ضفتين تعلوهما جبال متفاوتة في الارتفاع فان رياح الشرق ورياح الغرب غالبة عليه ، وحتى اذا كانت هناك رياح اخرى فهي تتحول الى احد هذين الاتجاهين بحكم تلك التضاريس . الا ان رياح الشرق تهب على الجزيرة الخضراء وخاصة في شهور مارس ويوليوز واغسطس وشتنبر ودجنبر ، وتهب رياح الغرب مع رياح الشرق فيما عدا هذه الشهور . غير انه تمر رياح الشرق بهذه المنطقة خلال الشهور كلها . ويمكن القول بصورة عامة ان رياح الشرق غالبة عند مصب البوغاز في البحر الابيض المتوسط بينما تغلب رياح الغرب على مصبه في المحيط .

ولما كانت مدننا الواقعة على البوغاز هي سبتة وطنجة فقد رأينا من المفيد في هذا المجال ان نورد المعدل السنوي للحرارة والامطار المتهاطلة عليهما . فاما معدل الحرارة فيهما فهو واحد ، اذ يبلغ ست عشرة درجة مئوية وثمانية اعشار . ويبلغ معدل الامطار في سبتة خمسمائة وواحد وتسعين مليمترا وثمانية اعشار ، بينما يرتفع هذا المعدل في طنجة الى ثمانمائة وثمانية وستين مليمترا وثلاثة اعشار ، وعلينا ان نقول في ابراز اهمية هذه المعلومات واستقرارها انها نتيجة التسجيل المتواصل لثلاث عشرة سنة فيما يرجع الى سبتة ، ولثلاثين عاما كاملة فيما يتعلق بطنجة (1) . وهذه المدة الاخيرة هي التي تم الاتفاق على اعتمادها في المؤتمر المنعقد بمدينة فارسوفيا سنة خمس وثلاثين وتسعمائة والف بحضور الخبراء الدوليين في الاحوال الجوية . وقد كانت سبع واربعين هي آخر السنوات المدرجة في الآماد المعتمدة

لاستخراج المعدلين السنويين المذكورين . ومن المعلوم ان المليمتر من الماء يعادل لترا واحدا لكل متر مربع .

وتتبين اهمية التيار السطحي بالبوغاز كما تقدم ذكره اذا علمنا ان ذلك التيار ضروري لبقاء البحر الابيض المتوسط فقد قدر العلماء ان التبخر الملحوظ بالبحر من شأنه ان يؤدي به الى الجفاف التام في مدة لا تزيد على اربعمائة وعشرين عاما لولا ذلك التيار الذي يأتيه من المحيط بثلاثة وعشرين من الامتار المكعبة في الثانية ، ولولا هذا الحجم العظيم من الماء لاصبح البحر الابيض المتوسط عبارة عن هضبة من الملح يبلغ ارتفاعها سبعين مترا .

ولقد قلنا ان سواحلنا على البوغاز تمتد اثنين واربعين ميلا فيما بين رأس « اشقار » بطنجة ورأس المنار بسبتة وهو ما يعادل بالضبط ستة وسبعين كيلومترا وثمانمائة من الامتار ، ولما كانت شواطئنا تمتد على مسافة الفين وثلاثمائة وعشرة من الكيلومترات فيما بين السعيدية بالبحر الابيض والحدود الجنوبية الحالة لطرفاية مع الساقية الحمراء من اراضينا المحررة على المحيط فان نسبة سواحلنا على البوغاز بالقياس الى هذا الامتداد لا تزيد على ثلاثة وثلث في المائة (×) .

نظـرة تاريخيـة

ومن المحقق ان سكان حوض البحر الابيض المتوسط قد مارسوا الملاحة منذ اقدم العصور فجابوا السواحل قبل ان يتوغلوا في عرض البحر وخاصة في القسم الشرقي منه ، وذلك لكثرة الجزر فيه واعتدال مناخه . ولم تكد تحل الالف الثالثة حتى اصبحت شعوب هذه الجهات تتوفر على قوارب متينة تحتمل العواصف والانواء . وقد قام سكان شواطئ بحر ايجه بتحسين صناعة القوارب المصرية ، الا ان الفضل الاكبر في تقدم الملاحة يرجع الى صور كما هو معلوم .

ولما تحسنت وسائل النقل شرع سكان هذه المنطقة يفكرون جديا في فتح القسم الغربي من البحر . الا ان اخبار الارساليات الاولى قد اندثرت ، ورغم ذلك فقد ساد التسليم بالاسبقية للفينيقيين في القيام بالاسفار البعيدة نحو الغرب ، حيث انشأوا قواعد تجارية لهم في شمال افريقيا واسبانيا خلال الالف الاولى . وقد اسست صور سنة ثمانمائة قبل الميلاد مدينة قرطاجة التي تنافست مع مرسيلية وروما على السيطرة بغرب البحر الابيض المتوسط خلال قرون عديدة .

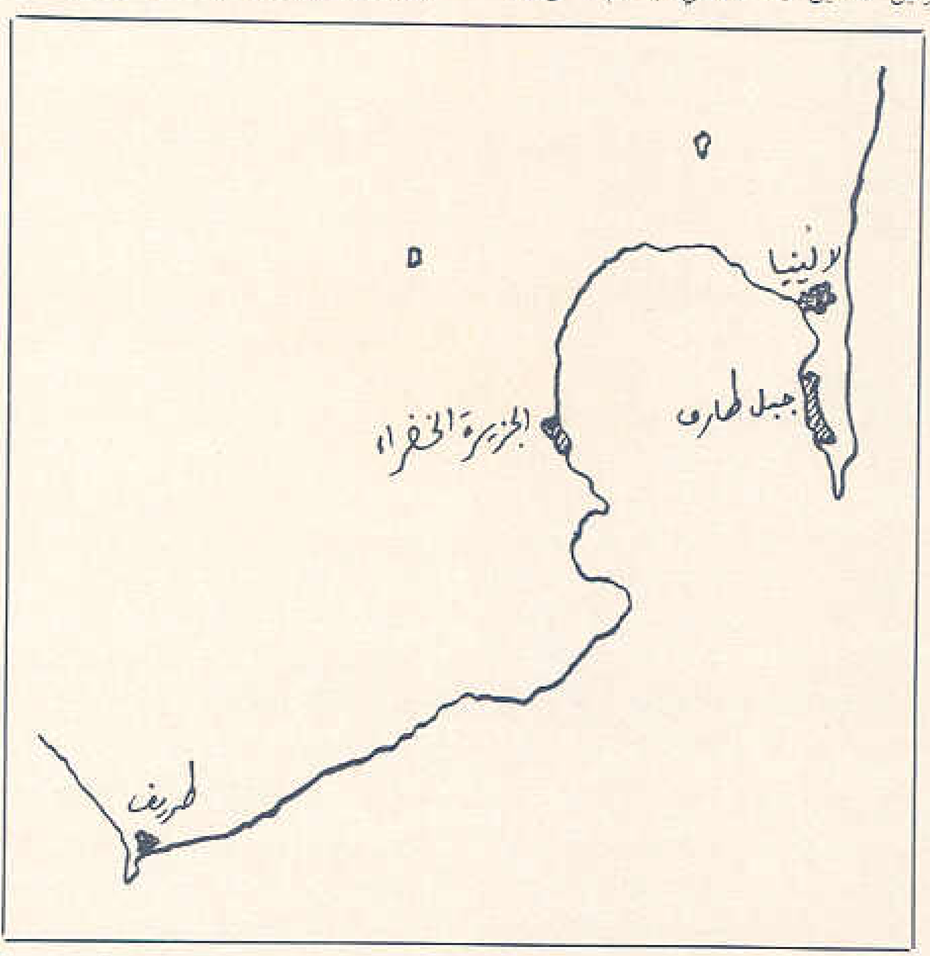
وظل القدماء مدة مديدة يعتبرون المضيق نهاية العالم ويتخوفون منه باعتبار ان ما وراءه انما هو بحر الظلمات كما كانوا يعتقدون ان البوغاز لم يوجد الا لينبه البحارة الى عدم اجتيازه والتوغل في ذلك البحر المخيف . وقد تأكد ان عبور البوغاز لاول مرة قد تم خلال الالف الاولى ، ففي 1100 قبل الميلاد قام الفنيقيون بتأسيس « قالص » في جنوب اسبانيا وبعد ذلك مدينة « ليكسوس » التي تبعد بمسافة ثلاثة كيلومترات عن موقع مدينة العرائش نحو الشمال . وقد نشطت الملاحة بهذه الجهات وبلغت شأوها بالاتصال الوثيق بقرطاجة . ثم ان البوغاز قد ربط البحر الابيض المتوسط بشمال القارة الاوربية وخاصة بانجلترا والبلاد الاسكندنافية فأصبح مركزا رئيسيا للملاحة وحرصت قرطاجة التي سيطرت على غرب البحر فيما بين القرنين الثامن والثالث على الاحتفاظ بسلطتها عليه لتبريزها في مجال التجارة ، واتخذت لتحقيق غايتها هذه مختلف الوسائل المتراوحة بين اشاعة الخوف والرهبة من بحر الظلمات كما كان الامر فيما قبل ، وبين كل السفن الاجنبية التي تقترب من المضيق .

ويمكن لنا ان نؤكد ان الحروب البونيقية قد قامت لاسباب كان الحرص على تملك البوغاز في طليعتها . وقد اصبح البوغاز رومانيا بعد انتهاء هذه الحروب التي استمرت من سنة 264 الى 146 قبل الميلاد وظل تحت هذه السيطرة الى ان حدث غزو « البرابرة » للامبراطورية كلها خلال القرن الميلادي الخامس . وانتهت فترة النشاط التجاري للبوغاز الذي لم يعد الى مكانته المبرزة الا عند فتح العرب للاندلس . وقد رأينا من الضروري ان نورد هذه المقدمة حول الفترة السابقة للفتح الاسلامي تيسيرا لادراك اهمية البوغاز في مختلف عصور التاريخ .

لقد عبر المغاربة البوغاز في صيف سنة عشرة وسبعمائة لاول مرة عند ما قام طريف بن مالك في اربعمائة رجل بالنزول في اقرب مكان من القارة الاوربية الى افريقيا ، وهو المكان الذي اسست فيه مدينة طريف . وهو يبعد عن « كدية العزيزي » بغرب مدينة سبتة وشرق «القصر الصغير» بمسافة تقل عن اربعة عشر كيلومترا كما تقدم في نظرتنا الجغرافية . وقد عاد القائد المغربي الذي لم يجد مقاومة مسلحة تذكر ببعض اسارى والغنائم الى طنجة التي غادرها في اليوم الحادي عشر من شهر يوليوز للسنة المذكورة .

× (1) ـ هذه المعلومات مستقاة من النتائج التي انتهى اليها صاحب هذا البحث سنة 1948 عند ما وضع خريطة لاقاليم الشمال استند فيها على المقاييس التي سجلتها مراكز الرصد الخمسون لدرجات الحرارة ومقادير الامطار خلال آماد متفاوتة باختلاف مراكز التسجيل وكانت محطة طنجة من بين المراكز التي استوفت المدة المطلوبة ابان انعقاد المؤتمر الدولي بعاصمة بولونيا .

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر ابريل لسنة احدى عشرة وسبعمائة غادر اسطول يقوده محمد بن ثابت مرسى سبتة ـ وكان يتألف من اثنى عشر الفا من المقاتلين المغاربة وخمسمائة من الفرسان ـ فنزل العرب بالجبل الذي نسب منذ ذلك الحين الى طارق بن زياد حاكم طنجة وخليفة موسى بن نصير الذي نسب اليه الجبل القائم غرب مدينة سبتة. وقد دارت المعركة الفاصلة في شهر يوليوز من هذه السنة نفسها عند نهر « بارباطي » فتم للعرب فتح معظم البلاد في ظرف لا يتعدى حولين كاملين وظلت في قبضتهم الى ان الخامس عشر ، اي قبل اكتشاف امريكا بتسعة اشهر وعشرة ايام . وقد ظل البوغاز تحت الحكم الاسلامي ثمانية قرون فقدت خلالها مكانته التجارية قبل ان تنعدم بحدوث القطيعة بين الموانى الاسلامية والنصرانية . ومن المعلوم ان العرب قد جعلوا جبل طارق قلعة حصينة لتعزيز وجودهم العسكري بشبه الجزيرة ، لا لحماية البوغاز وضمان حرية الملاحة عند ما ضعفت شوكتهم . وقد تعرضت هذه القلعة التي استولى عليها النصارى سنة 1462 م لحصارات متعددة طويلة ، وذلك منذ انصرام العقد الاول من القرن الرابع عشر ، فقد استولى



انهارت الخلافة وتفرقت عند انتهاء الثلث الاول من القرن الحادي عشر الى ثلاث وعشرين مملكة من ممالك الطوائف ، فاستغل النصارى هذا الضعف واستولوا على شمال البلاد وشرعوا فيما سموه بحملة الاسترجاع التي اعتبرت بمثابة الجناح الايمن للحروب الصليبية عند الفاتيكان .

ولم يكد ينتهي القرن الثالث عشر حتى كان الوجود الاسلامي بالاندلس قد اصبح مقصورا على مملكة غرناطة التي كانت سيطرتها تمتد الى جنوب شبه الجزيرة والتي ظلت قرنين كاملين تقاوم الزحف النصراني المتدفق قبل ان تنهار مقاومتها يوم ثاني يناير من السنة الثانية والتسعين من القرن

الاسبانيون سنة 1309 على جبل طارق في عهد ملك قشتالة « فرناندو الرابع » ، ثم استعاده المسلمون سنة 1333 بعد حصار استمر اربعة اشهر . وفي هذه السنة نفسها حاول « الفونسو الحادي عشر » استرداده من جديد ، الا انه اضطر بعد حصار دام شهرين ونصف الى امضاء الصلح مع ملك غرناطة وملك المغرب معا . واعاد ملك قشتالة المذكور الكرة مرة اخرى بمعونة ملك « اراغون » وملك البرتغال فانتصر على المسلمين انتصارا كبيرا بالقرب من مدينة طريف سنة 1340 . الا انه لم تمض اربعة اعوام حتى فقد الفونسو الحادي عشر مدينة الجزيرة الخضراء رغم معونة عدد كبير من

الفرسان البريطانيين له . وحاصر جبل طارق بعد ذلك بخمس سنوات فرفع الحصار الذي دام سنة كاملة لما توفى الملك بوباء الطاعون وعمره لا يبلغ اربعين سنة .

وتثبت عيون التاريخ الاسباني ان سكان جبل طارق قد ضاقوا سنة 1410 ذرعا بالحالة التي كانوا فيها فاستغلوا الخلافات التي كانت قائمة هناك بين الحكام العرب والبربر فطردوهم من المدينة التي جعلوها فيما بعد تحت حماية سلطان المغرب الذي ارسل للدفاع عنها الفا من الفرسان والفين من الرماة . الا ان يوسف ملك غرناطة تمكن من استرداد هذه القلعة في السنة التالية .

وبعد اربع وعشرين سنة حاول « انريكي دي غوثمان » اخذها بالاغارة عليها من البحر فمات غرقا . وقد جاء ولده « خوان » والي مدينة طريف فأنهى هذا القتال باحتلال القلعة نهائيا يوم 20 اغسطس للسنة الثانية والستين من القرن الخامس عشر . واتخذ الاسبانيون استيلاءهم على جبل طارق رمزا لنهاية حملة « الاسترجاع » ولو ان مملكة غرناطة قد ظلت قائمة بعد هذا التاريخ بمدة ثلاثين سنة ، وذلك نظرا لانهم تمكنوا من استرداد الموقع الذي نزل به طارق وانطلقت منه حملة الفتح الاسلامي المظفرة التي ادخلت شبه الجزيرة خلال مدة لا تعدى الحولين في عهودها الذهبية كما تقدم . واستأثرت اسرة الفاتح بالسيطرة على القلعة مدة طويلة ، اذ لم يتم الحاقها بتاج اسبانيا الا في اواخر السنة الاولى من القرن السادس عشر عندما عينت الملكة « ايسابيل » حاكما لها تقلد امرها باسم زوجها الملك « فرناندو » واوصت خلفاءها بالتمسك بجبل طارق الذي هو « اجمل حصون شبه الجزيرة ».

ولما انتهت حملة الاسترجاع الاسبانية انقطعت الصلات بين ضفتي البوغاز فاقترن عصر الاحتلال الاسباني بفترة الانحطاط والتدهور التي عظمت بانصراف الاسبانيين عن الاهتمام بالبحر الابيض المتوسط واقبالهم على العناية بأعمال الاستكشاف ، وان كان الملك « فيليبي الثاني » على الخصوص قد واصل مقاتلة المسلمين وخاصة الاتراك باعتباره « الحامي الاكبر للديانة النصرانية والمدافع عن اقطارها » .

وشرع الانجليز يهتمون بالبحر الابيض المتوسط لما ظهرت فائدة التجارة مع اقطار الشرق فبطوا صلاتهم التجارية والعسكرية على مختلف مواقعه ابتداء من اواخر القرن السادس عشر . وقد حاول ملك اسبانيا العظيم السالف الذكر ان يقاوم الوجود الانجليزي بهذا البحر فحرم الموانئ الاسبانية على السفن البريطانية واستمرت هذه المنافسة الى ان انتهت بهزيمة الاسطول الاسباني النكراء ــ وهو الاسطول الذي لا يغلب ــ سنة 1558 ، عندما حاول التصدي للاسطول البريطاني واغراقه للحيلولة بينه وبين ولوج البحر المتوسط .

لقد كان جبل طارق قد اصبح للمرة الاولى مرفأً كبيرا على عهد العرب ، الا ان الاحتلال الاسباني له كان بمثابة فترة احتضار استمرت قرنين ونصف ولم تنته الا باستيلاء الانجليز عليه يوم رابع ابريل سنة 1704 ابان « حرب الخلافة» باسبانيا .

ولم تكن « حرب الخلافة » هذه من الحروب الاهلية المريرة التي يزخر بها تاريخ اسبانيا كما قد يتبادر الى اذهان بعض القراء ، وانما كانت حربا مثارها التنافس في التوسع بين الدول العظمى . وقد استأثرت امريكا باهتمام هذه الدول خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عند ما اخذ التدهور يسري في الدولة الاسبانية قبل ان يتفشى فيها . وقد كانت هذه الدول هي فرنسا وهولندة وبريطانيا العظمى. فلما رأت هذه الدولة الاخيرة ان تاج اسبانيا وما يخضع له من الاقطار العديدة في العالم الجديد سيؤول الى حفيد « لويس الرابع عشر » لم تتردد في الدخول في الحرب لتفادي هذا الخطر وذلك بمقتضى الميثاق المبرم في لاهاي في السنة الاولى من القرن الثامن عشر . وقد حالفت هولندة وملوك « هابسبورغ » في هذه الحرب التي احتلت خلالها جبل طارق لتحول دون اتصال الاسطولين الفرنسيين بالبحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي ، وذلك بعد ان فشلت محاولاتها السابقة لاحتلال « قالص » وبرشلونة . وقد حاول الفرنسيون والاسبانيون خلال عدة سنوات استرجاع هذه القلعة التي حاصروها عدة مرات ، الا انهم فشلوا في كل هذه المحاولات التي تلتها انتصارات انجليزية متعددة في البحر الابيض بصورة خاصة ، فقد تمكن البريطانيون في سنة 1705 من احتلال برشلونة ، ثم تولوا في السنة التالية على مدينتي « قرطجنة » و « القنت » ، وعلى ميناء « ماهون » بجزيرة « مينورقة » وعاصمة مقاطعة جزر « الباليار » بعد سنتين .

وقد اردنا ان نتعرض لهذه الحرب ببعض التفصيل لانها كانت مرحلة فاصلة بالنسبة للوجود الدولي لاسبانيا . وكان ابرام معاهدة « اوطريك » Utrecht نهاية هذه الحرب اذ تنازل « الملك الكاثوليكي فيليبي الخامس لبريطانيا العظمى باسمه وباسم خلفائه عن مدينة جبل طارق وقلعته ومينائه ومنشآته العسكرية من غير مقاسم لها » ، وذلك بمقتضى المادة العاشرة من هذه المعاهدة . اما المادة الحادية عشرة فقد تنازل بموجبها عن سيادته على جزيرة « مينورقة » المذكورة .

وقد غادر الاسبانيون جبل طارق واقاموا من حوله بعد ان قطعوا كل اتصال به كمقدمة لمحاصرته التي تجددت عدة مرات . ولما فشلت وسائل القوة عند الاسبانيون الى

الوسائل الدبلوماسية باستغلال الظروف الدولية وخاصة ما كان يرجع منها الى منافستهم لفرنسا . وقد كان الاسطول البريطاني هو صاحب الفضل الاول في اعانة القلعة المحاصرة على صد الهجمات الاسبانية الفرنسية المتتالية ، واستمر وضع جبل طارق على ما كان عليه الى ان ابرمت معاهدة « فرساي » التي انهت حرب الاستقلال الامريكية وتم الاعتراف فيها لبريطانيا العظمى بملكيتها لجبل طارق الذي احتلته كما سبق ذكره في السنة الرابعة من القرن الثامن عشر ، اي بعد انصرام عشرين عاما على جلائهم عن طنجة ، حرصا منهم على ضمان سيطرتهم على البوغاز . وقد ابرمت معاهدة فرساي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والف بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة واسبانيا . واثبت الاسبانيون تنازلهم من جديد عن جبل طارق في هذه المعاهدة ، بعد ان التزمت بريطانيا العظمى بان تعيد اليهم جزيرة «مينورقة» واقليم « فلوريدا » الذي باعته اسبانيا للولايات المتحدة الامريكية في السنة التاسعة عشرة من القرن التاسع عشر .

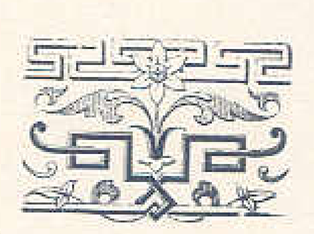
ولقد كان جبل طارق اول عهده بالاحتلال البريطاني قلعة محصنة اصبحت فيما بعد ميناء هاما ذا شأن عظيم في المواصلات البحرية مع مرافىء البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي والشرق الاقصى جميعا . وقد كان له دور هام للغاية خلال الحربين العالميتين الاخيرتين . وكان عدد سكان القلعة في العقود الاولى التي اعقبت الاحتلال لا يعدو الفا وثمانمائة نسمة ، وارتفع مجموعهم بفضل بعض صناعات التحويل التي انشئت بها رغم افتقارها الى الماء فأصبح اليوم يقارب مئة وعشرين الفا ، يضاف اليهم المجموع « الطافي » من العمال — وهو يناهز عشرة آلاف — الذين يأتون نهارا للعمل ويعودون الى مدينتي « لينيا » والجزيرة الخضراء في المساء . واذا كانت مدينة جبل طارق تقع عند الساحل الغربي من الجبل فانه توجد بالساحل الشرقي بلدة صغيرة هي « كاطلن فيلج » (القرية الكاتالانية) التي يقارب عدد سكانها الالف ويقصدها سكان الساحل الغربي للفسحة .

واذا كان الحاكم هو الرئيس العسكري للقلعة فهناك « مجلس بلدي » يعنى بالشؤون المدنية منذ سنة اثنين وعشرين وتسعمائة والف كما هي مهام الوقاية من الحريق والصحة العامة وتعهد الطرق وتوزيع الماء والغاز والكهرباء وتنظيم السير وضمان المصلحة الهاتفية . وقد كان هذا المجلس يتألف من تسعة اعضاء اربعة منهم منتخبون . ويشترط في المرشحين ان يجيدوا التحدث باللغة الانجليزية وقراءتها وكتابتها ، بالاضافة الى شروط اخرى كعدم الجمع بين العضوية في المجلس ومزاولة وظيفة من الوظائف . وقد اعيد تنظيم هذا المجلس بعد انتهاء الحرب العالمية الاخيرة فأصبح عدد اعضائه ثلاثة عشر عضوا سبعة منهم منتخبون ، واربعة معينون يمثلون المنظمات والمصالح المدنية كمديرية التربية ومديرية الصحة العمومية بينما الاثنان الباقيان ينوبان عن الادارة العسكرية . ومدة عملهم ثلاث سنوات .

والملاحظة الهامة في الحياة العامة بجبل طارق هي ان مستوى الحياة فيه ارقى بكثير من مستوى الحياة في اسبانيا وخاصة في الاقاليم القريبة . وهذه الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية الهامة تصرف السكان عن الاهتمام باسبانيا واحتمالات عودة الجبل اليها .

هذه نظرة عاجلة على تاريخ الجبل والبوغاز اللذين لهما صلة وثيقة بتاريخ بلادنا ، وخاصة بعد الفتح . وارجو ان تكون هذه الصفحات قد تضمنت معلومات مفيدة لمعظم القراء .

الرباط : عبد اللطيف الخطيب



مبادئ وحقائق

في حياة الجماعة الحيادية الدولية

للأستاذ : المهدي البرجالي

الحياد الايجابي واوضاعه الدولية الحاضرة ـ الفكرة الحيادية الجديدة واحوال نشوئها وتطورها ـ الظروف النفسانية والفكرية التي تحيط بوجود الجماعة الحيادية من جهة ، ومجموعة الكتل والاحلاف من جهة اخرى ، بين التناقضات (الحيادية) والتناقضات الموجودة داخل الاحلاف والمعسكرات ـ نتائج كل ذلك ـ مضمون الالتزام التكتلي ومفهوم الالتزام الحيادي ـ الفروق العامة بين الحالتين .

هل يجب ان نعتبر المحايدين في العالم ككتلة دولية ثالثة ؟ واذا كانت هذه الكتلة قائمة بالفعل فما هي منزلتها بالنسبة للكتل الدولية الاخرى المتنافسة هنا وهناك ؟ وما هو قسطها من المسؤولية في هذا المضمار ؟

اسئلة يبدو الجواب عليها من اول وهلة سهلا ميسورا ، وعلى الاخص فيما يتعلق بالسؤال الاول الذي يستنبأ بمقتضاه عن احوال المحايدين بالعالم ، وهل يشكلون بمجموعهم حقيقة كتلة عالمية جديدة ، يمكن ان تكون ثالث الكتل الكبرى في المجتمع الدولي المعاصر ، فمن الممكن حقا ان يعتمد المرء في هذا الباب على بعض الظواهر الماثلة ، ومن ثم ينطلق الى الجزم بان الحياديين لا يشكلون بمجموعهم اية كتلة خاصة ، وانه ليس في الامكان مقارنة وضعيتهم باوضاع الكتل الاخرى بالعالم ، وخاصة منها الكتلتان الرئيسيتان الكتلة الشيوعية والكتلة الرأسمالية كما انه من الجائز كذلك ، ان يذهب آخرون ـ في هذا الموضوع ـ مذهبا معاكسا للاول ، فيؤكدون بان الدول المحايدة تعتبر على النقيض مما تقدم ـ ككتلة عالمية ثالثة ، لها صفاتها وميزاتها الخاصة ، كما ان لها ـ من جهة اخرى ـ عوامل اختلافها بل واصطدامها مع الكتلتين الاخريين ، والكتيلات التابعة لهما هنا وهناك ، في مختلف انحاء المعمور .

والواقع ان الظواهر الدولية في دنيانا المعاصرة ، توجد في كثير من الاحيان على درجة عالية من التشعب والتعقيد ومن هذه الظواهر ، ما يتعلق بمفهوم الحياد وعدم الانحياز عند مختلف الدول التي تعتنق هذا المبدأ وتدين له، ثم علاقة هذه الدول فيما بينها من جهة ، ومع غيرها من دول العالم من جهة اخرى ، ثم جانب الحقائق الدولية التي ينبثق عنها كل ذلك، فمفهوم الحياد عند كثير من الدول حديثة العهد بالاستقلال ، يختلف في بعض الجوانب عن المفهوم الذي تتبناه في هذا الموضوع دول اخرى عربية وغير عربية سواء في آسيا وافريقيا او غير هاتين القارتين ، وينعكس هذا النوع من الاختلاف في المفهوم الحيادي على تصرفات الدول الحيادية المختلفة ، ومناهجها في النظر والتقدير ، ووجهات سلوكها في دنيا السياسة والعلاقات الدولية وغير ذلك ، ولهذا فانك ترى دولا يضيق مفهوم الحياد عندها ، وتتقلص ابعاده حتى لتجده يرادف في نظريتها معنى العزلة والدوران حول الذات ، مع استخفاف شديد بشؤون العالم ، وعدم مبالاة بماجرياته ونتائج تطوراته ، وتجد ـ من جانب آخر ـ مجموعة من الدول الاخرى ، يتسع في عقيدتها او بحسب مصالحها مبدأ الحياد ، واذا به يتمطط تمططا فضفاضا وبعيد المدى ، وتتسع آفاقه وصلاحياته ، حتى ليكاد يصبح نوعا من انواع التبعية البسيطة تقل مظاهرها، وتكثر بحسب الظروف

والحالات ، وانك لواجد كذلك ــ من جهة ثالثة ــ جماعة اخرى من الاقطار المتشبعة بمبدأ الحياد يبدو انها تدرك مفهومه ادراكا اكثر موضوعية ، واصح منطقا ولهذا فانها تحرص على الاستمساك به بقدر ما يعصمها ذلك عن الوقوع في اطار التبعية والاستلحاق المباشر او غير المباشر ، بيد ان استمساكها به هكذا من الناحية السلبية ، لا يحول بينها وبين العمل على عقلنته وتأكيد واقعيته ، واعتماده بذلك في ازدياد التفتح على العالم ، والتعاون مع شعوب الارض ، والاسهام ــ بنصيب ما ــ في استدراك ما يمكن استدراكه من فرص السلام والتفاهم والتقدم .

ومن الجدير بالملاحظة ان ابراز هذه الفروق ، والاستنتاجات التي يمكن ان تثيرها لا يقصد منها بتاتا المقارنة بين اتجاه حيادي وآخر ، او المفاضلة بين مجموعة واخرى من الدول المتأثرة بمبدأ الحياد في شكل من اشكاله ، فالمجال ــ في هذا الباب ــ ليس مجال مقايسة او مفاضلة ، وانما كل ما يهم في الامر ، هو مجرد ملاحظة الظواهر العديدة ، التي تتراءى في افق الحياد الجديد ، وما يمكن ان يؤثر به ذلك على وضعية الفكرة الحيادية الدولية بصورة عامة ، والكتلة الكبيرة التي تنتسب الى هذه الفكرة ، او تتأثر بها من قريب او بعيد ، وغني عن البيان ان النتيجة البسيطة التي يمكن ان تنبثق عن مثل هذه الملاحظات هي انه ليس من اليسير دائما تكوين مفهوم قار ومحدد الابعاد لفكرة الحياد وعدم الانحياز ثم ادراج كل الاحوال الحيادية في العالم ضمن هذا المفهوم ، وذلك بكل ما يقتضيه من حدود وشروط ، وما يخضع له من مقاييس وترتيبات فالاوضاع الحيادية ، الدولية ليست سواء من حيث العقائد التي تقوم عليها او من حيث النتائج السياسية والدولية المرتبطة بها ، ان هناك ــ بحق ــ الكثير جدا من الدول التي تنتمي الى فكرة الحياد ، غير ان الاوضاع الحيادية عند هذه الدول لا تتشابه دائما فيما بينها ــ كما قدمنا ــ ولا تنتهي الى نفس النتائج السياسية والديبلوماسية التي تقوم عليها النظرية الحيادية المجردة ، وواضح اننا لا نقصد بهذا ما يوجد من اختلاف عميق بين حالات الحياد المضمون دوليا كحياد النمسا وسويسرا مثلا وبين حالات الحياد الايجابي الذي ما فتئت الاقطار الافريقية والاسيوية تأخذ به منذ نهاية الحرب ، حقا ان هناك قدرا كبيرا من الاختلاف بين الحياد المفروض او المضمون وبين صور الحياد الايجابي المستقل القائم الآن في قارتي آسيا وافريقيا وغيرهما ، لكن المقارنة بين هاتين الحالتين من الحياد لا تهمنا في هذا المجال بقدر ما يهمنا النظر في موضوع الحياد الايجابي نفسه ، وما يتمثل في افقه الدولي الحالي من اختلافات في الاوضاع والاتجاهات تذهب احيانا ــ كما قدمنا ــ الى حد كبير ، لكن هل يجوز التغاضي عن مثل هذه الاختلافات في الاوضاع والاتجاهات

التغاضي عن مثل هذه الاختلافات في التقييم والاستنتاج والاتجاه ، عند مختلف الدول المحايدة ، واعتبار هذه الدول ــ بالرغم عن ذلك ــ ككتلة قائمة لها نصيب كاف من التماسك والتلاحم والانسجام ، ان الروابط العقائدية والاتجاهية التي تصل بين المحايدين في العالم لا يمكن الاستهانة بمتانتها وحيويتها في حدود اعتبارات معينة ، الا ان هذه الروابط لا تصل الى حد ان تجعل من مجموع الدول المحايدة او شبه المحايدة سواء في افريقيا او آسيا او اوروبا او امريكا اللاتينية كتلة متراصة ملتحمة كما هو الشأن بالنسبة للكتل الاخرى الموجودة في العالم ، بل ان هناك حالات يلاحظ فيها وجود عدد من الدول ذات الاتجاه الحيادي او شبه الحيادي ، يكتل البعض منها في منظمات دولية خاصة ، بينما يتكتل الآخرون في منظمات اخرى قد تكون مناقضة للاولى في كثير من القضايا ووجهات التقدير والنظر ، وتلعب الاعتبارات الفلسفية السياسية والعوامل الاجتماعية والفكرية دورا هاما في تكييف اتجاهات حيادية متباينة من هذا القبيل ، على ان الدول الاخرى غير المحايدة ــ وان كانت تتجمع ــ من جانب وآخر ــ في معسكرين متواجهين متناقضين ، يسود كلا منهما نوع من التناسق والالتحام بين عناصره فانها مع ذلك تعاني هي الاخرى من مظاهر الاختلاف الداخلي والتناقض الذاتي ما يبدو احيانا على درجة من الاهمية البالغة ، فالخلاف بين التعديليين والدوكماتيين داخل الكتلة الشيوعية قد تجاوز خلال السنة الماضية ، واوائل هذه السنة كل الحدود المحتملة اما التناقضات بين وجهات النظر الداعية الى رابطة اوربية اكثر استقلالا وذاتية ، وبين وجهة النظر الاخرى ، المتشبثة بمبدأ التكافل والتلاحم الاطلسي ، هذه التناقضات في وجهة النظر من اكبر المشاكل واضخم العقبات التي تواجه سياسة الدفاع والتضامن الغربي ، وهناك مظاهر اخرى كثيرة من هذا النوع تؤثر تأثيرا متفاوتا في الاهمية على سير التطور الذاتي داخل المعسكرين العالميين المتنافسين وتحدد احيانا وجهة هذا التطور وامتداده سواء بصورة موقتة او ذات صفة جذرية ، لكن هل في امكان المراقب ان يوازن موازنة شاملة بين مجموعة هذه التناقضات التي تسود عالم الدول المتكتلة والمتحالفة والتناقضات المماثلة لها ، التي تسود الجماعة المحايدة في العالم ؟ ، الذي يبدو من اول وهلة ان مقارنة من هذا النوع من شأنها ان تستدعي في بعض الاعتبارات المقارنة ايضا بين الاوضاع العامة التي تشكل وجود المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي من جهة ، والاوضاع العامة التي يقوم عليها وجود الجماعة الحيادية العالمية من جهة ثانية ، وعلى اساس هذه المقارنة في الاوضاع العامة يمكننا ان نخلص في النهاية الى المقارنة بين التناقضات الداخلية التي تسود هذا الجانب او الآخر والنتائج الاجمالية التي تنشأ عن وجود هذه التناقضات وتطورها .

وتبرز في هذا المجال مجموعة عامة من الحقائق والمعطيات لا بد للمراقب ان يدرس جوانبها المختلفة ، ويستخلص منها ما يمكن استخلاصه وذلك من اجل التمييز فيما بين الظواهر المتداخلة وتصنيفها تصنيفا يمكن ان يكون له مدلول اكثر وضوحا وتحديدا ، واولى الحقائق التي تبدو لنا في هذا المضمار ، تتصل بالاحوال التي تم فيها نشوء الكتل والجماعات الدولية المختلفة ، وطبيعة العوامل التي اثرت في هذا النشوء ، وساعدت على تطويره وتكييفه ، ويرى الملاحظ في هذا المجال ان الظروف التي احاطت بقيام الكتل والاحلاف الدولية الحاضرة تتباين في كثير من الحيثيات والظروف التي اسهمت في تطور فكرة الحياد ، ونمو بواعثها الاساسية وتبلورها ضمن الاشكال والاطر التي تظهر فيها الآن فمثلا الكتلة الشيوعية التي تضم الآن ما يناهز ثلث سكان المعمور ، وتمتد مواقعها على مساحات شاسعة هائلة في اوروبا والقارة الاسيوية ، هذه الكتلة لم تتلاحم اجزاؤها وتتآلف عناصرها من الناحية القيادية على الاقل — الا تحت تأثير الشعور الحاد، بضرورة التكتل والتراص من اجل مقاومة النفوذ الراسمالي في العالم ، ومناوأة التيارات السياسية والمذهبية التي تؤثر فيه او تتأثر به على مختلف الابعاد والمستويات، اما الكتلة الغربية الاطلسية التي تضم اهم الدول المتقدمة صناعيا واقتصاديا في العالم ، والتي ترتبط بها بعض التكتلات الثانوية الاخرى كحلف شرقي آسيا (عقد في 8 شتنبر 1954) والحلف المركزي للشرق الاوسط (25 فبراير 1955) وحلف ريو دي جانيرو بامريكا اللاتينية (شتنبر 1947) وغير ذلك هذه الكتلة الغربية او الاطلسية قد نشأت — هي الاخرى — في ظروف سياسية ودولية خاصة ، ترتبط شديد الارتباط بقضية الامتداد الشيوعي العالمي ، والتحديات التي اصبح يوجهها للانظمة الغربية القائمة على قاعدة الديموقراطية البرلمانية التقليدية ، وما يرتبط بكل ذلك من اوضاع واجهزة ومنشئات ومصالح في مختلف انحاء العالم ، وقد كان لانفصام النظام الرباعي ببرلين ، وسقوط تشيكوسلوفاكيا تحت النظام الشيوعي سنة 1948 بالاضافة الى احداث منطقة البلقان وخاصة التهديد الموجه لتركيا حول موضوع المضايق ، والحرب المشنة على اليونان من قبل الانصار الشيوعيين ، هذا الى التطورات التي ادت الى احياء الكومينفورم (المنظمة الشيوعية الدولية) ، كان لكل ذلك اثر بعيد المدى في خلق الظروف النفسانية والفكرية التي كان من شأنها ان تدعو الى التكتل بين الاقطار الرأسمالية الغربية وتجميع الارادات القوية لتطوير الموقف سريعا في هذا المضمار ، وواضح ان المؤثرات التي خلقتها تلك الظروف لا تزال — في الغالب — على حدتها وفاعليتها ولم يطرأ عليها عموما اي تعديل يساعد المتحالفين والمتكتلين على امكانية الاستغناء عن الاحلاف التي يتجمعون تحت الويتها وتلك هي احدى العقد الاساسية في استمرار تحجر الوضع الدولي منذ سنة 1947 بل وازدياد هذا التحجر وازمانه الى حد بعيد ، على الرغم مما يبدو من تقلبات داخلية مذهلة سواء في نطاق المعسكر الشيوعي او الرأسمالي وذلك نتيجة لما يعانيه المعسكر الاول من خلافات مذهبية وسياسية بين الدوكماتيين والتعديليين وبسبب ما يعانيه المعسكر الاخر من تصدعات مثيرة بين فرنسا والمملكة المتحدة من جهة ، والولايات المتحدة من جهة اخرى — على الرغم من كل هذه التقلبات ذات الاهمية الواسعة فانه ليس من المنتظر — مع ذلك — امكانية حدوث انقلاب في الاحلاف الدولية الحاضرة ، وبالتالي احتمال وقوع كتلات دولية جديدة على حساب الاوضاع الراهنة في المعسكرين المتنافسين كل ذلك لسبب اساسي ، وهو ان الاحوال النفسية التي ساعدت على قيام الاحلاف الحاضرة لم يعتورها — بالرغم عن المظاهر — اي تغيير حقيقي ، وما زالت تحتفظ بكامل تأثيرها على مختلف الدول المتحالفة سواء داخل هذا المعسكر او الاخر ، لقد كانت مشاعر الشك والقلق والحذر في صميم العوامل التي مهدت لنشوء هذه الاحلاف ، وتطور التنظيمات المادية والاجرائية التي ترتبط بها في الاساس ، ومن الجلي ان هذه المشاعر بكل ما تنطوي عليه احيانا من عناصر سلبية هدامة — لا تزال تؤثر تأثيرها القوي الفعال في تطور الاجهزة التحالفية القائمة ، وايضا في الوجهة التي توجه نحوها هذه الاجهزة وتستخدم على اساسها بصورة عامة ، ولهذا كله فقد كان من المفهوم دائما ان تستمر هذه الاحلاف مرتبطة بالعوامل النفسانية التي تبرر وجودها من اساسه ، وبالنتيجة لذلك فانه لا يزال من الصعب جدا عزلها عن تأثير هذه العوامل والحيلولة بينها وبين النتائج التي يؤدي اليها كل ذلك كالسابق — مثلا — نحو التسابح والتنافس على مناطق النفوذ والسعي الى ذلك سعيا ناريا يكاد يشمل حتى مجالات اكتشاف الفضاء ايضا ، وكل هذا من اجل ضمان التفوق على الخصم ، اي ضمان التفوق على عوامل الحذر والخوف والريب ، الذي يحدثه كل جانب باستمرار ، ويؤثر به على نفسية الجانب الاخر ، والاهم من هذا كله ان الامر — في هذا الباب — قد اصبح شديد الاتصال بالشعارات التي يرددها هؤلاء او اولئك وحتى بالمبادئ والقيم التي يدين بها المتكتلون سواء في هذا المعسكر او الآخر ، ان الشعارات التي اصبحت تردد بمناسبة وغير مناسبة داخل الكتل الدولية المتنافسة هي شعارات القوة ، القوة الرادعة ، القوة التي توصف احيانا بانها قوة مطلقة ، اي لها من الفاعلية التدميرية من جهة ، والمناعة ضد الوسائل المضادة من جهة اخرى ما يحول دون ابطال عملها الرادع على

اي شكل من الاشكال ، وما التلويح بالقوة هكذا الا مظهر من مظاهر الحرص الشديد على مداراة القلق والخوف ومحاولة درء ذلك على طريق تخويف الخصم والقاء بذور الذعر في نفسيته ، وتلك حالة دور وتسلسل يمكن على اساسها تعليل الكثير من المواقف المزمنة في العالم الدولي الحاضر وادراك المشكلات السياسية الاكثر تعقيدا في مجال هذا العالم وآفاقه ، اما اذا وجهنا النظر الى طبيعة موقف الاقطار المحايدة من مثل هذه التطورات وردود الفعل التي كان من اللازم ان تمارسها ازاء كل ذلك فاننا سنلاحظ ان الحقائق في هذا المجال تختلف في كثير من جوانبها عما رأيناه بالنسبة الى المتحالفين والمتكتلين ، لقد تأرجحت الفكرة الحيادية عند شعوب هذه الاقطار تأرجحا واسعا جدا قبل ان تصل الى درجة من الارتكاز والاستقرار مثل ما هي عليه الان ، ولقد كان مؤتمر « باندونغ » (ابريل 1955) مرحلة مهمة من مراحل التطور الاساسي الذي اجتازته الحيادية الايجابية الحاضرة كما هي اليوم ، ولم يكن المؤتمر ذاك مجرد مظهر من مظاهر هذا التطور بل كان فوق ذلك عاملا من عوامله التي لها اهميتها في هذا المضمار ، على ان السنوات القليلة التي اعقبت تجمع باندونغ كانت ذات اثر حاسم في تطور الاوضاع الحيادية بالعالم وارتكاز التجمع الحيادي الدولي على اسس اكثر ايجابية وحيوية ، وان كان هذا التجمع لم يتخذ شكل حلف او كتلة على النحو التقليدي الذي تعرف به الكتل المتنافسة اليوم ، وقد كان لتحرر اغلبية المناطق في افريقيا خلال هذه الفترة فضلا عن ازدياد التزاحم بين المعسكرين العالميين على اكتساب الشعوب النامية وتطور الاتجاه عند هذه الشعوب الى الاقبال على موارد التنمية والتطور عن طريق التعاون التكافئي مع كلا المعسكرين — كل ذلك كان من شأنه ان يزود الفكرة الحيادية الايجابية بعناصر جديدة ويحمل كثيرا من الدول المحايدة وان كان البعض منها لا يزال منعزلا على توفير المزيد من التقارب فيما بينها والبحث عن سبل التلاؤم في مواقفها من بعض القضايا السياسية على الاقل التي تشغل العالم الدولي الحاضر ، وليس من شك في ان المشكلات الاساسية التي تعاني منها اقطار الحياد هي على درجة من التماثل والتشابه ، وتتركز بمجموعها في محور اساسي : الجمود الاقتصادي والاجتماعي الذي يتخذ في الغالب مظاهر مأساة مروعة ويسود الرأي عند عموم هذه الاقطار ان الحرب ليس من شأنها الا ان تعرقل الخطوط الممكنة لمعالجة مشاكل انسانية معقدة من هذا القبيل وعلى العكس من ذلك فان سبل التعاون الدولي المتحرر من قيود التبعية والانحياز تبرز كأساس دائم وواسع الشمول لتحقيق نتائج هامة في هذا المجال ، وفي امكان المرء ان يستنتج من ذلك متانة الروابط الموضوعية التي ما فتئت تصل بين وجود التخلف من جهة ، والاتجاه المشترك الى الحياد من جهة اخرى، وهذا الترابط — وان كان لا يشكل قاعدة صحيحة يسري مفعولها على جميع الحقائق والمستويات — الا انه — مع ذلك — يعتبر ظاهرة ملحوظة ومطردة تتمثل لنا في مختلف الحالات الحيادية الملحوظة سواء في افريقيا او في آسيا او غيرهما ، فمناوأة التخلف ليست مهمة بسيطة حقا ، وهي ان كانت تستوجب شيئا فانها تستوجب — قبل كل شيء — بحثا ملحا عن الموارد والتجهيزات وسعيا حثيثا وراء اعمال التنسيق والانجاز والتوسع وهذه امور لا تتوافر مجالاتها بصورة واسعة الا في اجواء دولية سليمة وبعيدا جدا عن غمار الاحلاف والتكتلات المتناحرة ولا ريب ان مثل هذه الحتمية المنطقية من شأنها ان تفرض على الذهن العادي ضرورة انتهاج سبيل الحياد الواعي المتفتح مثل ما تفعله كثير من الدول النامية ، وتسير بمقتضاه في موضوع علاقاتها العالمية والدولية .

نستخلص مما تقدم ان الظروف النفسانية والفكرية التي احاطت بنشوء ظاهرة الحياد الجديد وتطوره هي غير الظروف الاخرى التي صاحبت نشوء الاحلاف والكتل المتنافسة في عالم اليوم ، اذ ان الخوف والشك والحذر كان فعلا في اساس الدوافع التي حدت الى قيام هذه الكتل ، بينما كان الامل والرجاء من بين العوامل المهمة في نمو الاتجاهات المختلفة نحو الحياد ، وتبلورها في واقع الجماعة الحيادية الدولية التي تشكل اليوم تقريبا ما تواضع على تسميته بالعالم الثالث ، وبين الخوف والحذر من جانب، والامل والرجاء من جانب آخر يتبين الفارق الكبير بين وجهتين انسانيتين كبيرتين يؤثر كل منهما على سير التطور بالعالم ويساهمان في تكييف الوقائع والمجريات التي تجري بين ربوعه ، والتناقض بين الوجهتين ، وجهة المحايدين ووجهة المتكتلين والمتحالفين لا يدعو بطبيعة الحال الى حتمية التصادم بينهما كما يمكن ان يقع بالنسبة للدول المتكتلة بعضها ضد بعض ، اذ ان هذا التناقض الحاصل بين الحيادية والانسانية لا يستمد وجوده — في الواقع — من شعور عدائي او احساس سلبي ، وانما هو راجع الى جوهر الاختلاف بين فلسفة تقوم على مبدأ التوفيق والملاءمة ، وفلسفة اخرى تنهض على منطق القوة والمغالبة سواء في حالة الدفاع او الهجوم وفي مجال الاستعداد لذلك ماديا ونفسانيا وبطبيعة الحال فان فلسفة التوافق والتلاؤم لا يمكن ان تسير في سبيل التداني مع الفلسفات الاخرى المناقضة لها ، والمتناقضة هي ايضا مع بعضها البعض وذلك لا لكي تنتهي في الاخير الى الاصطدام بهذه الفلسفات اصطداما تناحريا مميتا كما هو طبيعي ان يحصل في كثير من الحالات من هذا القبيل - وانما لتحاول — عوضا عن ذلك — التأثير على مواطن السلبية الكامنة في الصراع الدولي القائم وتحديد عناصر الحدة والارهاف في

مختلف مظاهره ونتائجه ولعلنا نكون اكثر ادراكا لمعقولية الفكر الحيادي في هذا الشأن ومنطقية الموقف الذي يتبناه حيال مسائل عامة من هذا النوع ، اذا ما وضعنا في الاعتبار ان الحياد لم يقم في اساسه ومنذ بداية نشوئه وتطوره كوسيلة لمقارعة خصوم حقيقيين او موهومين او مناوأة كتل او وجهات دولية معينة وعلى الرغم من ان اكثرية الاقطار المحايدة كانت واقعة في الغالب الاعم تحت وطأة النظام الاستعماري التقليدي وتعاني باستمرار من مشاكل التخلف الذي يرجع في بعض اسبابه الى الوجهة التي كان يتخذها هذا النظام في موضوع الفكر والاقتصاد والاجتماع وغيره — على الرغم من كل ذلك فانها قد استطاعت ان تتخلص من كثير من العقد والتركيبات نحو الدول الكبرى ، وتتخذ سبيلها الى آفاق التعاون الدولي الايجابي البعيد عن مظان التحزب ضد هذه الدولة او تلك او على حساب هذا الحلف او الآخر وقد كان طبيعيا جدا ان تحتضن هذه الشعوب المحايدة مثل هذا الاتجاه في التفكير والتخطيط والتصرف لانه منبثق — في واقع الامر — عن نظرياتها الخاصة عن موضوع التعايش العالمي ووسائل مناوأة الاستعمار القديم والجديد وطرق العمل على انجاح الثورة الانسانية من اجل التطور والنماء والتحرر .. والنظريات الحيادية في هذا الباب ، وان كانت تتلاقى في كثير من المراحل مع النظريات الشيوعية وغيرها — الا انها لا ترتكز بالضرورة على نفس المعطيات والقيم التي انتهت اليها الماركسية واللينينية وما في ضمنها من حركات واتجاهات دولية ومحلية ، ان نظرة الحياديين الى طبيعة الامبريالية ونتائجها ومضاعفاتها لا تقوم اساسا على اراء اقتصادية وتاريخية معينة ، بقدر ما تقوم — اكثر من ذلك — على ملاحظة الواقع الاستعماري في العالم ، وما يوحيه الاحتكاك بهذا الواقع من عبر واستنتاجات ، واذا كان من الضروري ان تحمل هذه العبر والاستنتاجات على مزيد الحذر من الاوساط الامبريالية الدولية ، ومن مناهجها وتخطيطاتها السلبية الدقيقة سواء اكانت على الطراز الكلاسيكي المألوف او كانت تكتسي اردية مستحدثة فانه ليس من اللازم — على اي حال — ان تلتقي اليقظة الحيادية في هذا الباب مع تكتلات المتكتلين وانصار الاحلاف والمعسكرات ، ورواد الحرب الباردة ، وليس من اللازم كذلك ان يلتقي التفكير الحيادي في موضوع الحرية والبادرة الشخصية والاقتصاد الحر مع نظريات الدول الاخرى التي تعتنق المبادئ الليبرالية في الاقتصاد والاجتماع ثم تتخذ من هذه المبادئ سبيلا للتكتل والتحالف من اجل خوض الغمرات الصراعية ضد الاخرين على اننا اذا نظرنا الى هذه الغمرات من وجهة اراء الذين يخوضونها فاننا نجد انها لا تثير الاستغراب على اي مستوى مبدئي ، فمنطق الاحداث المتسلسلة منذ حقبة بعيدة ، يفرض امكانية الصراع الموجود بشكله الحاضر ، بل ويحتم وقوعه طبقا لمقتضيات التحول التاريخي وما يصحب هذا التحول من تفاعلات دولية تمتد على الصعيد العالمي الواسع ، ولاشك ان التكتل ضمن مؤسسات دولية مشتركة يصبح في بعض الاحيان من اقصى الضرورات واشدها الحاحا بالنسبة للمتصارعين داخل هذا التحول سواء كانوا ينتسبون الى هذا المعسكر او الآخر ، اذ ان مثل هذا التكتل — في نظر البعض — يساهم على الاقل في اقامة التوازن بين الطرفين المتشاحنين ويساعدهما — كما يرغبان — على تركيز طاقتهما الصراعية مادية ومعنوية ، لكن الامر بالنسبة للمحايدين يختلف عن ذلك في كثير من الاعتبارات ، فالبواعث الصراعية عندهم لا تتجه نفس الوجهة التي يوحي بها داعي الصراع عند دول الكتل والاحلاف ، اذ انها ترتبط عند هؤلاء بموضوع الخامات والاسواق والمجالات الحيوية والنفوذ العالمي بمختلف انواعه المذهبية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، بينما هي ترتبط عند الاولين بموضوع التحرر من بقايا النظام الامبريالي وتحقيق الاكتفاء الذاتي في ميادين الصناعة والتجارة وغيرها وتوفير فرص النمو والتقدم والسلام على كثير من الدول المحايدة ينصب في الدرجة الاولى على مواضيع التحرر السياسي في مختلف انحاء العالم ويتركز كذلك في موضوعات التنمية الاقتصادية ومشاريع التطوير والتنسيق وان كانت هذه المواضيع الاخيرة لم تتخذ على صعيد التعاون بين الحياديين صورة جدية حقيقية ، وهذه خطوط كبرى في مجال العمل الدولي المشترك الذي يجمع بين كثير من الدول المحايدة في العالم ، ويساعدها — بالاخص — على اتخاذ مواقف موحدة على صعيد هيئة الامم المتحدة ، على اننا اذا ما اعتبرنا تفاهم هذه الاقطار فيما بينها حول مواضيع معينة من نوع ما لاحظناه من قبل مع ما يحدثه هذا التفاهم احيانا من مؤتمرات وندوات خاصة وتناسقات ملحوظة في وجهات النظر — اذا اعتبرنا كل ذلك على انه اساس تكتل موجود بالفعل بين مجموعة المحايدين في العالم ، فاننا نكون حينئذ قد اطلقنا اللفظ اطلاقا فيه كثير من التجاوز واردنا به مدلولا عاما غير مقيد بقيود سياسية وقانونية خاصة ، ذلك ان اتفاق الدول المحايدة في عدد من وجهات النظر ومواطن العمل والسلوك لا يعني انها ترتبط فيما بينها بروابط قانونية ملزمة من نوع ما يربط الدول المتكتلة بعضها الى بعض ، بل ان الروابط التي تصل فيما بين المحايدين هي روابط مبدئية قبل كل شيء ، بحيث لا تتجاوز حدود المبادئ العامة الى التفاصيل ولا تتغلغل حتى تمس طبيعة الاهداف الخاصة لاية دولة محايدة او جانب العلاقات العامة بين هذه الدولة وبين بقية انحاء العالم ، ومن هنا نلحظ ان الفكرة الحيادية في خطوطها العامة ، او بالاقل من حيث الواقع الدولي الذي يتمثل فيها الآن .. هذه الفكرة

هي ذات اطار فضفاض متمطط يمكن ان يتسع لكثير من الاشياء بما في ذلك مظهر التناقض الذي يبدو احيانا بين مجموعة واخرى من المجموعات الدولية التي ترتبط بمفهوم الحياد وذلك في بعض الاوضاع والقضايا المختلفة التي لا تمس جوهر الحياد من اساسه ، اما من حيث التناقض الذي ينشب بين الدول غير المحايدة اي المرتبطة فيما بينها بروابط الاحلاف والتكتلات فان تأثيره على علاقاتها يكون ــ ولا شك ــ اشد خطورة وابعد مفعولا وذلك نتيجة حتمية لطبيعة الصلات التحالفية التي توجد بينها وما تقتضيه هذه الصلات من ضرورة التناسق المطلق في مختلف وجهات النظر ، واساليب العمل ، على اختلاف الدرجات والمستويات ، وكثير من الظواهر التي يلحظها المرء من خلال التطورات الداخلية سواء داخل هذا المعسكر او ذاك من شأنها ان تدل على كثير من الحقائق التي لها اهميتها في هذا المقام .

+×+×+×+

ان الفكرة الحيادية تعيش تجربة مرحلية هامة ومن ابرز الحقائق التي تكشفت عنها هذه التجربة ان الحياد ــ اذ يجب ان يكون اساسا لتعاون ايجابي فعال بين الدول التي تعيش خارج الاحلاف والتكتلات ــ فانه ــ من جانب آخر ــ لا يصح ان يكون قاعدة انطلاق لتشكيل كتلة دولية جديدة منغلقة على نفسها وواقعة تحت تأثير الخوف والحذر من الكتل الاخرى المتنافسة في العالم . حقا ان هناك حالات تقارب واسع المدى بين كثير من الدول التي تعتنق مبدأ الحياد على نحو او آخر ، وكثيرا ما يشتد هذا التقارب وتقوى عوامله فيتخذ بذلك شكل تجمع حقيقي تتكتل في نطاقه دول حيادية بعضها مع بعض وترتبط فيما بينها بمواثيق او معاهدات ذات صبغة ترابطية ملزمة ، بل ان البعض من هذه المواثيق والمعاهدات بين الدول المحايدة قد اتسع نطاقه كثيرا في بعض الاحيان واصبح يشمل جوانب ذات اهمية واسعة بما فيها الجوانب العسكرية ايضا لكن ذلك ــ وبالرغم من جميع المظاهر ــ لا يدل بالضرورة على وجود اية صلة بين التفكير الحيادي وبين مظاهر التكتل العالمي بمفهومه التقليدي الباعث على مناوأة الجهات الدولية الاخرى والاشتباك معها في المنازعات الدائبة والانغمار وإياها في متاهات الحرب الباردة على اختلاف ما لها من اوجه وصور ، ان الفكرة الحيادية لا تقوم في قواعدها على مجرد اجتناب التأثر بالحرب بل انها تنزع الى الاسهام عمليا في تنظيم الشؤون العالمية الكبرى والتأثير على طريقة هذا التنظيم وتوجيهها توجيها يستهدف التخفيف من حدة المنازعات القائمة بل وتصفية عناصر العداء والسلبية في هذه المنازعات كلما كان ذلك ممكنا ، وليس من تناقض حتمي بين هذا الاتجاه الذي تحتويه الفكرة الحيادية وبين وجود مواثيق عسكرية تصل بين دول حيادية معينة اذ العبرة في هذا الباب لا تكمن في مجرد وجود مثل هذه المواثيق ، وانما في طبيعة الروح التي تؤثر فيها وتسيطر بها على سير الاتجاهات والاحوال ولعل من الواضح بالفعل ان الارتباطات العسكرية التي تقوم او يجوز ان تقوم بين اقطار حيادية واخرى لا يمكن ان تتأثر بروح التحيز ضد هذا الجانب او ذاك او عامل المناوأة لهذه الكتلة ، او غيرها او هذا ما يجب ان يكون عليه الامر على الاقل ، ان احوالا ارتباطية وتعاونية من هذا القبيل لابد ان تكون متأثرة بروح ايجابية صحيحة كالرغبة ــ مثلا ــ في زيادة توثيق الصلات العامة ، وتنسيق عدد من المواقف المشتركة ودرء الاخطار الطارئة عند الاقتضاء ، ولكن في غير ما حرص على اصطناع المنازعات الدولية المختلفة ، ودونما رغبة في تعقيد المشاكل العالمية ، وتوسيع نطاق العداء والمناوأة الذي توحي به هذه المشاكل وتتأثر به الى حد كبير .

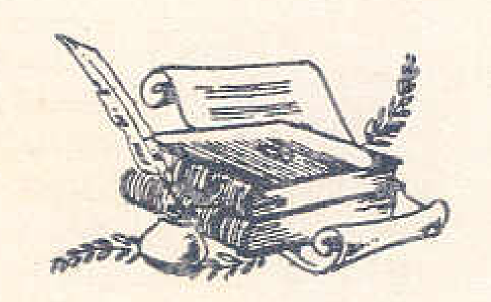
ان النظرية الحيادية الجديدة تنزع في عمومها الى الاندماج الكلي في قضايا العالم واهتماماته وهذا هو السبب في ان هذه النظرية لم تؤد بالفعل الى تكوين حلف دولي ثالث يشمل مختلف الاقطار التي تأثر بمبدأ الحياد ويتميز ــ كما هو الامر في الاحلاف العادية الموجودة ــ بضيق جوانبه وشدة الزاميته وتحدده في نطاق اهداف خاصة غير قابلة في اكثر الحالات للتكيف والتلاؤم ، فليس هناك من حالة يوجد فيها قطر حيادي مقيدا بقيود تحالفية صارمة تضع عليه واجب الخضوع المطلق للجماعة التي ينتسب اليها والا اعتبر منحرفا متمردا يجب الاقتصاص منه والتبرؤ من سلوكه كما هو الامر من هذا القبيل ، بالنسبة للكتل الدولية الاخرى في العالم ، حقا ان اية دولة من الدول المحايدة لابد ان تبقى وفية ــ في الاساس ــ للفكرة الحيادية من حيث المبدأ بما يقتضيه ذلك من عدم التزام بالاحلاف وامتناع عن التحزب المطلق للجهات الدولية المتنازعة ، ورفض البوادر السلبية المؤدية بطبيعتها الى تأريث نيران الحرب ومضاعفة بواعث الصراع في العالم، هذه مقتضيات موضوعية يقوم عليها الفكر الحيادي في شكله البسيط المجرد ، بيد ان الالتزام لهذه المقتضيات الحيادية لا يمكن ان يعد في نفس الوقت التزاما لمعسكر حيادي او منظمة حيادية او حديقة كبرى من الحديقات المحايدات ، انه التزام تلقائي تحدده ارادة كل دولة بصورة خاصة ، وليس لاية دولة اخرى او مجموعة من الدول ان تتحكم في تكوين هذا الالتزام او تؤثر على ضمان استمراره وتحقيق فاعليته ومتطلباته ، وعلى ضوء هذا يمكننا ان نعلل هذه المرونة التي يصطبغ بها التفكير الحيادي

وتفسر ــ على اساس ذلك ــ موقف بعض من الدول التي استطاعت ان تجمع في نفس الوقت بين صفتين اثنتين لا يوجد بينهما قدر من التطابق والالتزام ، فالبعض مثلا من الدول المنتسبة الى هيئة الكومونولث البريطاني تنتمي في ذات الوقت الى الجماعة الحيادية الدولية ، ولم يقم هناك اي تعارض اساسي بين اتجاهها الحيادي المتين وبين وجودها داخل منظمة تتصل بعض الاتصال بالعالم الغربي الاطلسي ، وان كانت لا ترتبط سياسة على خط مستقيم ، وهكذا الامر بالنسبة لامثلة اخرى من هذا القبيل ، وكل ذلك من شأنه ان يؤكد ان الحياد ــ وان كان يضم دولا عديدة على صعيد مبدا مشترك ويجمع بينها في شبه تكتل تلقائي ــ الا ان هذا التكتل لا ينطبق عليه تماما المفهوم الكلاسيكي الذي توحيه لاذهاننا روح الحذر والخوف من الاعداء والخصوم ، وتؤثر على وجهتها مجموعة من العقد النفسانية التي يسببها هؤلاء الخصوم ــ فرق كبير بين ذلك ، وبين الحالة الماثلة في وجهة البلدان المحايدة ــ على الرغم مما يفصلها من اختلافات ومظاهر غموض وغيره ــ هذه الحالة التي تقوم على التلطيف من حدة الفراغ العالمي الناشيء عن الاحلاف ، والاسهام بذلك في التقليل من وطأة المركبات المزمنة عند المتكتلين ، والتأثير بالتالي على حظوظ العالم نحو السلام والاستقرار .

وباعتبار آخر فهناك فرق آخر مهم بين هؤلاء الذين تشدهم الى بعضهم احيانا معاهدات تكتلية شديدة الوطأة والالزام تضيق احيانا حتى لا تترك لهم الكثير من فرص العمل الدولي وحرية الاختيار المبدئي ، وبين هؤلاء المحايدين الذين لا تتحكم في وجهتهم معاهدة حيادية خاصة ، ولا تقيد ارادتهم مقتضيات تكتلية ضيقة ، وانما الذي يحدد علاقتهم مع بعضهم ومع العالم ، هو الرغبة الملحة في التفاهم والتعاون والحرص الشديد على تمديد رقعة التقارب الدولي ، وتكثير فرص السلام والتقدم على الصعيد الانساني العالمي .

وعلى كل ، فان على الجماعة الحيادية الدولية ان تحقق القدر الكافي من التناسق فيما بينها سواء في الافكار او المواقف ، وذلك من اجل مواجهة التحديات العالمية التي تتوالى باستمرار ، ومجابهة الحقائق المذهلة التي ما يبرح التطور العالمي يحدثها بدون توان او انقطاع ، وهذا التناسق ــ الذي يختلف عن طبيعة التكتل داخل الاحلاف ــ ليس من شأنه الا ان يساعد على تركيز فاعلية الحياد الايجابي في مجتمعنا العالمي الراهن ، ويضمن للعقيدة الحيادية مجالا اوسع للمساهمة من اجل السلام والتعايش والتقدم .

سلا : المهدي البرجالي



السياسة الدولية بين سنتي 1901 و 1907

ترجمة الأستاذ عبد الحميد غيس

- 3 -

عند ما استقر الوضع الديبلوماسي الجديد (بين سنتي 1902 و 1904)، وصار الاتفاقان الفرنسي ــ الايطالي والاتفاق الفرنسي ــ الانجليزي ــ وهذا الاخير يختلف في الاهمية عن الاول اختلافا كبيرا ــ نافذي المفعول، اصبح زمام المبادرة في الحالتين معا رهينا بالسياسة الفرنسية، وبعبارة اخرى بسياسة دبلكاسه (Delcassé). وموضع التساؤل هنا هو: هل حدد دبلكاسه أهدافه منذ ان تقلد مهام وزارة الخارجية اولا ؟ (*). الشيء الثابت ان برنامجه في سنة 1902 كان واضح المعالم ثابت الاركان، اذ كان يهدف من وراء هذه السياسة الى زعزعة الحلف الثلاثي والتخفيف من حدة الخلافات الاستعمارية بين انكلترا وفرنسا حتى يتعزز مركز فرنسا في أوروبا. كان دبلكاسه مطلق اليد في توجيه السياسة الخارجية الفرنسية حيث ان الحكومات التي شاركت فيها كانت تهتم اولا وقبل كل شيء بالقضايا الداخلية، ومن حسن حظه ان سفراء بارزين من امثال بارير (Barrère) في روما، وبول كامبون في لندن كانوا يساعدونه. تلكم اذن حالة نموذجية للدور الذي قد يلعبه الاشخاص في التاريخ، ولما قد يكون لهؤلاء من مميزات، وقدرة على فهم المشاكل الوطنية. ولكن ينبغي الا نغمط الرأي العام حقه ــ وعلى الاقل بالنسبة للعلاقات مع بريطانيا العظمى ــ فهذا الرأي العام هو الذي ساند سياسة دبلكاسه، اولم تعرب جل الصحف في سنة 1901 عن املها في «تسوية» الصعوبات بين فرنسا وانكلترا ؟ ولعلها ارسلت هذه الصيحة بعدما رات بوادر ابرام حلف بين انكلترا والمانيا، ثم ان اصحاب التصدير في سنة 1902 قد اوجسوا خيفة من نجاح انكلترا في برنامجها الرامي الى حماية مصنوعاتها، فراوا في التقارب السياسي بين البلدين وسيلة للحصول على تخفيضات في التسعير الجمركي الانكليزي، وهنالك ما هو اهم الا وهو زعماء «الحزب الاستعماري». فهؤلاء كانوا في سنة 1898 من الد اعداء التفاوض مع انكلترا فاصبحوا في هذا الوقت من دعاة هذه السياسة.

انها احوال مواتية لنجاح هذه السياسة الجديدة

ولكن لما ذا فكرت كل من بريطانيا العظمى وايطاليا في تقارب من فرنسا ؟

اظهرت الحكومة البريطانية كثيرا من البطء في اعارة الاذن الصاغية لعروض دبلكاسه: فهذه العروض قدمت في غشت 1902 ولم تفتح المفاوضات حولها في الحقيقة الا بعد مرور سنة كاملة على هذا التاريخ. فقد اظهر اعضاء الحكومة، وبالاحرى بلفور، خلف سالسبوري، وابن اخته، كثيرا من التحفظ. ولا يمكن في الوقت الراهن معرفة تفاصيل المداولات التي

(*) منذ سنة 1879، اي حينما كان محررا في جريدة غامبيتا واسمها «الجمهورية الفرنسية» كان يلح في مقالاته على فكرة «اعادة النظر في خريطة اوربا»، كما كان يدعو الى التعاون مع انكلترا لقهر المانيا. الا ان الملاحظات التاريخية تبين شيئا من التناقض في هذا الاتجاه، لا سيما في سنة 1901 حينما اراد وهو وزير للخارجية، ان يقدم عونا لروسيا ضدا على انكلترا.

(المترجم)

جرت في المجلس الوزاري . على ان السبب الرئيسي الذي ادى الى تسوية الخلافات الاستعمارية الفرنسية ـ الانكليزية ، هو الفشل الذي منيت به محاولة ابرام حلف انكليزي ـ الماني . كان جوزيف تشامبرلان من اول المتحمسين لمشروع هذا الحلف ؛ ثم ما لبث بعد ذلك ان اضحى من اول الدعاة الى حل آخر ؛ وصرح في دجنبر 1902 لقنصل فرنسا بالقاهرة بان انكلترا اصبحت ملزمة بالعدول عن سياسة العزلة ، وانها فكرت في وفاق مع المانيا فاخفقت دون ذلك ، وانها ترغب والحالة هذه في الحصول على صداقة فرنسا . وللدخول في المفاوضات كان ينبغي الابتداء « بتبادل العرابين » لا شك ان تجربة حرب جنوب افريقيا ، تلك التجربة التي دلت على ضعف الوسائل العسكرية البريطانية ، كانت عاملا في هذا التحول . وقد كتب عنها القائم بالاعمال الفرنسي فقال : « بانها بداية التعقل » . ثم ان انشاء الاسطول الحربي الالماني كان يقلق بال الحكومة والامبرالية معا ؛ ولم يتخذ قرار انشاء قاعدة بحرية كبرى على الضفة الشرقية من ايكوسيا الا في اكتوبر 1902 .

وما من ريب في ان حالة الراي العام الذي اظهر ازاء المانيا حذرا شديدا سهلت هذا التطور الطارىء على السياسة البريطانية ؛ فقد اشارت الصحف الى المنافسة التجارية ، وابدت بعض التخوفات ازاء قضية سكة حديد بغداد (※) ؛ بل ذهبت الى القول بان السياسة الالمانية ارادت اثناء حوادث فنيزويلا ، ان تقحم بريطانيا العظمى في طريق خطير ، فتحدث بذلك غيوما في سماء العلاقات البريطانية ـ الامريكية . ان هذه « القطعية المعنوية » لمن الاهمية بمكان .

الى جانب هذه التيارات التي ظهرت في الراي العام ، وبالاضافة الى الشواغل التي برزت عند رجال الحكم هل ينبغي ان ينضاف العامل المادي في تعليل هذا التطور ؟ ان ميزانية بريطانيا العظمى وعملتها قد اجتازتا في اعقاب حرب جنوب افريقية صعوبات جمة ، فاضحت لاول مرة منذ مائة وخمسين عاما مضطرة الى اجراء قروض خارجية ، وكانت في حاجة دخول الى رؤوس الاموال واغلبية هذه الاموال من فرنسا .

ان ايجاد علاقة بين المساعدة المقدمة من لدن السوق المالية الفرنسية لبريطانيا العظمى وبين التفاوض حول ابرام اتفاق سياسي ، لمن الفرضيات الباعثة على الاغراء . الا ان هذا الافتراض لا يقف صامدا امام تحري الوثائق . فالقروض الخارجية التي قدمتها الحكومة الانجليزية كانت في معظمها من الولايات المتحدة . ولم يكن التيار القوي لرؤوس الاموال الفرنسية التي توافدت على بريطانيا العظمى بقصد الاستثمار الا شيئا تلقائيا . ولعل الراسماليين الفرنسيين كان يغريهم ما يجدونه في سوق لوندرة من فائدة أكثر من التي تقدمها لهم باريس ، ولعلهم كانوا يعرضون عن فرنسا لما تفرضه هذه من ضرائب فادحة على الارباح . ان هذه العلاقات المالية لم تؤد الى ادنى تفاوض بين الحكومتين . ولم يتم التفاوض حول اتفاق موقت بين **بنك فرنسا وبنك انكلترا** الا بعد مرور سنة كاملة على ابرام اتفاقات 8 ابريل 1904 ؛ ثم ان هذا المشروع نفسه قد اقبر فيما بعد وبقي حبرا على ورق

※ ※ ※

ولقد بدا الاتجاه الجديد للسياسة الخارجية الايطالية يظهر اعتبارا من سنة 1896 اي منذ الهزيمة التي منيت بها ايطاليا في الحبشة وما تبع ذلك من سقوط كريسبي ((Crispi)) . ان ايطاليا وقد فشلت في افريقيا الشرقية ، لم تعد تتجه بانظارها الا لطرابلس الغرب . ورات في هذه البلاد ميدانا خصبا للتوسع الاستعماري ؛ ولهذه الغاية كانت ايطاليا في حاجة الى التاكد من حسن نية فرنسا . ولهذا السبب قبلت في شتنبر 1896 بأن تعترف ضمنيا بالحماية الفرنسية على تونس ، شريطة الحصول على ضمان الامتيازات التي كان الباي قد خولها منذ سنة 1868 للايطاليين المقيمين في هذه البلاد . ولهذا السبب كذلك وضعت في نونمبر 1898 حدا «للحرب الجمركية» التي ظلت قائمة بين البلدين عشر سنوات ، تلك الحرب التي انزلت في الحقيقة بالاقتصاد الايطالي خسارات افدح من التي لحقت بالاقتصاد الفرنسي . وهكذا تلقت ايطاليا في دجنبر 1900 تاكيدا من الحكومة

※ كانت العراق في هذه الفترة خاضعة للدولة العثمانية ، وبناء على ذلك خول السلطان لالمانيا في سنة 1903 امتياز مد شبكة حديدية في معظم بلاد الاناضول وما بين النهرين ، واهم خطوط هذه الشبكة الخط الحديدي الذي سيربط البوسفور ببغداد ثم الخليج العربي (المترجم)

الفرنسية بان هذه سوف لا تسعى في « بسط نفوذها » على طرابلس ؛ والمقابل هو عدم عرقلة العمل الذي قد تقوم به فرنسا في المغرب الاقصى . وفي الجملة كان يهدف هذا « الانفراج » الفرنسي ـ الايطالي الى وضع حد للتنافس الاستعماري بين البلدين وذلك بتقاسم مناطق النفوذ .

بيد ان الحكومة الايطالية لم تقف عند هذا الحد بل سلكت في سنة 1902 طريقا ادى بها الى ابرام اتفاق سياسي . كان الملك عما نويل الثالث ، وقد اعتلى العرش بعد مقتل هومبيرت (Humbert) ، يأمل في هذا التقارب مع فرنسا ، وهدفه من ذلك الحصول على « استقلال اكثر » ، ازاء كل من المانيا والنمسا ؛ وكان يشاطره هذا الراي رئيس الوزراء زانارديلي (Zanardilli) الذي ظل يحتفظ منذ ان كان زعيما لحزب البعث الايطالي بعواطف مناوئة للنمساويين ؛ فقد كان يقول : ان ايطاليا ترغب في القيام بعملية تحويل في الدخل ولا يمكن ان يتاتى لها ذلك الا بالاعتماد على السوق المالية الفرنسية ؛ الا ان الحكومة الفرنسية لم تكن مستعدة لقبول قيمة الاسناد المالية الا اذا قدمت لها ايطاليا تاكيدات سياسية . تلكم ، فيما يؤخذ من البحث التاريخي في حالته الراهنة ، الدوافع الاساسية التي جعلت الحكومة الايطالية (تترجم) ما تعهدت به كتابة في معاهدتها مع المانيا .

عندما اقدمت كل من ايطاليا وبريطانيا العظمى على ابرام هذه الاتفاقات ، لم يكن لهما مع ذلك نية في الاشتراك في « نظام مناوىء لالمانيا » ؛ فلم ترغب الحكومة الايطالية في العدول عن الحلف الثلاثي لانها كانت تخشى الوقوع في « احضان التبعية لفرنسا » ، كما كانت تخاف من اضاعة الفرصة التي قد تكسبها من تحكيم المانيا ، اذا ما حدث نزاع ايطالي نمساوي . ثم انها كانت بحاجة قصوى الى السوق الالمانية التي كانت بمثابة منفذ لمنتجاتها الزراعية .

اما الحكومة الانجليزية فلم تكن تجهل ، اثناء التوقيع على اتفاقات 8 ابريل 1904 ، بان دلكاسه كان يقصد « ابقاء المانيا بعيدة » عن تسوية القضية المغربية ، ولهذا التزمت جانب الحذر من اجل المستقبل ولم تتعهدلفرنسا في هذهالقضية الا **بالسند الديلوماسي** انها لم تفكر في تحالف فما بالك باتفاق عسكري بري او بحري . ولكن بامكان المرء ان يطرح هذا السؤال : الم يخطر ببال الذين قاموا بالتقارب ، من امثال بلفورولا نسدوون ، ان هذا العمل في حد ذاته قد يصبح مقدمة لخطوات اخرى من شانها ان تبعدهم عن الهدف الذي توخي في اول الامر ؟ يظهر من كتابات المؤرخين الانجليز ان رجال الدولة الانجليزية في قضية « تبادل » مصر بالمغرب قد استسلموا للحوادث دون سابق حساب ، ودون امعان عميق . الا ان الشيء الذي لا يقبل الجدل ان فرنسا لم تستطع ان تتاكد من عون مسلح انجليزي ولا حتى من حياد ايطالي ، اذا ما حدث بينها وبين المانيا نزاع : وكل ما كانت تعول عليه هو احتمال حدوث هذه الامور . وهذه النتائج نفسها قد تصطدم بالتطاحن الروسي الانجليزي في مسالة الشرق الاقصى، هذا التطاحن الذي ازداد حدة اعتبارا من سنة 1902 تاريخ ابرام التحالف الانجليزي ـ الياباني . اذ كيف سيكون في وسع فرنسا ـ اذا حدثت حرب روسية ـ يابانية ـ ان تفي بتعهداتها ازاء حليفتها روسيا وان تحافظ في نفس الوقت على صداقتها مع انجلترا حليفة اليابان ؟ ان دلكاسه كان مدركا تمام الادراك لهذهالازمة ومنذ خريف 1903 اعرب لبول كامبون عن رغبتهفي حمل روسيا وانجلترا على تصفية خلافاتها ؛ الا ان هذه الرغبة ظلت افلاطونية حيث انه سعى عبثا ، في يناير 1904 ، في ان يلعب دور الوسيط بين روسيا واليابان .

اما الحكومة الالمانية فانها ، بمجرد ابرام الوفاق الودي ، لم تخف حسرتها واخذت على دلكاسه كونه دفع بايطاليا في طريق « الرذيلة » . فما هو رد الفعل الذي قامت به المانيا ؟ ان النزاع الروسي ـ الياباني الذي من شانه ان يزعزع الحلف الفرنسي ـ الروسي ، وان يشل في رمشة عين فعاليته العسكرية قد فسح مجالات موانية للمبادرات الالمانية فما ذا ستفعل فرنسا ازاء تهديد ما ؟ لقد قام دلكاسه ـ وهذه نقطة ضعف في سياسته ـ بعمل منفرد دون ان تكون الوسائل العسكرية والحالة النفسية للبلاد موازية لسياسته هذه.

اذن كانت الحرب اليابانية ـ الروسية امتحانا عظيما للنظام الديبلوماسي الذي شيده دلكاسه . وفيها ظهرت كذلك نوايا السياسة الالمانية التي قررت ان تستغل هذه الحرب لعرقلة عمل فرنسا في الدولة العلوية. بيد ان الحكومة الالمانية باثارتها هذه المسالة كانت تهدف الى اشياء تتعدى بكثير الافق المغربي ؛ انها كانت تهدف ولا شك الى خدمة مصالحها الاقتصادية واكثر من ذلك اعتبارات الجاه والنفوذ . ومع ذلك كانت هذه العوامل ثانوية اذ ان المستشار بولوف قال في سنة 1905 : ان المملكة العلوية لا تمثل ، بالنسبة لمصالح المانيا العامة الا « مكانة ضئيلة جدا » . وهكذا فالاهداف مرتبطة

بالسياسة العامة الالمانية . واولها تفكيك الوفاق الودي الفرنسي الانجليزي : فلو تدخلت المانيا في القضية المغربية وفسرت لبريطانيا العظمى تفسيرا حرفيا التعهدات الديبلوماسية التي ابرمتها في 8 ابريل 1904، اظهر لفرنسا خطاها في الاعتماد على الصداقة الانجليزية وهذا ما سيجعل التقارب بين الدول العظمى الغربية عديم الجدوى . وثانيهما مرتبط بالمجالات التي فتحتها الحرب الروسية اليابانية : فقد ادركت حكومة القيصر منذ الهزائم الاولى التي منيت بها روسيا في منشوريا ، ان التحالف الانجليزي ـ الياباني هو مصدر كل متاعبها؛ فكانت والحالة هذه غير راضية على فرنسا التي اخذت تتقارب من بريطانيا العظمى وقد اندلعت الحرب بالفعل. وهكذا سيصبح في وسع المانيا ان تستغل هذا التذمر لتعرض سندها على روسيا بمجرد ما تسنح بذلك اول فرصة ، فتصل بذلك الى زعزعة الحلف الفرنسي ـ الروسي بل الى تحطيمه ان اقتضى الحال . حقا ان الحكومة الفرنسية لو اضطرت للاختيار بين الصداقة الانجليزية والصداقة الروسية لفضلت بدون شك العدول عن الوفاق الودي لان الاسطول الانجليزي ـ كما قال غليوم الثاني ـ « غير قادر على حماية باريس » .

وفي حالة كهذه سيكون في امكان السياسة الالمانية ان تحصل على النتيجة الآتية : احلال « حلف قار » محل التحالف الفرنسي ـ الانجليزي ، وستضطر فرنسا الى الدخول في هذا الحلف الى جانب روسيا والمانيا دون ان يكون لها مكانة بارزة فيه .

والواقع ـ وهذا ما تؤيده الوثائق الديبلوماسية ـ ان هذه الاهداف السياسية هي التي ظلت ، طيلة الازمة الدولية ، تتحكم في اتجاه المبادرات الالمانية للوصول الى غايات متشابكة . ففي اكتوبر 1904 كان مشروع التدخل في القضية المغربية قد اعد بالفعل ولكن غليوم الثاني اجل تنفيذه بسبب وقوع حادث انجليزي ـ روسي في بحر الشمال ـ قضية دوجير بانك (*) ـ هذا الحادث الذي حدا به الى ان يعرض على القيصر ابرام حلف دفاعي . ولما فشلت المانيا في مسعاها هذا قررت ان تثير من جديد الجدال حول المغرب لتزعزع بذلك اركان الوفاق الودي ؛ ولكنها بعد سقوط ديلكاسه قررت ان تسلك سبيلا آخر ؛ واعتقد انها ستنجح في هذا السبيل حينما قبل القيصر ، وقد كان حسيرا من جراء الهزيمة العسكرية في منشوريا وبسبب تهديد الثوار ، بتاريخ 24 يوليوز 1905 قبل ان يوقع في بجوركيه (Björkoe) على معاهدة سرية تنص على اقامة تحالف دفاعي بين روسيا والمانيا ، على ان تدعى فرنسا للمشاركة في هذا الحلف وتكون بمثابة شريك ثانوي . وقد تصور بولوف في هذه الاونة ان يترك لفرنسا « حرية العمل في المغرب » مقابل انتسابها الى هذا الحلف القاري . وعندما جس نبض الحكومة الفرنسية في اكتوبر 1905 اجابت بانها لا تفكر تماما في هذا الاحتمال ، وعندئذ ادرك القيصر مدى ما سيرتكبه من طيش ان هو اقدم على تحطيم الحلف الفرنسي ـ الروسي ـ فعدل عن معاهدة ابجوركية ، ولم تلبث السياسة الالمانية ان ولت وجهها من جديد نحو القضية المغربية ، وكانت في هذه المرة تعنتا وعنادا .

فهل هذه مناورات ديبلوماسية كانت تبحث ـ على حد تعبير السفير الالماني « على الثانية عشرة زوالا في الساعة الثانية ؟ »

انها كذلك ما في ذلك من شك . ولكنها ليست باحداث بسيطة : فلو لم يكن بولوف مقتنعا بنجاح اساليبه لما ابعد فكرة الحرب الوقائية التي اقترحتها عليه اركان الحرب .

الا ان هذه السياسة الالمانية اخفقت اخفاقا ذريعا ؛ اذ ان الوفاق الودي لم يتزعزع بل تعزز جانبه. ففي يناير 1906 ، ومؤتمر الجزيرة الخضراء على الابواب ، بات حدوث حرب فرنسية المانية وكانه قريب الوقوع ، في هذا الوقت سمحت الحكومة الانجليزية بدون ان يكون في نيتها ان تلتزم مقدما بتعهد ثابت أو تحالف معين ، سمحت لاركان حربها ان تدرس مع اركان الحرب الفرنسية « اسس العمل العسكري الموحد » ؛ اذن فلاول مرة تفكر انجلترا في التدخل في حرب قارية : ان انحسار روسيا هو الذي دفعها الى ان تلقي بنفسها في الميزان لتعادل قوة الدولة الالمانية . وقد تعهدت اسبانيا بواسطة اتفاق 16 مايو 1907 بان لا تتخلى لالمانيا عن جزر الكناريا او الباليار ، ووعدت بان «توحد خطتها» مع فرنسا وبريطانيا العظمى اذا ما اصبح الوضع الراهن

(*) لما كانت البارجة الروسية سائرة في بحر البلطيق نحو الشرق الاقصى لمحت زورقا انجليزيا وظنت انه يريد بها سوءا فاطلقت النار عليه (المؤلف) .

فى البحر الابيض المتوسط او فى الشواطىء المغربية مهددا بالتغيير . ثم ان التحالف الفرنسي ـ الروسي الذي تأثر جدا بمعاهدة ابجوركي ، ظل سائر المفعول ؛ حقا ان الفعالية الواقعية للاتفاق العسكري كانت محدودة جدا باعتبار ان الجيش الروسي باعتراف من رئيسه نفسه ، لم يكن قادرا على تعبئة « ما ينويه من الجنود » ـ لم يكن العدد معروفا بالضبط ـ الا فى امد طويل ؛ ولكن التضامن الديبلوماسي ظهر جليا فى مؤتمر الجزيرة حيث تلقى الوفد الروسي امرا بمساندة وجهة النظر الفرنسية ، مقابل الوعد بتقديم مساعدة مالية . الا ان نقطة الضعف فى نظام ديلكاسه الديبلوماسي ؛ ظلت قائمة : وهي ان الخلافات الانجليزية الروسية التي سويت فى الشرق الاقصى بما اسفرت عنه حرب منشوريا من نتائج هذه الخلافات لم تستوف آسيا الوسطى والشرق الادنى ؛ ولذلك عمدت بريطانيا العظمى عندما كانت بصدد تجديد معاهدة تحالفها مع اليابان ، فى شتنبر 1905 ، الى ادراج بند يتعلق بحماية الهند .

اما وان الحكومة البريطانية وطدت العزم فى الاخير على ان تتقارب مع روسيا ، فتلكم كانت المبادرة الاساسية . فلماذا فكرت فيها بريطانيا وكيف نجحت فى هذا المسعى ؟

فى لوندرة كانت شواغل السياسة العامة هي المتحكمة فى توجيه هذا القرار . كان الامر يتعلق اولا بتعزيز جانب الوفاق الودي الفرنسي ـ الانجليزي ، وسيكتب عما قريب السيد ايدوارد (Edward Grey) ما نصه : « سوف لا نستطيع ان ننهج فى آن واحد سياسة التفاهم مع فرنسا وسياسة التصلب مع روسيا » فكان الوضع يدعو بالاحرى الى جعل حد لمحاولات المانيا فى ابرام حلف قاري : نعم علمت وزارة الخارجية البريطانية عن طريق الصدفة تقريبا ، ان غليوم الثاني كان يسعى اعتبارا من غشت 1905 فى ان ينشيء فى ابجوركية « تكتلا يضم المانيا وفرنسا وروسيا دون بريطانيا العظمى » ؛ وقد تلقت من مصدر فرنسي ما يؤكد هذا الخبر ليس من شك فى ان المحاولة باءت بالفشل الا انها قد تستانف عما قريب بين المانيا وروسيا ، على الاقل . ثم ان الوهن العسكري لروسيا كان لبضع سنين يفسح لالمانيا مجالات مواتية : ولهذا كان « الخطر الالماني » هو الشغل الشاغل ؛ وكانت بريطانيا العظمى اكثر الدول ادراكا لهذا الخطر فاخذت منذ مايو 1906 ترقب التطور الجديد الطارىء على برنامج انشاء السفن الحربية الالمانية . وفى 20 فبراير 1906 لاحظ غري فى مذكرة كتبها لنفسه ما يلي : « ان تفاهما بين روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى قد يتيح لنا الاطمئنان المطلق . فاذا كان من اللازم احباط مساعي المانيا فعلينا بهذا التفاهم » .

وفى بطر سبورغ حيث خلف الاسكندر ايزفولسكي (Isvolsky) فى مايو 1906 ، الكونت لامسدورف (Lamsdorff) فى مايو 1906 ، الكونت لامسدورف (البرلمان الروسي) ؛ اعتقد وزير الخارجية الجديد ان روسيا مدعوة ، بعد ان خابت آمالها فى آسيا الشرقية الى ان تسلك من جديد سياسة بلقانية بمجرد ما تصبح قادرة على ذلك . وستجد فى البلقان معارضة النمسا ـ هنغاريا ، فكان عليها والحالة هذه ان تبحث لنفسها عن دعامات ديبلوماسية . كان ايزوفولسكي يشعر بالحاجة الى تقوية الحلف الفرنسي ـ الروسي ، بيد انه بات يدرك كذلك انه لكي يصل الى هذه الغاية لابد له من السعي فى تقارب مع بريطانيا العظمى : والا تعرض الحلف من جديد للخطر آجلا او عاجلا من جراء الخلافات الانجليزية ـ الروسية : اذ قد تعمد المانيا ، لاستغلال هذه الفرصة ، فتسلك من جديد سياسة ابجوركية . كان هذا ايضا راي السفير الروسي بنكاندورف (Benckendorff) المعتمد فى لوندرة اذ قال : « ان التحالف مع فرنسا رهين الى حد كبير بعلاقاتنا مع انجلترا »

الا ان تحقيق هذا التقارب يستدعي ـ وهذا هو الشرط الاول ـ تراجع روسيا عن القيام باية مبادرة فى الشرق الادنى او آسيا الوسطى ، لان مبادرة من هذا القبيل معناها تعريض سلامة الهند للخطر . والحقيقة ان هذه التضحية امر لا مفر منه كيفما كانت الظروف طالما ان الجيش الروسي كان وقتئذ غير قادر على المجازفة بنزاع فى هذه المناطق مع بريطانيا العظمى . اذن فمن الاولى ان يسلم المرء بهذه الحقيقة الناصعة ثم يحاول ان يتفاوض حول هذا التراجع ليكسب منه اكثر ما يمكن كسبه . واخيرا ياتي عامل قلة الموارد المالية الروسية ويلعب دوره كذلك اذ كانت حكومة

القيصر تسعى في اجراء قرض من سوق لوندرا ، وبطبيعة الحال سوف لا توافق السياسة الانجليزية على تقديم هذه المساعدة المالية الا اذا ارادت روسيا ان تسوي الخلافات الآسيوية .

اذن فالشواغل الاوروبية هي التي هيمنت على هذه المفاوضات التي اسفرت عن اتفاق 30 غشت 1907 . . ياتي في المقام الثاني الرغبة في المحافظة على سلامة الهند . ولم تتردد الحكومة البريطانية في اخضاع طرف من مصالحها الاقتصادية في فارس ، لهذه المقاصد السياسية ؛ وعبثا حاول نائب الملك في الهند ان يحصل في هذه البلاد على « رقعة اكبر من اجل التوسع التجاري » وعبثا كذلك لاحظ الوزير الانجليزي في طهران ان منطقة النفوذ المخصصة لبريطانيا « لا تكفيها للتوسع الاقتصادي » . وبالرغم من ان الراي العام كان يعرف ان الاتفاق حول فارس — هذا الاتفاق الذي اعتبر وكانه « مساومة مجردة من اية قيمة » — امرا قابلا للاخذ والرد ، الا انه اعرب عن ارتياحه لهذه الخطوة التي قد تكون مقدمة لتفاهم انجليزي روسي على الصعيد السياسي العام .

ما هي اهمية هذه السنوات القليلة والمليئة بالاحداث بالنسبة لتطور العلاقات الدولية ؟

فهل يعتبر « التكتل » الذي اصبح قائما بين الدول العظمى ابرز ظاهرة مميزة لهذه الفترة ؟ كلا ؛ فلهذه الظاهرة قيمتها من حيث دلالتها فقط . لان بريطانيا العظمى كانت تأبى على نفسها أن تلتزم بأي عهد من شانه ان يحول الوفاق الودي الى تحالف : فقد قال السير ايدوارد غري بكل وضوح في يناير 1906 بانه رفض عن وعي وبرودة دم « الالتزام بتعهد ما . . . قبل ان تعرف اسباب النزاع او تكون هذه الاسباب قد بدات تظهر » . اما ما يخص الانجليز والروس فان الاتفاق المبرم بينهما لم يكن يتضمن ادنى وعد على صعيد السياسة العامة ؛ بل ان هذا الاتفاق ترك الباب مفتوحا على مصراعيه فيما يرجع للقضية الاساسية الا وهي **المضايق العثمانية** : وعبثا حاول ايزفولسكي ان يحصل على وعد بمراجعة الاتفاقية الدولية لسنة 1841 (*) اذن فالوفاق الثلاثي لم يكن الا بمثابة الخطوط الاولى التي ترسم للصورة ، لا الصورة ذاتها . وقد لاحظ السير ايدوارد غري ان « تكتل فرنسا — انجلترا — وروسيا ضعيف البنيان » وكان يعتقد ان ليس في الامكان تعزيزه بسرعة .

ان التبدل الطارىء على النفسية الجماعية هو الذي يهم اكثر من غيره . اذ بعد ابرام الاتفاق الانجليزي — الروسي نبهت الصحافة الالمانية الى حالة « التطويق » التي اصابت المانيا . ولم يكن جمهور من الرأي العام في بريطانيا العظمى ، بل وفي فرنسا كذلك ، لينسوا ان المانيا اثناء ازمة 1905 — 1906 قد لجات الى وسائل التهديد وتصرفت وكأنها تريد القيام بالحرب ؛ كانت الرغبة اذن تجنح الى اقامة حاجز دون المطامح الالمانية ، بالرغم من ان بعض المفكرين من امثال هانوتو (*) ، ظلوا يندبون هذه الرغبة . وهذه الحالة النفسية نتجت عن الانتصارات التي حققها ديلكاسه في 1902 و 1904 ، وبوجه خاص نتجت عن الاساليب التي لجات اليها الحكومة الالمانية في سبيل فصم عرى الوفاق الودي والتحالف الفرنسي — الروسي ، تلك الاساليب التي اعطت نتائج عكسية بمعنى انها عززت جانب هذه الاحلاف بدلا من ان تحطمها .

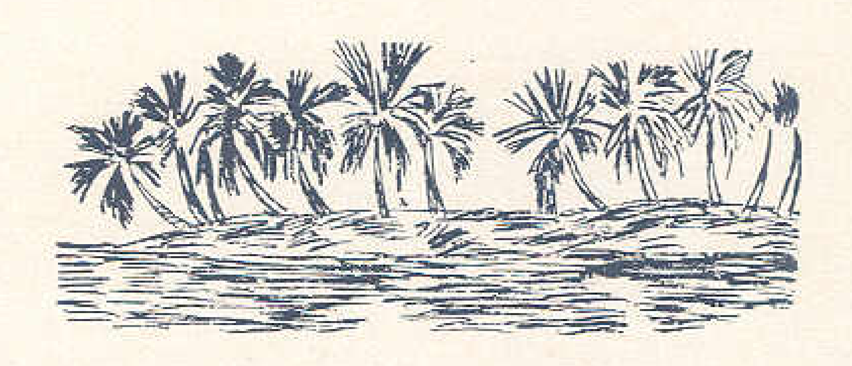
ولو تمحصنا هذه السلسلة من الاحلاف ، لوجدنا ان اسبابها الاساسية راجعة الى **الاهتمام بأمن** الدولة ، والرغبة في الجاه ، وارادة العظمة .

(*) يمنع احد بنود هذه الاتفاقية الدولية التي عقدت في لندن على جميع السفن الحربية ان تمر في هذه المضائق . وكان هذا التحريم ماسا بمصالح روسيا في المقام الاول لان السفن الحربية الروسية هي التي تحتاج المرور من البحر الاسود عبر المضائق الى البحر الابيض المتوسط . وبعبارة اخرى جعل هذا البند روسيا « سجينة البحر الاسود» (المترجم)

(*) كان هانوتو الوزير الفرنسي في 1896 من القائلين بالتعاون الصادق مع المانيا ، وكان يؤمن بصلاحية اقامة حلف قاري لمقاومة بريطانيا العظمى في الميدان الاستعماري . (المترجم)

لا شك ان تناقض المصالح المادية كان عاملا مساهما فى تنمية الاحقاد والمشاحنات . ولكن ما هي الاهمية الملموسة التي كانت لهذا التناقض فى المصالح اذا ما نظرنا الى المسألة من زاوية المنازعات الدولية ؟ ففي خارج اوروبا ، فى المناطق التي تصادمت فيها المصالح الاقتصادية ، سويت هذه المنازعات باوساط الحلول . اجل ابدت الحكومة البريطانية استعدادها ، بين سنتي 1905 و 1907 ، — كما لاحظ المؤرخ الانجليزي المحقق أ. تايلور (A. Taylor) — « لمنح امتيازات خارج اوروبا لتمتين التوازن الدولي » : وهكذا ضحت فى قضايا فارس بالشواغل التجارية والمالية فى سبيل الاهداف الدفاعية والسياسية . واذا أدى اصطدام التوسيعات الاستعمارية الى حدوث « تكتلات سياسية جديدة » فلا يمكن اعتبار هذا الاصطدام والحالة هذه ، سببا فى هذه التكتلات . اما فى اروبا ، فلئن لجات الحكومات الى استخدام « السلاح » الاقتصادي والمالي كما فعلت فرنسا فى اتفاقها مع ايطاليا وفى تجديد اتفاقها مع روسيا وكما فعلت بريطانيا العظمى فى تهيىء الجو لاتفاق 1907 ، الا ان عامل الاقتصاد والمالية فى احوال كهذه ما كان أبدا محركا للعمل السياسي وانما كان اداة له . **والواقع ان المصالح السياسية هي** التي كانت في سائر الاوقات الحرجة العامل الحاسم سواء تعلق الامر بايطاليا سنة 1902 ، او ببريطانيا العظمى في 1904 و 1907 ، او بالمانيا سنة 1905 .

مكناس : عبد الحق بنيس



هل يدعو تكاثر السكان إلى تحديد النسل

للأستاذ عبد اللطيف خالص

اصدرت أكاديمية العلوم الوطنية بالولايات المتحدة تقريرا خطيرا حول تكاثر سكان العالم ؛ ويتجلى من هذا التقرير الذي تبلغ صفحاته خمسة وثلاثين ونيف والذي وقعه عدد من كبار الاساتذة والعلماء والمهتمين بهذا الموضوع ، ان نسبة الزيادة في سكان العالم تبلغ اثنين في المائة كل سنة واذا ما استمرت هذه النسبة فان عدد سكان العالم سيتضاعف بعد خمس وثلاثين سنة ؛ وبما ان مجموع سكان العالم يبلغ اليوم ثلاثة ملايير نسمة فان عدد سكان المعمور سيصبح في سنة 2000 ستة ملايير وفي سنة 2070 سيكون مجموع سكان العالم حوالي 25 مليارا . . .

وقد أحدث هذا التقرير ضجة عظمى في الرأي العام بالولايات المتحدة الامريكية نظرا لمكانة الاكاديمية الوطنية للعلوم وقيمة العلماء الديمغرافيين والاساتذة الذين وقعوا هذا التقرير .

ومن الطبيعي ان يحدث هذا التقرير ضجة في اوساط الشعب الامريكي نظرا لارتفاع عدد سكان الولايات المتحدة نفسها من جهة ودور القيادة الذي تلعبه امريكا في العالم المسمى « بالحر » والمجهودات التي تبذلها حكومة الولايات المتحدة للقضاء على المجاعة والبطالة في عدد من الاقطار المتخلفة خشية من انتشار الشيوعية فيها من جهة أخرى ؛ والواقع ان هذه الحقائق المرة التي أعلنها التقرير لا تخص الولايات المتحدة وحدها ولكنها تهم العالم اجمع لان خطر تكاثر السكان يهدد العالم ويضر بالمجتمع ؛ فزيادة سكان العالم تتطلب زيادة في التغذية كما تدعو الى تعجيز كل نشاط اقتصادي وكل ازدهار صناعي لانها تجعل المسؤولين في حكومات البلاد المتخلفة والدول النامية المتعددة امام صعوبات لا قبل لهم بها وتبعات لا يستطيعون القيام بها بل وحتى مواجهتها .

وليس غريبا عنا الوقوف على أسباب تزايد السكان في العالم بهذه الصفة المستعجلة خصوصا في الاقطار المتخلفة او البلدان التي هي في طريق التقدم والتطور كما يعبر عنها .

فاجل هذه الاسباب واعظمها استمرار الولادة التي لم تضعف ولم تنقص في الاقطار المتخلفة بينما توقفت الوفيات بفضل التطورات التي عرفها الطب الحديث والمساعدة الطبية التي تقدمها الدول الصناعية الى هذه الشعوب فقد كانت الامراض والاوبئة متفشية في هذه الاقطار لما كانت منعزلة عن العالم منكمشة في حدودها بل وفي قارتها ولكن لما بدأ احتكاك هذه الشعوب بالحضارة الجديدة اخذت الدول الصناعية تمد الدول المتخلفة بالادوية وتنظم بها حملات التلقيح وابعاد الامراض فتسبب عن ذلك بطبيعة الحال استمرار الولادة ومحافظتها على نسبتها المرتفعة المهولة بينما تقلص ظل الموت وضعفت اخطاره وابتعدت اضراره ؛ واذا أضفنا الى هذه الحقائق ان المستوى الاقتصادي في هذه البلاد لا زال يسمح للاجيال الجديدة بالاكتفاء بحياة بسيطة لا تكاليف فيها ادركنا سبب اهمالها لتحديد النسل ؛ فما دام الطفل لا يتطلب عناية خاصة ، وما دامت الدول الاجنبية تمد يدها لعلاجه وتعهده فلا داعي للوالدين لتحديد النسل وعدم اكثار الاولاد خصوصا والدول المتخلفة تعتمد على الاطفال في مساعدة الوالدين في عملهما اليومي .

وقد جاء في هذا التقرير الخطير كذلك ان هذه الزيادة في السكان لا يمكن ان تنسجم ابدا مع السير الحالي للتطور الاقتصادي الحديث ولو كان الشيطان لرجال الاقتصاد ظهيرا لانها تعدو تطور كل تقدم اقتصادي وتفوق مجرى اي ازدهار صناعي ويرى أصحاب التقرير ان زيادة سكان الكرة الارضية بهذه النسبة يعتبر عبئا ثقيلا يتنافى والمجهودات المبذولة لتحسين حالة المخلوقات الموجودة حاليا وتطور البشرية جمعاء .

تلك اهم الاستنتاجات التي توصل اليها هؤلاء العلماء الديمغرافيون بالولايات المتحدة الامريكية وهي تعطينا اضواءا واضحة على الاخطار التي تهدد البشرية من جراء تزايد سكان المعمور ؛ ونحن ندرك ما تقوم به عدد من المنظمات الاجتماعية في مختلف الاقطار في سبيل حصر هذا الداء الفتاك كما نقدر الاعمال الجليلة التي تقوم بها مختلف الهيئات الدولية لسد هذا التيار المهول الذي سيؤدي اذا لم يتدارك في حينه الى عدم الاستقرار في العالم من جهة والى انهيار كل تطور وازدهار من جهة ثانية .

وسوف لا يشعر القراء بهذه الآفة الخطيرة الشريرة الا اذا علموا أن أزيد من نصف سكان المعمور يموتون اليوم جوعا وان خطر المجاعة لحق بمليار وخمسمائة ومليون نسمة وقد قامت منظمة التغذية والفلاحة الدولية بتنظيم أسبوع للقضاء على المجاعة في العالم ومحاربة اخطارها في مختلف انحاء المعمور وقد نظم المغرب بدوره اسبوعا للقضاء على المجاعة ابتداء في 21 مارس من السنة الجارية وانتهى في 28 منه ؛ وكان الفرض من تنظيم هذا الاسبوع الوصول الى هدفين اثنين :

أولهمـــا :

اشعار البشرية بمشاكل المجاعة والتغذية السيئة التي تقض مضجع أزيد من نصف سكان المعمور والتي تشكل خطرا دائما على الامن والتطور في العالم بالاضافة الى الآلام التي تحدثها للمحتاجين وذوي الفاقة .

ثانيهمـــا :

تهييء جو ملائم ليتدارس الناس الحلول الناجعة التي يمكن ان يتوصل بواسطتها الى محاربة المجاعة في الميدانين الوطني والدولي .

ومن الطبيعي ان الانسان لا يستطيع اذا كان جائعا او متناولا لتغذية سيئة أن يباشر أي عمل من الاعمال مهما صغر كما انه لا يستطيع في هذه الحالة أن يستفيد من عمله اذا عمل .

وقد استطاع العلم الحديث ان يخترع الذرة ويصرفها حسب أهوائه ومناه كما توصل الى ارسال انسان الى الفضاء ومكن هذا الفرد من الاتصال بالارض وهو في الجو كما امكن للعلم الحديث بفضل تطوره وتقدمه ان يقضي على الامراض التي كانت الى عهد قريب معدية فتاكة تقضي على العائلات بأسرها بل وتحطم القرى والمدن باكملها ولكنه ويا للاسف لم يستطع حتى الآن ان ينجي الانسان من الموت جوعا فما زال نصف العالم يموت جوعا وما زالت البشرية تعيش ويلات المجاعة والسبب يرجع في كل هذا الى ارتفاع سكان العالم والنقص الحاصل في الانتاج الزراعـي .

فما دامت البشرية عاجزة عن تحقيق هذا التوازن المنشود بين زيادة السكان ونقصان الانتاج فان خطر تزايد السكان سيكون عظيما ونتائجه وخيمة وضرره وبيلا . فما هو الحل الممكن لحصول هذا التوازن ؟ وهل اكتفى العلماء الديمغرافيون الامريكيون بذكر هذه الاستنتاجات دون تعداد الحلول الكفيلة بوضع حد لتزايد سكان العالم ؟ وما هي هذه الحلول اذن ؟ قبل التعرض الى الاجابة على هذه الاسئلة اود ان أؤكد ان من واجب البشرية جمعاء ان تجعل حدا لهذا الضغط البشري وهذا التيار الديمغرافي الذي يعرقل كل تطور اقتصادي . فالبشرية لا تتوفر على وسائل الاستثمار الكافية وطرق الاستغلال الكفيلة باطعام ضعف سكان العالم بعد ثلاثين سنة لان وسائلها محدودة وطرقها دقيقة ، وليس في استطاعة الانسانية ان تفر من عواقب هذه الزيادة في عدد سكان المعمور التي ستصبح بعد حين عبئا لا يحتمل وتبعة لا يستطيع مواجهتا احد . ومما لا شك فيه ان من دواعي التحسر أن يقف العلم الحديث رغم تطوره وتقدمه العظيمين مشدوها عاجزا امام هذه الظاهرة الغريبة فما هو العمـــل ؟

لقد ارتأت اكاديمية العلوم الوطنية بالولايات المتحدة الامريكية مجموعة من الحلول تتلخص في اللجوء الى تحديد النسل لانها رات ان احسن حل لحصر هذا التيار العارم رغم ما يتضمنه هذا الحل من صعوبات جمة وما ينطوي عليه من مشاكل عويصة ذلك ان تحديد النسل نفسه مشكل صعب يتطلب تمرينا خاصا وتكوينا صحيحا ويستدعي اللجوء الى وسائل صعبة وطرق متشعبة لذلك سوف لا نستغرب اذا راينا الاكاديمية الوطنية للعلوم تضع برنامجا مستعجلا يتضمن خمس نقط مهمة هي :

1) ــ تطور البحث الطبي النباتي حتى يتوصل الى انجع الوسائل الكفيلة بالوصول لهذه الغاية .

2) ــ القيام باشهار المعلومات المتعلقة بالموضوع بين الشعوب وتوزيع الوسائل الوقائية وسط المجتمعات.

3) ــ تكوين عدد مهم من الموظفين من رجال العلم والادارة يعهد اليهم بتحقيق هذين الهدفين الاولين حتى يسهل تعميمهما بين مختلف الشعوب والقارات .

4) ــ انشاء لجنة خاصة داخل اكاديمية العلوم الوطنية لتنسيق هذه الاعمال والدعوة اليها .

5) ــ القيام بدعاية كبرى لتشيع بين الناس الوسائل التقنية لتحديد النسل .

تلك اهم الوسائل التي اعلنتها الاكاديمية الوطنية للعلوم كمرحلة اولى للفت انظار العالم الى ما قد يحف به من الاخطار وما قد يتعرض له من الاضرار . وقد ادركت الاكاديمية ان هذه الوسائل ستلاقي في تطبيقها معارضة شديدة ومقاومة قوية من طرف الهيئات الاجتماعية والمنظمات السياسية التي تتمتع بنفوذ كبير وقوة تأثير شديدة في كثير من الاقطار؛ فيرى الكثير من هذه الهيئات ان تحديد النسل لا يجوز من الناحية الاخلاقية ولا يتفق وابسط المعتقدات الدينية لانه وأد خفي تعاقب عليه الاديان السماوية كما ان الاوساط الرجعية ستثور في وجه هذا التقرير مدعية انه لا داعي لتعميم هذا الاجراء في كل مكان وان الافضل حصره في الاجزاء المضطرة اليه من الكرة الارضية ،

ومن الغريب ان لا تسمح مثل هذه المنظمات بالقيام بتنظيم حملات لتحديد النسل والاغرب منه ان تعتمد في ذلك على آراء عقيمة واحكام سقيمة .

وقد اعتبرت الاكاديمية الوطنية للعلوم كل هذا وقررت مواجهة الامر مهما كانت العواقب فنشرت تقريرها واتخذت القرار بتوزيعه والدعاية له حتى يصل الى جميع اركان المعمور متحدية بذلك كل مقاومة مهما كلفها ذلك من ثمن . وقد وجهت هذا التقرير تحت عنوان : (تقرير الى الشعب) لتصبغه بصبغة الخطورة كما اشارت الى ان المشاكل التي يحدثها تكاثر الولادة وتزايد البشر في الارض تكتسي صبغة سياسة زيادة على الصبغة الاقتصادية والاجتماعية ، وقد جاء في خاتمة التقرير ما مفاده : « ليست هناك اية مشكلة تتطلب الحل السريع عدا تحقيق سلم دائم في العالم كقضية مراقبة الولادة وتحديد النسل » .
أشرنا في مقدمة هذا المقال الى ان تقرير اكاديمية العلوم احدث ضجة مهمة في اوساط الشعب الامريكي حيث اهتم به مختلف العلماء واولته الاهمية اللائقة به جميع الهيئات الاجتماعية والمنظمات السياسية ، ومما يدل على اهتمام الشعب الامريكي بهذه القضية ان صدور هذا التقرير صادف صدور كتاب مهم في هذا الموضوع لاحد أساتذة جامعة هارفارد تحت عنوان : **«لقد حان الوقت مقترحات طبيب كاثوليكي لانهاء معركة مراقبة الولادة »** ويدل العنوان وحده على ان مؤلف الكتاب وهو الاستاذ جون روك يريد ان يقحم المسيحية الكاثوليكية في هذا الميدان حتى لا تبقى الكاثوليكية شبحا مخيفا يتقيه عامة الناس وتخشاه العلماء بوجه اخص . لقد قبل هذا الاستاذ الكاثوليكي والطبيب المسيحي مبدا استعمال الوسائل الوقائية من الولادة مخالفا في ذلك جميع اصدقائه وزملائه الذين يحترمون الدين المسيحي الذي لا يسمح باستعمال مثل هذه الوسائل .

واذا كنا اشرنا الى ان اكاديمية العلوم قد اعترفت بمعارضة المنظمات الاجتماعية والهيئات السياسية والطوائف الدينية للمقترحات الخاصة بتحديد النسل فان تخوف الاكاديمية الامريكية كان في محله اذ سرعان ما تعرض التقرير للنقد الذريع والمحاربة القوية وان كان صدور كتاب الطبيب الاستاذ الكاثوليكي جون روك قد حول نسبيا المعركة التي كان من الممكن ان تنشب بين اصحاب التقرير وقادة الهيئات الدينية والاجتماعية والسياسية حيث اصبحت المعركة قائمة بين الكنيسة الكاثوليكية واحد اتباعها .

فقد احتج الكردينال كوتينج أسقف بوسطون ضد مقترحات الاستاذ جون روك احد اتباع هذه الكنيسة وقد شاءت الاقدار الا ان يكون من بين اتباع هذه الكنيسة السيد جون كيندي رئيس الولايات المتحدة الامريكية .... لان وجود رئيس الولايات المتحدة جعل المعركة القائمة تكتسي صبغة سياسية قد تؤدي الى رفع القضية الى الشعب الامريكي ليقول فيها كلمته النهائيـــة .

وقد اصبحت الادارة الامريكية الحالية في حالة من الارتباك والحيرة لا مثيل لها لانها تعترف ان مسألة مراقبة الولادة تهم مختلف الحكومات ومن بينهما حكومة الولايات المتحدة ذلك ان المبالغ التي يتطلبها مشروع الاكاديمية الوطنية للقيام بحملتها العالمية لا يمكن ان تصدر الا من حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن اعداد مثل هذه المبالغ يتطلب موافقة الكونغريس الامريكي على ميزانية خاصة بذلك قد تدخل في اطار مساعدة الولايات المتحدة للاقطار الاجنبية او المنظمات الدولية كما ان عرض مشروع هذه الميزانية يحتوي ضمنيا على موافقة ادارة الرئيس كيندي على مبدأ استعمال الوسائل الوقائية كما ان موافقة الرئيس كيندي تعني وقوفه ضد الكنيسة الشيء الذي لا يرغب فيه كيندي ولا يفكر فيه لان وقوفه ضد الكنيسة سيؤدي الى غضب المصوتين الكاثوليكيين عليه وسيؤدي حتما الى سقوطه في الانتخابات المقبلة .

وخلافا لما قام به كيندي فقد ارتأى منافسه نيكسون ان يعرض قضية تحديد النسل على انظار الشعب الامريكي ليقول فيها كلمته متحديا بذلك الرئيس كيندي ورجال الكنيسة الكاثوليكية .

وهكذا سيتم التصويت لاول مرة في احدى الدول العظمى على مسألة اساسية تهم البشرية جمعاء .

وليس الذي يعنينا نحن من هذه القضية قيام معركة بين الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة كما انه ليس يعنينا تحول القضية من الميدان الاجتماعي الى الميدان السياسي ولكن الذي يعنينا هو الجانب الاجتماعي لانه يهم الانسانية بأسرها

لقد اصبح مشكل تكاثر سكان العالم حديث كل ناد وموضوع كلام كل مجمع ومحط انظار كل هيئة اجتماعية دولية او وطنية فمن الواجب ان نهتم نحن بدورنا بهذه القضية وان نعيرها ما تستحقه من الاهتمام ، وسيكون من خطل الراي ان نعتقد ان تكاثر السكان لا يهمنا نحن في البلاد الافريقية عموما وشمال افريقيا خصوصا والمغرب بوجه اخص لاننا لا زلنا نتوفر على اراضي شاسعة وبقاع واسعة لا يعمرها احد او يسكنها قليل من الناس وانما يهم اوروبا لانها لا تتسع لعدد السكان المتزايدين يوما عن يوم والذين اصبحت الارض تضيق بهم .

وقد ذكرت في اول هذا المقال ان الامر يتعلق بضرورة ايجاد توازن بين كل توسع ديموغرافي وتطور اقتصادي ، وسوف لا يتم هذا التوازن في العالم اذا ظلت البشرية في تزايد مستمر وظلت نسبة هذا التزايد هي اثنين في المائة،فمن المتوقع ان يصبح عدد سكان الصين الشعبية في آخر هذا القرن مليار نسمة كما يتوقع ان يرتفع عدد سكان الهند الى ما يقرب هذا العدد كما ينتظر ان يتضاعف عدد سكان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. كما سيصبح عدد سكان اليابان 110 ملايين في سنة 1995 ونحن لا نقدم هذه الارقام جزافا وانما اخذناها من تقارير خاصة وضعها علماء ديمغرافيون باحصاء السكان في مختلف الاقطار التي تعرضنا لها ويجب أن لا يعزب عن أذهاننا أن جل الاقطار التي ذكرنا ستصبح في حاجة ماسة الى صادراتها التي كانت تعتبر زائدا على القدر الذي تستهلكه أسواقها الداخلية او ستخص بالباقي من صادراتها بعض الدول التي يمكن ان يتم بينها تبادل تجاري يضمن استفادة الجانبين ، وسيؤدي هذا لا محالة الى فقد الدول النامية لكثير من المساعدات الاجنبية وافتقارها الى المواد الغذائية التي تعد حيوية بالنسبة اليها كالقمح والخضر والسكر وغير ذلك ...

كل هذه العوامل تجعلنا أمام امرين لا ثالث لهما: اما مواصلة الولادة بالنسبة التي أشرنا اليها والتي ستجعلنا نلد كالارانب كما قال الاستاذ الكبير توينبي في مؤتمر عقد مؤخرا لدراسة نتائج تزايد سكان الكرة الارضية والتي ستؤدي حتما الى تعجيز كل مجهود يرمي الى ازدهار الاقتصاد وتطور الفلاحة ونمو الانتاج، واما حصر الولادة وهذا يدعو الى استعمال وسائل غير طبيعية واللجوء الى طريق غير مألوفة تنحصر كلها في عملية واحدة هي تحديد النسل .

واود قبل ان أختم هذا المقال أن أشير الى أني لا اريد ان أجعل من هذا المقال وسيلة للدعاية لتحديد النسل فان ذلك ليس قصدي من كتابة هذه السطور بالاضافة الى اني لا احمل أية صفة رسمية تسمح لي باتخاذ موقف محدد من هذا الموضوع ، ولكني اردت ان اطلع القراء على ظاهرة غريبة اخذت تشغل بال عدد من الشعوب وادلي بالارقام التي تعزز تخوفات المسؤولين فى بعض الدول .

على اني سوف لا أعدو طور الواجب الوطني والديني ولا أعد مارقا عن الدين اذا اكدت أن الاسلام لا يقف موقف المعارض من اللجوء الى هذه الوسائل الوقائية قبل أن يتكون الجنين وقبل ان تمر اربعين يوما على تكوين العلق كما ذكر ذلك اللخمي وغيره من العلماء المسلمين الذين اعتبروا الحديث الشريف الشهير عن جابر الذي رواه البخاري والذي جاء فيه : « كنا نعزل والقرآن ينزل ولم ينهنا الرسول عن ذلك » ولا احتاج ان أؤكد فى الاخير ان الاسلام ينهي عن اللجوء لكل الوسائل التي قد تؤدي الى عقم دائم لان فى ذلك القضاء المبرم على البشرية وهو داعي لانقراض الجنس البشري برمته .

فعلى الذين يقراون هذا المقال أن يتيقنوا ان القصد منه هو الاخبار ودراسة الوسائل المشروعة فى الاسلام فنحن براء من كل ما قد يكون الاسلام منه براء لان الاسلام دين ارتضاه الله لعباده جميعا والله اعلم بمصالح عباده .

الرباط : عبد اللطيف خالص







للشاعر: المدني الحمراوي

احقا تموت البطولة ؟ لا ... ولا، ثم لا، انها باقيه
لها في المعاني خلود وهل ... رايت مخلدة فانيه ؟
سمت بالبداء فلا تنتهي ... الى الطين في بقعة خاليه
ولكن تعود الى اصلها ... هنالك في جنة عاليه
الى عالم النور في رفرف ... وراء غيوب به نائيه
هنالك تمرح في مسرح ... جميع الاماني به دانيه

* * *

فان مات عبد الكريم فلن ... تموت مآثره الساميه
ولكنها تقلة نفست ... عن الروح كربته العاتيه
مضى مستريحا الى ربه ... وقد خلد الثورة الباقيه
وخلف للعرب احدوثة ... مخلدة في الورى زاهيه
وخلف للدين اكرومة ... تطل مع الشمس من زاويه
وضمخ بالمسك ارجاءنا ... واضحك سهلا مع الرابيه
واسهر اعين اعدائنا ... وعمق تحتهم الهاويه
وانطق تاريخنا فانبرى ... يرتل ملحمة ناريه
من الريف هبت لها نفمة ... تؤجج ثورته الحاميه
فرددت الارض اصداءها ... وروعت الانجم الساريه
وحيرت الغرب حتى انبرى ... يولول في صرخة باكيه
ولم تغن عنه اساطيله ... ولا قاذفات الردى العاويه
ولا قادة الجيش اذ عبؤوا ... جحافله الجمة الشاكيه
اغاروا كثيرا ولكنهم ... يعودون بالنكبة الفاشيه

معارك ما عرفت مثلها ... قرى الريف في حقبة ماضيه
بها اتصف الحق من باطل ... وخيب خطته العاديه
ستبقى مدى الدهر انشودة ... تداعب اجيالنا الآتيه

* * *

رعى الله « اجدير » كم وقفة ... به الهبت شعلة خابيه
وابطال « انوال » كم فجروا ... جداول في ربعهم قانيه
وكم هزموا للعدى قوة ... وافنوا جيوشهم الطاغيه
فآبوا بعار الهزائم لا ... تقيهم من هونها واقيه
وكادت رحى الحرب تطحنهم ... جميعا ففروا من الداهيه
ملاحم كانت لهم سبة ... وكانت لنا مدحة ناميه
اعاد بها الدهر ايامنا ... كما سلفت بالعلى حاليه
فنحن بنو الحرب ان اقبلت ... فتلنا ذوائبها القاربه
فطمنا بساحتها صبية ... فكنا بها امة داربه
وما الحرب فينا سوى فرصة ... نعيد بها آية ماضيه
سلوا الاطلس الحر عن مجدنا ... يحدث باخباره الغاليه
فكم وقعة حوله زلزلت ... شوامخه الصلبة العاتيه
كتبنا بها النصر انشودة ... ترتلها الامم الساميه
فنحن بنو الصيد من (مازغ) ... و (يعرب) احسابنا وافيه
نعاف الهوان ولا نرتضي ... سوى العز والرتبة الراقيه
نصون الحمى ان دهت محنة ... ولا نركب الخطة النابيه
فاما حياة على عزة ... او الموت في صرعة شافيه
وهذه امجادنا في الورى ... خوالد ، اعلامها راسيه
مواكب تاريخنا اشرقت ... على الارض كالشمس في عافيه
بدائع فن لها رونق ... وفضل حضارتنا الضافيه

* * *

فيا بطل الريف نم مؤمنا ... بان عزائمنا واريه
وانا سنرعى بلا غفلة ... مبادىء اهدافك الواعيه
ستبقى لتاريخنا فكرة ... تمده بالقوة الطاميه
ونجمل ذكراك تسبيحة ... نسر بها روحك الصافيه
فيا خالد الذكر في امة ... عليك جوانحها حانيه
لقد جل فيك المصاب فلم ... نجد في الحشا ذرة ساليه
ولكن ستحييك ارواحنا ... وتبقى لما شدته راعيه
لنا في معان تبنيتها ... عزاء وتذكرة كافيه
فعش في الجنان على غبطة ... وروحك مرضية راضيه

المدني الحمراوي

إلى عابرة سمراء

للشاعر: خليل الخوري

فدا كل مشقة رمح أنيق تفتت مهجـــه
وكرحي لكل عمود من المسك ينثـر وهجـه
على العابرين ، فيعشب صيف وتمرع مرجـــه
غلـو هـزار ، وبـوح كنـار ، وبـث كمنجـــه
خطرت ، فافريقيـا في الطـريـق اعتـداد وبهجـه
فبتنا على مـوجع الابنوس ، وبـات المحجـه
مجوسا نصلي لـدى مجمر النار تقيـم لجـــه
فطاب لاعيننا ان تفـاوي ، فنحن ذهـول وضجـه
فمن حدق العيـن ما ترتديـن
وفي خفقـة القلب ما تعبديـن
وفينا تموت الثواني ، ومن مترف الخطو رجه
ونحن على دورة الخصر ما قد تطـرز موجـه
أيهزج خصر بتيل ولـسنا نواكب هزجـه ؟
ويغنج طرف مدل ، ولـسنا نمجد غنجـه ؟

* * *

فيا انت ، يا سروة ، يا نياسين حومي علينا
رددت لنا الزهـو حتى شكانا الضياع الينـا
مررت فمر الربيع ، وطاف العبير لدينـا
فمن بعض اضيافنا الخيزران فانـى التقينا
وما اعتل منك ونطعمه من عروق يدينا
وفينا فقولي لاضياف اهدابنا ان وفينـا
وغيبي مع العابرين ، صحونا وكنا انتشينا
مدانا فرنق الف نهـار فليث انتهينـا
على مرفـا او جزيـرة نـار
وها نحن نبحـر دون مـدار
لنا بعدك الفصة المستبدة تـال اينـا ؟
ظمئنا انزعم حين مررت بانا ارتوينا ؟
وكيف ؟ ونحن على المضعف المتثنى اكتوينـا
امرنا الزمـان فسار وئيـدا فسيري الهوينـا
غصصنا ولولا الذي يقتضي الكبريـاء بكينـــا

دمشق ــ خليل الخوري

ثلاث قصائد :
لبول فيرلين
ترجمة : ابراهيم السلمي

1) حلمي المعتاد

كثيرا ما احلم هذا الحلم الغريب النافذ :
امرأة مجهولة تحبني واحبها
ليست موجودة في كل حين وليست هي تماما
وليست امرأة اخرى
تحبني وتفهمني

* * *

لانها تفهمني
وقلبي الشفاف ـ آه وقد كفت نزواته ـ
لها وحدها
ولها وحدها اخضلال جبيني الشاحب
فهي دون غيرها تعرف تبريده ببكائها

* * *

اهي سمراء ؟ أم شقراء ؟ أم رمادية ؟
ـ لا ادري
واسمها ؟ اذكر انه حلو منغوم
مثل المحبين الذين ابعدتهم الحياة

* * *

نظرتها تشبه نظرة التماثيل
ولصوتها النائي الهادىء الرزين
رنة الاصوات الغالية التي صمتت

2) مناجـــاة

فى الحديقة الهرمة المثلجـة
مـر منـذ حيـن طيفـان
عيونهما هامدة وشفاههما رخـوة
وتكـاد كلماتهمـا لا تسمع
فى الحديقـة الهرمة المثلجـة
اثـار الماضـي طيفـان
ـ اتذكرين جذلنا السرمـدي ؟
ـ ولم تريدني ان اذكـره ؟
ـ اما زال قلبك يخفق لاسمي وحده ؟
وروحي ؟ اما زلت ترينها فى الحلـم ؟ ـ لا
ـ آه ما اجمل ايام السعادة الفائقة اذ كنا نلتقي
ـ ذلك محتمـل
ـ كانت السماء زرقاء والامل عريض
ـ لقد فر الامل مندحرا نحـو السماء السوداء

* * *

هكذا كانا يسيران بين الاعشاب النزقـة
ولم يكن غير الليـل يسمع كلماتهمـا

3) انشودة الخريـف

الشهقـات المـديـدة
التـي تزجيهـا اوتـار الخريـف
تدمـي قلبـي بفتـور رتيب
الغصـة تعـروني
والشحوب يعلوني حين تـدق الساعـة
فاذكر الايام الخوالـي
وابكـي
ثـم اتيـه
فى مهـب الريـح
تحملنـي هنـا وهنـاك
وكانني ورقـة ميتـة

القنيطرة ـ ابراهيم السلمـي

على شاطئ الغيب : الشبح

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

الارض ما تزال ندية من امطار الامس .. وفي ذلك المساء تغير اتجاه الريح .. شعر به « شعيب الورياغلي » وهو داخل نوالته يساعد زوجته وبنته على شق البطاطس لغرسها في مزرعته الصغيرة المشرفة على المقبرة .

ترك ما كان بيده وخرج الى ساحة البيت الواسعة حيث وقفت بقرته الوحيدة ثقيلة البطن تلوك الكلأ وتنظر اليه نصف نائمة .. ونظر الى المقبرة تحته ، وصاح في زوجته دون ان يلتفت :

« واحدة اخرى هذا المساء ... »

ولم يعر اهتماما لتعليقها من داخل الكوخ المعتم .. كان الصوت يخرج منها عميقا كما يخرج من مطمورة او بئر .. على اية حال كان يعرف تعليقها قبل ان يسمعه .. هو هو دائما ، كلما قال لها عن جنازة اخرى تنهدت وقالت :

« هذا وقتها .. في الخريف دائما تتكاثر الجنائز .. الناس يحبون الموت في الخريف .. الله يلحقنا بهم مسلمين .. »

ثم تتنهد وتعود الى عملها دون ان تعطي الموضوع فترة تفكير اخرى .. وظل هو ينظر الى المقبرة المنبسطة تحت مزرعته تتناثر فيها القبور بشواهدها البيضاء تغطي بعضها اشجار العطرشة والورد ، وبعضها يكسوه الاعشاب البرية الخضراء توحي بالطمانينة والسلام .

وفي احدى الاركان وقفت حلقة من الناس حول قبر محفور بجلابيبهم الصوفية البيضاء والشهباء واقبابها على رؤوسهم تجعل منظرها حزينا وهم يقرأون «يس» باصوات عالية سريعة ، ولهجة جبلية قوية .

وسكتوا فجأة في اجلال ...

وفكر شعيب انه وقت الحشر قد حان .. وقت وضع الميت في قبره .. كان ذلك هو المنظر الوحيد الذي لم يستطع شعيب ان يألفه .. كان دائما يثقل قلبه ويبعث القشعريرة في خلده ..

وبدأ الرجال ينشدون بصوت خفيض ولحن مثقل بأحزان الوداع :

« باسم الله وعلى ملة رسول الله (ص) اللهم ان صاحبنا هذا قد نزل بك وخلف الدنيا وراء ظهره مفتقرا الى ما عندك .. اللهم ثبت عند المسألة منطقه ولا تبتله في قبره بما لا طاقة له به والحقه بنبينا عليه السلام ... »

وتقدم خمسة رجال فأخرجوا الجثة من المحمل مرفوعة على سجادة بيضاء ووضعوها في القبر برفق زائد ، ثم نزل الحفار وبدأ يغطي القبر بألواح الرخام المستطيلة وقد رقدت الجثة مكفنة بالبياض معقودة البنان صامتة تنتظر ان يبتلعها ظلام الغيب وصمته الاخير ...

ثم طلع الحفار فتناول المجرفة وبدأ يهيل التراب على الالواح الرخامية بسرعة حتى تكوم فوق القبر ، وجاء رجل بقربة ماء ذات فم نحاسي فأخذ يرشه بعناية حتى لا تعبث بترابه الرياح ..

ورفع شعيب رأسه الى السماء ينظر الى الغيوم وهي تتسابق سريعة نحو الشرق متعددة الالوان في دكنتها ونصوعها .

وفي الغرب كانت المدينة تبدو مزدحمة المباني داخل سورها الاحمر العتيق صوامعها البيضاء تعلو فوق بقية السطوح وهي في مجموعها كسفينة ضخمة نصفها الاول داخل البحر ..

كان وجه المحيط يعكس الوان السماء الكالحة والشمس لا يرى الا نصوعها من خلف السحاب وهي تميل نحو الغروب

.. والتفت مرة اخرى نحو المقبرة ليجد الجمع قد تفرق ، وذهب الناس في اتجاهات مختلفة ، ثم نقل عينيه الى طريق السيارات خلف المقبرة لينظر الى زجاج العربات الانيقة وهي تتدافع بسرعة نحو الشمال الى طنجة ، كان زجاجها يلسع في عينيه كلما انحرفت عن التل جانب ملعب الكرة ..

وفي تلك اللحظة عاد ابنه محمد من المدرسة فقبل يده ودخلا معا الى الكوخ الذي كان مضاء الآن بمصباح غاز اصفر .. وبعد العشاء جلس شعيب مع عائلته يشرب الشاي ويستمع الى حديث ابنه محمد عن المدرسة والاساتذة . ثم الجدال بينه وبين اخته فاطمة حول كروية الارض ودورانها ، كانت هي ترفض تصديق ما يقوله جملة وتفصيلا : « كيف يمكن ان تدور الارض ولا نسقط من فوقها ؟ لماذا لا يهرق البحر في الفضاء ؟ والبقرة لماذا لا تطير ؟ »

كان شعيب ينظر اليهما يتجادلان ويبتسم في تعب سعيدا بوجوده .. وفي تلك الليلة بينما هو في عمق النوم، اذ سمع طرقا على الباب .. استيقظ بصعوبة كبيرة دون ان يدرك اين هو .. كانت زوجته تحركه بعنف من كتفه ، وتهمس في اذنه : شعيب اسمع ، احد يطرق الباب في هذه الساعة ، قم ، افتح .. وقعد شعيب بدون احساس مدة قبل ان يدرك معنى كلام زوجته ، وحين خرج من الفراش كانت تقول له : « انا خائفة ، الكلب لم ينبح ، ثم انني كنت صاحية فلم اسمع الباب الخارجي ينفتح ، يا ترى من يكون هذا ..؟ شعيب ، خذ الشاقور معك ، من يدري ؟

ولف شعيب عمامته على رأسه في رعشة النوم لفا سريعا غير منظم ، ثم نظر حوله وقصد الباب فاسرعت زوجته الى الشاقور ووقفت خلفه ، وصاح شعيب : مـن ؟

فاذا صوت ضعيف كأنما تاتي به الريح يجيب : افتح من فضلك .. اريد ان اتكلم معك ..

فقال شعيب : تكلم من هناك .. ماذا تريد ؟

فرد الصوت بنفس العمق: اعتقد انكم دفنتم رجلا حيا..
وفتح شعيب الباب بسرعة وخرج : كيف ؟؟

وتكلم الرجل الطويل الواسع العينين الذي كان واقفا خلف الباب ، وعلى وجهه رعب كبير : « توقفت سيارتي الى جانب المقبرة ، فنزلت لاصلاح عطبها ، فسمعت نداء استغاثة آتيا من المقبرة ، وتسلقت السور ونزلت فلم اجد احدا ، كان الصوت يصدر عن قبر ما يزال نديا ، لعل الذين دفنوا ذلك الميت لم يدركوا انه كان ما يزال حيا .. »

فحك شعيب رأسه في حيرة ، وقال : وماذا نفعل الان ؟

— انني اقترح ان نحفر عليه حالا قبل ان يختنق بقلة الهواء ، او يموت رعبا ، او يفقد عقله اذا لم يمت .

فالتفت شعيب لزوجته : رحيمو .. هات الفأس ..

فخرجت هذه من خلف الباب والشاقور في يدها ، ونظرت الى الرجل في ريبة ، ثم سألته :

— كيف دخلت الى هنا ولم ينبح الكلب ؟

— اعتقد انه لم يرني ..

فاقتربت منه تنظر الى عينيه الغائرتين بعينيها الجميلتين القاسيتين .. كان طويلا نحيفا في حوالي الاربعين ، حسن التقاطيع ، الا انه شاحب في رعب شديد ، فعادت الى سؤاله :

— وكيف دخلت الساحة والباب ما تزال مقفلة .. ؟

— اعتقد انني تقفزت على الزرب .. لم اشعر بما كنت افعل .. ان رجلا هناك تحت التراب ، حياته في ايدينا ، وانت تعتقدين انني جئت لاسرق ..

وهنا تدخل شعيب بجد : هاتي الفأس وتعالي نحفر على الرجل .

فوقفت المرأة امامه في صرامة : لن نفعل شيئا من ذلك .. انت تعرف ما حصل لسي العربي حين حاول اخراج ميت ظن انه ما يزال حيا .. قبض عليه ورمي به في الحبس .. سنذهب الى مقدم الحومة ، وذلك حتى تأخذ الاذن من سلطة البلد ..

وتزايد الرعب الذي كان في عيني الرجل النحيف .. ونظر الى شعيب وزوجته ثم تكلم بصوت هامس كأنه لا يستطيع رفعه : تعال اذن نذهب الى المقدم .. لا نضيع الوقت في الجدال .

واخرجت رحيمو جلباب شعيب فلبسه هذا وهو في طريقه خارجا ..

ومشيا معا في ممرات مظلمة بين زروب القصب الكثيفة والكلاب تنبح حتى وصلا بابا في حائط قصب ابيض فطرقها شعيب بقبضته وهو يصيح :

— هل المقدم هنا ؟

فسمع صوت امرأة من الداخل يجيب :

— كـلا ..

— واين يمكن ان نجده ؟

— في القهوة ..

— اي قهوة ؟

— قهوة ابن روحو

والتفت شعيب الى الرجل الذي كانت عيناه تزيد كبرا ورعبا :

— تعال ..

— هل القهوة بعيدة ؟

— كلا انها في السوق ..

ومشيا بين الزروب حتى خرجا الى طريق السيارات الذي يخترق المدينة وسط السوق ، ونزلا في الشارع الرئيسي المظلم ، الحوانيت كلها مقفلة ، ولم تبق الا انوار قناديل بائعي الفحم الذين يسكنون في دكاكينهم وبعض القهاوي الخاصة بلاعبي (الكرطون) — البنجو — مقفلة يلوح النور من شقوق ابوابها ..

ووصلا الى مقهى (ابن روحو) فدخل شعيب ، ووقف الرجل بجلبابه الابيض الطويل على الباب ينظر الى الداخل في حيرة ...

ووقف شعيب على راس المقدم الذي كان يتصدر جماعة وهم يشربون الشاي ويتحدثون :

— شعيب ماذا جاء بك في هذا الوقت ؟

فرد شعيب : معي رجل يقول انه سمع صوت رجل يستغيث في قبره ..

فعلق المقدم ضاحكا : لعل نكيرا ومنكرا يستجوبانه ..

وضحك الجماعة ، فدخل الرجل الطويل الى حيث يجلس المقدم ، فنظر في عينيه بعنف ، وقال بصوت خافت :

— اسمع يا هذا .. حياة انسان في يدك ، وانت تلقي النكات .. اننا لم نرد الحفر عليه حتى نخبر السلطات اذا وجدناه ميتا فهو في ذمتك ..

واختفت الابتسامة من وجه المقدم ، فنهض وامسك بعصاه ، وهو يقول :

— انا لا اريد ان تبقى روح احد على رقبتي .. ولكن هناك من هو فوقي ..

فسأل الرجل : من يجب ان نخبر ايضا ؟

— الباشا . اجاب المقدم .

فقال شعيب : تعالى نذهب الى بيته .. وشد الرجل قبضتيه بعنف شديد ، وهو يمشي في اعقاب شعيب ، واطراف جلبابه تلامس الارض ، وفي عينيه غيظ شديد ..

ومشى خلف الثلاثة جميع من كان بالمقهى ، كل منهم يعطي رايه في الموضوع دون ان يسمع راي صاحبه . كان المقدم يلبس جلبابا صوفيا ثقيلا في لون الارض ، وعلى رأسه عمامة صوف سوداء مزخرفة خيوطها بخواتيم الحرير ، وقد حلق لحيته وترك شاربا احمر كثيفا يتمشى جيدا مع عينيه الزرقاوين .

وعلى باب دار الباشا تنحنح المقدم وضغط على الجرس فرن بداخل البهو الكبير ، وبعد لحظة خرج رجل بملابس النوم يسعى ، فأشعل نور الباب الخارجي ، ثم فتح الباب وهو نصف نائم ، فبادره المقدم :

— نريد ان نتكلم مع الباشا ..

— انه ليس هنا ..

— واين هو ؟

— في طنجة ..

فاختلط الامر على الجماعة فتقدم الرجل الطويل الى الخادم وسأله :

— هل ترك رقم تلفونه بطنجة ؟

— لا .. اجاب الخادم، انه لا يمكث هناك بمكان معين..

والتفت الرجل الى المقدم : وماذا سنفعل الآن ؟

فحك المقدم رأسه ، وهز كتفيه في حيرة ، فواجهه الرجل الطويل ، وهمس بصوت خافت فيه كثير من عدم الاحتمال :

— اسمع .. الباشا غير موجود .. وهذا معناه ان المسؤولية بيدك الان ..

وهنا تكلم شعيب وهو ينظر الى وجه الرجل الطويل المتوتر والضوء ينصب على تقاطيعه : اعتقد انه من الواجب ان نذهب الى القاضي .. هو الذي ينبغي ان يبت في هذه الامور ..

وصادف هذا الراي قبول الجميع .. فتوجهوا نحو المدينة داخل السور الاحمر .

وعلى باب بيت القاضي وقفت الجماعة تنتظر ، فأضيء مصباح معلق على الباب واطلت خادمة من نافذة مشرفة على الشارع تنظر الى الوجوه بعينين مقفلتين ، وسأل المقدم رافعا عكازته نحوها :

— هل الفقيه هنا ؟

— لماذا ؟ اجابت الخادمة : ماذا تريدون منه في نصف الليل ؟

— اذا كان موجودا ، فقل له يخرج عندنا .. نريد ان نسأله في امر مهم ..

وادخلت الخادمة رأسها فاختفت ثم عادت الى الظهور مرة اخرى :

يقول لكم سيدي عودوا في الصباح .. انه مريض الآن، ولا يستطيع الخروج من فراشه .. ثم اقفلت باب النافذة واطفأت النور قبل ان تسمع اي تعليق وعاد البيت الى صمته الاول ..

كان الرجل الطويل النحيف يرتعش من شدة الترفزة والغضب ، ودار المقدم ليجد نفسه وجها لوجه امامه ، فصاح فيه بصوته الحاد الخافت :

— ماذا تفعل الآن ؟

— لا ادري ..

— الرجل اشرف على الموت او الجنون الآن

فرد المقدم حائرا : ذلك من سوء حظه ..

فاقترح الرجل : الا ينبغي ان تنادي العرائش وتطلب اذن العامل للحفر على الميت ..

ورفع المقدم راسه ينظر الى الرجل : هذه فكرة حسنة .. لماذا لم تقلها من قبل ؟ تعالوا الى البريد .. وتحركت الكتلة مرة اخرى نحو البريد خارج الاسوار في المدينة الجديدة ، وكلما التقوا باحد انضم اليهم ليسمع الخبر العجيب .

وطرقوا باب المكلف بالادارة فخرج اليهم من سريره ، وسمع الخبر بدون ان يعلق عليه او يهتم به ، ولكنه فتح باب الادارة ، ورفع سماعة التلفون يطلب العرائش .

وبعد دقائق كانت اعصاب الرجل النحيف فيها تحترق وهو ينظر الى جهاز التلفون الاسود وينتظر ان يرن ، سمعت دقات الجرس ، ورفع المشرف السماعة الى اذنه ثم دفع بها الى المقدم .

وامسكها هذا بكلتا يديه وبدأ يصيح فيها :

— من ؟ آ .. سعادة العامل — مساء الخير يا سيدي — متأسفين لازعاجكم في هذه الساعة المتأخرة — لا ، لا — انا المقدم — الباشا ما يزال في طنجة — الموضوع اسيدي هو اننا نريد اذنكم في الحفر على ميت — لا لا — انه ما يزال حيا — هنا رجل سمع استغاثة من القبر — دفن هذا المساء — بارك الله فيك — الله يهنيك .

ووضع السماعة والتفت للجماعة : لنذهب الان للحفر عليه .. لقد اعطانا العامل الاذن ..

وفيما هم يتحركون نحو الخارج ، اذ سمعت ضجة بالباب وسيارة تقف ، وصاح احد الواصلين الجدد :

— الباشا جاء من طنجة ..

وفي نفس اللحظة دخل رجل في حوالي الخمسين بملابس عسكرية انيقة ، ضخم الجثة احمر الوجه تقدم نحوه الجماعة وراء المقدم . وتكلم هذا :

— جئناك يا سيدي لنأخذ اذنك في الحفر على رجل دفن حيا فلم نجدك ، وقد كلمنا العرائش الآن فأعطانا العامل الاذن ..

ووقف الباشا يحك قفاه وينظر الى الجماعة ، ثم وضع ابهامه في حزامه وسأل :

— هل اذن لكم في الحفر ؟

— نعم يا سيدي ...

— اذن ماذا تنتظر ؟ تعالوا ...

وتحرك الجماعة خارجين فركب الباشا سيارته واشار الى المقدم ان يركب ، وركب شعيب واشار الى الرجل الطويل فصعد الى جانبه ، ونظر اليه الباشا وسأل المقدم :

— وهذا لماذا ؟ ..

— هو الذي سمع الاستغاثة يا سيدي ..

ونظر الباشا الى وجهه ، فأحس بعمق الرعب في عينيه وتقاطيعه .. ومد يده الى مفتاح السيارة فأداره وتحرك نازلا نحو بيت الجنايني الملحق ببيته الكبير ، فنزل احد اعوانه واخرج فاسا وضعه في حقيبة السيارة وعاد فركب وقصف الباب فتحركت السيارة نحو المقبرة .

وعلى بابها فتح الباشا حقيبته الصغيرة فأخرج منها فنارا كهربائيا ، وتحرك الجميع نحو القبر الجديد ، يقودهم الرجل الطويل النحيف بخطوات واسعة .

وحين وقفوا عليه انحنى الباشا فأضاء بسمعه على القبر ، ثم اشار الى الرجل ان يحفر .. وبعد عدة دقائق كان الفاس يضرب على الرخام المستطيل ، فنزل الرجل وبدأ يرفع الالواح واحدة واحدة حتى كشف عن الجثة المكسوة بالبياض ، ونزل شعيب والمقدم فرفعاها من مرقدها ، ووضعاها على حافة القبر .

واقترب الباشا بفناره فانحنى على الجثة ووضع اذنه على صدرها ليستمع الى دقات القلب ، ثم وقف وقال دون ان ينظر لمن حوله :

— هذا الرجل ميت ، ولكنه كان حيا قبل بضع دقائق جسده ما يزال دافئا ...

ثم امر شعيب والمقدم ان يكشفا عن وجهه الغطاء فتقدم الرجلان ، وازاحا الغطاء فكاد الدم يقف في عروقهما ..

كان الرجل ما يزال حيا .. كان ينظر اليهما من وراء حافة الكفن بعينين غائرتين فيهما يأس ، وبقية حسرة وغضب .. كان هو نفسه ذلك الرجل الطويل النحيل الذي طرق الباب في اول الليل على شعيب ليخبره بالاستغاثة .

واغمض عينيه اغماضتهما الاخيرة ، وراح في سباته الابدي .

واشنطون — احمد عبد السلام البقالي



من ثمن الاخطاء «تعقيب»

للأستاذ عبد السلام الهراس

« اخرج النغمة التي فى قرار فطرتك يا غافلا عن نفسك اخلها من نغمات غيرك » اقبال

اطلعت على مقال الاخ الاستاذ محمد زنيبر تحت عنوان « ثمن الاخطاء » المنشور فى العدد السادس من مجلة « دعوة الحق » ولاهتمامي بهذا النوع من المقالات اخذت فى قراءته غير أني فوجئت باستشهاد الكاتب على بعض افكاره بمقالتي « قبل فوات الاوان » ، واسترسلت فى القراءة ظنا انني ساجد بيني وبين الكاتب اختلافا فى الراي وعلاقة بين افكاره ومقالتي مما يبرر له هذا الاستشهاد ، غير أني عند ما انتهيت من تحليله لمقالتي واستنتاجاته منها وافتراضاته ، ثم اجوبته عن تلك الافتراضات الى آخر المقال ، وجدت ان ذلك الاستشهاد فى غير محله ، وغير ذي موضوع وانما اقحم اقحاما ، لكن ، رغم ذلك ، فقد رأيت أنه لابد من الادلاء برأيي حتى لا يفسر السكوت بالرضى .

لقد صرح الكاتب بان اجدادنا وجدوا انفسهم مجردين من السلاح الفكري ، وان الانهيار بلغ الى حد لا يتصور ، وان عواقب التخلف ظهر اثرها بصورة افظع فى ميدان الفكر ، وامام الفراغ العقلي الذي كان يعانيه المغرب منذ ازمان بعيدة استطاعت الثقافة الاجنبية الدخيلة ان تجد لنفسها مكانا واسعا رحبا ، وسرعان ما اجتذبت اليها المثقفين والشباب » ، ويمضي قائلا : « فاذا نتج بعد ذلك ان هذا الجيل اصبح ذا ثقافة وتكوين اجنبيين قليل المعرفة بثقافته القومية ، فالمسؤولية تعود على الاجيال السابقة التي لم تعتن بهذا الامر ولم تبذل أي مجهود فى خلق المدرسة الوطنية المسايرة لمقتضيات العصر » ويرى ان الاستعمار « عمل فيما بعد على خنق ثقافتنا القومية ونشر ثقافته المجلوبة ولكن هذا تصرف طبيعي ومنتظر من كل دولة اجنبية حاكمة وليس من الحكمة ان ننتظر من الاجانب المحافظة على ثقافتنا القومية » ، ثم يقول :

« فالثورة الفكرية التي رفضنا ان نقوم بها نحن فى الوقت المناسب اصبحت مفروضة عينا فيما بعد ولكن من الخارج وحسب مناهج وطرق لم يكن لنا فيها اختيار . وهذا سبب كثير من المشاكل التي نعانيها اليوم فى تطورنا الثقافي » .

ومعنى كلام الكاتب ان الاستعمار وجد فراغا فكريا فى المغرب فاحتله ، ونتيجة لذلك ، أصبح جيلنا هذا محتل الفكر ، وذا تكوين وثقافة اجنبيين ، وان مدرستنا الوطنية كانت معدومة فى التوجيه او على الاقل ضئيلة التاثير ، وان الثورة الفكرية فرضت علينا فرضا ولكن حسب مناهج وطرق اجنبيتين . وليس من المعقول ان يحافظ الاجانب على ثقافتنا القومية وليس من الحكمة ان ننتظر منهم ذلك واننا نتيجة لهذه الاوضاع الجديدة نعاني مشاكل خطيرة فى تطورنا الثقافي .

وهذه الافكار التي ساقها الكاتب هي نفسها التي سقتها سواء فى مقالتي السابقة او فى مقالتي الاخرى التي نشرت فى دعوة الحق والتي تعتبر مرتبطة بها اشد الارتباط . فانا ارى اننا نعيش فى فراغ فكري ، وان الاستعمار استغل هذا الفراغ ليملأه حسب مناهج وطرق لا اختيار لنا فيها وان مدرستنا الوطنية لم تقم بواجبها لانها لم توجد كما ينبغي .

ولعل الكاتب يتفق معي ان تلك المناهج الاستعمارية لا يقصد بها ـ اساسا ـ خير البلاد بقطع النظر عن مكاسبنا منها ونوع تلك المكاسب . ولعل الكاتب متفق معي ايضا فى انه لابد من علاج لتلك المشاكل التي نتخبط بها والتغلب على العقبات الموضوعة في

طريقنا ومواجهة الاحداث التي تطغى علينا . وهنـا نصل الى النقطة التي تراءت للكاتب ان يجعلها محل استشهاده فيما اظن ، وهي نقطة العلاج . ولست ادري أيتفق معي فى هذه النقطة حسب ما بينته فى المقالة السابقة وما سأؤكده فقط هنا أم لا ؟ على اي فالعلاج فى نظري يقتضي تكوين قيادة فكرية منبثقة من صميم الامة مكونة تكوينا قوميا متينا حسب مناهجنا واختيارنا وطرقنا لاننا ان تركنا القيادة فى يد من كان ذا ثقافة وتكوين اجنبيين قليل المعرفة بثقافته القومية فاننا نكون قد حاولنا اسباغ صفة الاطباء على نوع من المرضى المراد علاجهم ؛ وهذا النوع من القيادة ، هو الذي وصفته بانه لا يشعر بكرامة امته وليس عنده ما يحمله على الحنين لامجاد ما ضيه ؛ لان الثقافة والتكوين الاجنبيين وقلة المعرفة بالثقافة القومية من اهم الخصائص للقيادة المزيفة ؛ لان الثقافة كما قال الكاتب نفسه ، قوة معنوية بها تعيش الشعوب وتعتز ، واليها ترجع لتستنير وسط الخطوب المدلهمة ؛ وما اظن — ولعل الكاتب معي هنا — ان الاجنبي الحاكم يريد خلق هذا النوع من الثقافة فى الامة المغلوب على أمرها. ولهذا قلت يجب على القيادة الحقيقية المنقذة ان تتعمق فى فهم النفسية للامة فهما مستقلا عن كل تأثير اجنبي او توجيه استعماري ، وبذلك (فقط) تستطيع القيادة ان تقف على حقيقة آمال هذه الامة واهدافها ومكامن القوة والضعف فيها وطبيعة تكوينها ومزاجها وعلاقاتها التاريخية والعقائدية والفكرية . . .

فدعوتي اذن تتلخص فى وجوب تكوين القيادة الفكرية السليمة المنبثقة من الامة لتواجه المشاكل بارادة غير مزيفة وفكرة غير دخيلة . فهل فى هذا ما يثير الكاتب ويجعله يسارع الى الاستشهاد بمقالتي على تلك الافكار التي ساقها هناك ؟

على كل حال ، سابسط فكرتي بعض البسط ، لعل الاخ الكاتب يقع على حقيقة الخلاف أن كان هناك خلاف او على عكسه . ان القيادة التي ندعو اليها هي التي قال عنها الكاتب « يجب ان تهتدي الى التفكير القويم وتقدير الواقع بحصافة وبعد نظر لانها ، لو فعلت ذلك لفهمت ان انقاذ المغرب هو فى الاستفادة من حضارة اوربا وعلمها وتجاربها لا فى الجمود والتعصب . . . » او الاستهتار والتلاعب بالقيم ، ولكن، كيف ينبغي ان نستفيد من اوربا ؟ وما هي وجوه الاستفادة ؟ وماذا ينبغي أن نأخذ ؟ وما ذا ينبغي ان ندع ؟ تلك قضايا مهمة وخطيرة ينبغي على القيادة ان تحدد موقفها منها بكل موضوعية . فالحضارة الاوربية فيها جانبها الخير ، وجانبها الشرير ، واخوف ما يخاف على امة ضعيفة يحاول قادتها النهوض بها ، ان تضل الطريق فتأتيها الرزايا من وجوه الفوائد ، ولذلك ، كان لابد من خلف **تلك الثقافة** التي سبق تعريفها حسب رأيكم لتخلق فينا الحاسة المميزة بين ما ينفعنا وما يضرنا . ومن المعلوم أن « لكل حضارة افكارها القاتلة » (*) لكي تقتلها هي نفسها كما تقتل غيرها وان الامة المصابة بالوهن لا تملك القدرة على الامتصاص الحيوي من أية حضارة وانما تفرض عليها نزعتها الى السهولة الى امتصاص الجانب القاتل كما نلاحظ على كثير ممن يحاولون تحضير انفسهم « بالمقلوب » بالاقبال على « اشياء » الحضارة الغربية فى بلادة ونشاط دون التنبه الى ان الحضارة تنبع قبل كل شيء من النفس تعبيرا عن عقيدة متغلغلة حية ، لهذا ، ينبغي الا نفتح ابوابنا — ان كانت لنا أبواب — على مصراعيها للشك بغزو بلادنا وانما يجب أن نكون حذرين يقظين محاولين بوعي قيادتنا — التي ينبغي ان تكون منا والينا — ان نفرق بين ما يضر امتنا وما ينفعها . فالنقل عن الغير يجب ان يخضع لشروط صارمة عملية مثل نقل الدم من جسم لآخر بل وأشد صرامة ، لان الخطأ فى نقل الدم قد يقتل فردا واحدا ، أما الخطأ فى النواحي الاجتماعية والحضارية فانه يقتل امة باكملها . لهذا يجب ان نبني فكرتنا الخاصة بنا والتي هي انسانية فى صميمها ، عاملين على اعادتها للنفوس واشاعتها فى المجتمع ومساعدتها بتهييء الجو والتربية الصالحين ، حتى لا تمتص الا ما يساعدها على النمو والازدهار ؛ فاليابان مثلا لم تقف امام الحضارة الغربية موقف الجمود ولكن فى نفس الوقت لم تقف موقف الميوعة والتفسخ . ولم تكن تلميذة بليدة لاوربا ، بل كانت واعية مفكرة ناقدة ، عالمة ، مدركة لما تأخذ ، مدركة لما تدع . فلم تذهب الى اوربا واسقة منها الكماليات والعادات المخربة والانحرافات ، بل كانت اوعى من ذلك . يقول ويل ديورانت : « لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراسة فاحصة لكي يتشربوا معاييرها ، ثم يفوقوها . »

وقبل ان يفكر اليابانيون فى الاخذ من اوربا فكروا جديا فى العقيدة التي ستجمع الشعب فى وحدة متراصة، وكان اول عمل قامت به اليابان هو انها قضت على

---

* فى مهب المعركة لمالك بن نبي ص 172 — 185 .

نظام الاقطاع . وكانت توبة الحاكم رجعي كيكي تهييئا لحضارة اليابان . يقول كيكي في اعترافه الرائع : « ان معظم اعمال الادارة الحكومية معيبة ، واني لاعترف خجلا بان الامور في وضعها الراهن يرجع نقصها الى ما اتصف به أنا من نقص وعجز وها هو ذا اتصالنا بالاجانب يزداد يوما بعد يوم فما لم تتناول ادارة البلاد سلطة مركزية موحدة ، انهار بناء الدولة انهيارا من اساسه »

وهكذا بدأ العهد الميجي سنة 1868 واسترد الشعب الديانة الشنتوية القديمة وقام قادة البلاد بدعاية قوية في الشعب حتى اقنعوه بأن الامبراطور العائد الى عرشه الاهي النسب والحكمة ، ولذلك يجب طاعته ، وطاعة القوانين التي يصدرها . يقول ديورانت هنا : « فلما ان توفرت هذه القوة الجديدة لانصار التغريب تمت على ايديهم معجزة او ما يوشك ان يكون معجزة في تحول البلاد تحولا سريعا » وقد قام الزعيمان العظيمان اتو واتويبي بزيارة لاروبا درسا خلالها انظمتها وصناعتها .

فاذن الاعتمادة على العقيدة شرط اساسي للحضارة واذا كان اليابانيون اعادوا للشعب ثقته في الامبراطور على أساس انه الاهي النسب فاننا ينبغي ان نعيد لانفسنا ثقتنا بالله على انه رب العالمين . وبدون هذه العقيدة فاننا سنظل نعبث ، لان العقيدة سر الانطلاقة الكبرى . ولقد راينا الرئيس ايزنهاور يرى ان خطر فراغ النفوس من العقيدة والاخلاق افتك بالامة من القنابل الذرية .

فقول الكاتب بانني ادعو الى غلق الابواب ، نتيجة « غريبة » واستنتاج » عجيب لم اقل لا بمقدماتها ولا بشيء يفضي اليهما ، وانما الذي أؤكده دائما هو انه يجب ان نتنبه من التاثيرات الاستعمارية، وان يكون فهمنا للامور مستقلا عن هذه التأثيرات مهما كان نوعها ، وان تكون لنا شخصية متميزة ، فالاستعمار زيف لنا تاريخنا وعقائدنا وحاول ان يقطع حاضرنا عن ماضينا وان يخلق من امة واحدة امما مختلفة ، وان يعرقل سيرنا وشجعنا على ما يسمى بالثقافة الرخيصة كما شجعنا على تقاليد بالية وساعدنا على الجمود ووقف دائما في وجه تطورنا ، ولم يقصر في الفتك بنا في ميدان الفكر . ولهذا اعتبر كلامكم من الاستنتاج الاول الى آخر المقال بين قوسين ، لا يحق الاجابة عنه لانه ليس في الحقيقة مسايرة لمنطق مقالتي وانما هو مسايرة من الكاتب لنفسه ولكن رغم ذلك احب ان انبه الاخ الى انني لو كنت ادعو الى غلق بابنا لما كنت منطقيا مع نفسي لانني اتابع دراستي العليا في جامعة اوروبية وبلغة اوروبية .

وكان بالامكان لو سرت على ذلك النحو من الافتراضات والاجوبة عنها أن أملأ مجلدات ولكن المهم هو ان ذلك كله لا علاقة له بالفكرة الموضوعة للمناقشة .

وان الكاتب يقول : « اننا لم نقم بعد بالثورة الفكرية وانما فرضت علينا من غير اختيار وحسب مناهج وطرق اجنبيتين » وفي كلا الحالتين شر ولهذا ينبغي ان نتدارك الامر بثورة ثقافية اصيلة ، اي نقوم ببناء حضارتنا على اساس من عقيدتنا . وما اروع الكلمة التي صدرت بها مقالتي التي فاه بها اقبال رحمه الله « اخرج النغمة التي في قرار فطرتك يا غافلا عن نفسك ، اخلها من نغمات غيرك » .

فالحضارة كما يقول مالك بن نبي ليست سلعة تباع وتشرى كما ان الاستعمار ليس في نيته ان يحضرنا بل عنده لفظتا استعمر وحضر بمثابة مترادفتين وليست الحضارة في نية المستعمر ولو صحت هذه النية بل هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضير ، فهو الذي يذهب الى الحضارة ، الى مصادرها البعيدة ، وقبل كل شيء الى مصدرها الاقرب من اصالته .

فمن ثمن الاخطاء في رايي أن نعتقد ان الحضارة هي ما انعمت به علينا المدرسة الاستعمارية في فترة غياب مدرستنا الوطنية . واذا كان يعاب على أجدادنا في عصور الانحطاط سوء نيتهم في الحضارة الغربية وغرورهم بما لديهم وجمودهم على تقاليدهم ، فانه يعاب على بعض ابنائهم اليوم حسن نيتهم المطلق في الحضارة الغربية وغرورهم بها وجمودهم في فهمها لان الجمود هو الجمود ، رغم اختلاف المظاهر والازمان . فاذا كان هذا الجيل يؤدي ثمن اخطاء الماضي فانه في نفس الوقت يرتكب اخطاء يساهم بدوره في تأدية ثمنها كما يترك رصيدا ضخما من المتاعب لتؤدي الاجيال المقبلة ثمن ذلك ، فلكي لا نعيد التجربة السابقة ينبغي ان نكون أكثر تحررا واكثر استقلالا في الفكر .

ويقول الكاتب ان « فى الاسلام مبادىء ثورية » فلما ذا اذن لم تتخذ تلك المباديء بداية لثورتنا ، فان كانت تلك المبادىء لم تطبق ككل الا فى فترة قصيرة فالعيب ليس عيب الاسلام ، ولكن عيب المسلمين ، الذين لم يستطيعوا المحافظة عليه ، كقوة دافعة ، وكقيم حضارية يعيشون فى اجوائها ويشيعونها فى الناس . ولكن ليس معنى ان ناخذ الاسلام مبدءا وعقيدة ان نغلق الابواب علينا ـ كما اراد الكاتب ان يستنتج ذلك من مقالتي السابقة ـ وانما ان تكون اكثر قدرة على الاستفادة الصحيحة النافعة .

وبعد ؛ فان لنا كل الامل فى ان تناقش مثل هذه الافكار وان يدلي كل واحد بما لديه بكل شجاعة وموضوعية وحسن نية وان نهيء الجو لذلك دون ان نتاسف لنشر بعض الافكار التي لاتعجب البعض منا. فقد تكون على الاقل تحمل بعض الصواب فى حين يحمل غيرها بعض الخطا . ان هذا التاسف يعتبر وسيلة من وسائل ديكتاتورية الفكر والاستبداد بالراي اللذان اديا باروبا الى محاكم التفتيش التي لم تعرف ابدا فى تاريخ الاسلام .

فافساح الصدر للافكار التي لا تعجبنا قد تؤدي بنا الى الوصول الى ما يعجبنا .

ولست فى حاجة الى القول بان كتابة الاخ محمد زنيبر تدور حول موضوعات قيمة يجب على الجميع ان يتضافر على معالجتها بقوة فى العزيمة ، واستقلال فى الفكر ، وعمق فى الفهم ، حتى لا نعود الى عهد يجسم فيه انحطاطنا وتدهورنا ، وحتى نصل الى ما نصبو اليه دون ان يبقى لبنا شاردا ! !

تطوان : عبد السلام الهراس

※ نفس المصدر السابق ص 162 .





فضيحـــة مصطنعـــة

في الشهر المنصرم عمد احد صحفيي مجلة (الكواكب) القاهرية الى كتابة مسرحية بعنوان « الهواء الاسود » ، ثم نسبها الى اديب سويسري وقدمها على انها من ادب اللامعقول ، وقرأتها لجنة مسرح الجيب المهتمة بنشر الانتاج المسرحي الجديد ، فقرظتها واشادت بها .. وكتب أكثر من ناقد يحللها باعتبارها نموذجا من نماذج مسرح اللامعقول كما يتمثل عند : بيكيت ، ويونيسكو ، وتوفيق الحكيم ..

ولكن الصحفي ، مدبر اللعبة ، سرعان ما أعلن أن المسرحية المنشورة ليست للاديب السويسري ، وانما هي من انتاجه ، كتبها فيما لا يزيد عن نصف ساعة متوخيا من ذلك اثبات تمكن عقدة النقص من النقاد العرب الذين ما يزالون يصفقون لكل وارد من الغرب ، ويحتقرون الانتاج المحلي ..

واغتنم عباس محمود العقاد الفرصة ليسخر من النقاد الشباب فكتب يقول :

« هؤلاء النقاد المحترمون اول من ينبغي ان يساق الى « محكمة التزييف » لحماية الفكر الانساني في هذه الامة من وبال دعواه . واهون ما يستحقون عليه الجزاء الرادع انهم استخفوا بدعوى القيادة الفكرية التي لا تكلفهم كثيرا ولا قليلا من العلم باصول شيء من الاشياء في عالم الثقافة »

وانبرى الدكتور مندور يرد :

« ... تناولت كثير من الصحف والمجلات هذه الحادثة السخيفة وراحت تشهر بالنقاد وتتشفى فيهم ، بل واختلط هذا الاحتيال السخيف عند أديب كبير كالاستاذ العقاد باتجاه اللامعقول في ذاته ، فكتب في مقالة ضافية يسفه النقاد ومذهب اللامعقول معا ويؤكد ان اصحاب اللامعقول والنقاد المعجبين به لا يستحقون في رأيه الا ما يسميه بالنقد اليدوي ، أي من وسائل الحاجة بين ادباء ونقاد وكتاب يحترمون انفسهم مثل الاستاذ العقاد » .

وقد ذكرتني هذه الحادثة باخرى تقرب منها دبرها صحفي ناشىء سنة 1957 ، اذ جمع مقتطفات من الكتابات الاولى لروائيين لامعين أمثال توفيق الحكيم ويوسف السباعي ومحمد عبد الحليم عبد الله، ومحمود تيمور .. ثم عرضها عليهم ليبدوا فيها رأيهم على اساس انها من انتاجه ؛ وكانت آراؤهم كلها تصف تلك المقتطفات بانها فجة مفتقرة الى النضج .. ومن تم استنتج الصحفي بان الاسم المشهور يغطي في كثير من الاحيان على ضعف صاحبه ، لانه يصبح بمثابة « الماركة المسجلة » ، يكفيه انه اثبت تفوقه في المرة الاولى ولكن لعبة « الهواء الاسود » اخطر من الاولى لانها تطرح أكثر من سؤال ... وأهم سؤال في نظري هو : هل يحق لرئيس تحرير مجلة ان يوافق على نشر انتاج مزيف دون التأكد من كاتبه او وجود نصوصه باللغة المترجم عنها ؟

ان هدف رئيس تحرير مجلة الكواكب ـ خصوصا وهي مجلة معروفة بابتذالها وحرصها على الاثارة ـ ينحصر في تحقيق ربح مادي ، لان من شان « الفضائح » ان تضاعف البيع ... الا أن عدم التمييز بين فضائح « النجوم » والادباء يعد استهتارا بقداسة الثقافة ومهمة الصحافة ...

اما السؤال المتعلق بمسؤولية النقاد وضرورة معرفتهم للآثار التي يقيمونها ، فاعتقد ان من التعسف مطالبتهم بقراءة كل ما يصدر ، وبأي لغة كان .. من الطبيعي ان يشترط في الناقد سعة الاطلاع ، والثقافة الواسعة .. ولكن الاهم من ذلك توفره على ملكة الملاحظة والمقارنة ، وتمثل مايقرأ ، ليستطيع ان يعكس انطباعاته وآرائه في صورة متزنة واعية .. وليس من الضروري ان يقرأ مسرحية صدرت بالالمانية او الانجليزية ليكتب عنها عند ترجمتها الى العربية ، فهو

يستطيع بحسه وخبرته أن يدرك اتجاه الكاتب وآفاق تفكيره ، ويستطيع أن يموضعها بالنسبة لباقي الاتجاهات والظروف الصادرة فيها ..

من أجل ذلك فان فضيحة « الهواء الاسود » لا تعدو كونها زوبعة في فنجان ، وجهدا ضائعا لاثارة فضيحة مصطنعة ..

ولا يفهم من كلامي ان النقد العربي بخير ، وانه لا يعاني من الخلط والدخلاء .. بل انني أتمنى مخلصا ان يحتل النقد مكانته المستحقة ، وان يجتمع النقاد العرب في مؤتمر خاص ليتدارسوا المشاكل المطروحة، وليوضحوا المقاييس المبهمة ، مثلما يفعله النقاد في معظم الاقطار الاوربية (*)

ناظم حكمت الشاعر الانساني

عند ما نعي ناظم حكمت الشاعر التركي يوم الاحد 2 يونيو ، كتبت عنه معظم الصحف والمجلات على اختلاف نزعاتها ، متغاضية عن كونه منتميا الى الحزب الشيوعي ، ورائية بموته الروح الشاعرية الرحبة التي عزفت الحانا ستخلد في مسمع الدهر .. فما هو سر هذا التقدير ؟

لعل مصدره ذلك الموقف الرائع العميق الذي اتخذه ازاء مشاكل وطنه وازاء مشاكل العالم أجمع.. فرغم انتسابه الى سلالة ناظم باشا ، احد دعائم الامبراطورية العثمانية ، ورغم الترف والبذخ المميزان لطبقته .. فانه استطاع ان يتنصل من تلك العقبات « القبلية » ليلتحم مع السواد الاعظم من الشعب التركي الذي كان يبحث عن الخلاص من خلال ثورة كمال اتاتورك .. ثم بعد ذلك لتقويم الانحرافات الجديدة ، ورواسب عهد « الرجل المريض » .

ولكن ناظم الذي شهد في طفولته انهيار الامبراطورية العثمانية ، وعاصر في بداية شبابه قيام الثورة ثم مرحلة الخيبة .. سرعان ما أسرت مشاعره اصداء الحدث العظيم . الذي وقع بروسيا قريبا من حدود وطنه .. واذن فليعبر البحر الاسود ليعاين بنفسه ماذا يصنع في موسكو . وهناك توثقت صلته بشاعر الثورة السوفياتية مايكوفسكي ، وبالمذهب « المستقبلي » Futuriste ومعتنقيه .. فلم يعد مفهومه للشعر منحصرا في تنميق القصائد والحكم .. بل اصبح يؤمن – مثل اتباع هذه المدرسة – بان الشعر والحياة كلاهما في حاجة الى ان يصنع من جديد ، بروح مغايرة للافكار العتيقة ..

وهكذا انكب ناظم حكمت يدرس الماركسية ، ويتعمق في هضم تيارات المسرح الجديد .. فامتلأ ايمانا وحماسا بالرسالة التي تنتظره وهي احداث تغيير جذري في الادب التركي ..

واذن فليعد الى وطنه تركيا ليحمل مشعل التجديد والتغيير .. ليناصر المستضعفين ، ويغني لهم اناشيد الامل .. ولكن الرسالة التي عاد ليبشر بها تتعارض مع سياسة الحكومة ، فالقي عليه القبض ليمضي سبع عشرة سنة في سجن « بروس » الرهيب.

الا ان الشعر المجنح لم تكن جدران السجن السميكة لتحول بينه وبين الافئدة المتعطشة لاغاني الحرية والثورة .. وسرعان ما ذاعت داخل تركيا وخارجها لتبوأه مكانة عالمية بفضل الطابع الانساني الذي يشع من تجاربه وصوره .. تلك المكانة التي حذت بكتاب وادباء العالم الى تنظيم حملة عالمية تطالب باطلاق سراحه .. وتكللت الحملة بالنجاح وخرج البلبل الفريد من قفصه ليعانق الجماهير التي احبها من اعماقه .. ولكن الوضع حتم عليه ان يعيش في المنفى ، فرجع الى موسكو حيث حصل على حق المواطنة السوفياتية .. وحيث ظل الى آخر حياته واعيا ، متحررا ، جسورا على الملاحظة والنقد ، عزوفا عن العقائدية الجامدة ...

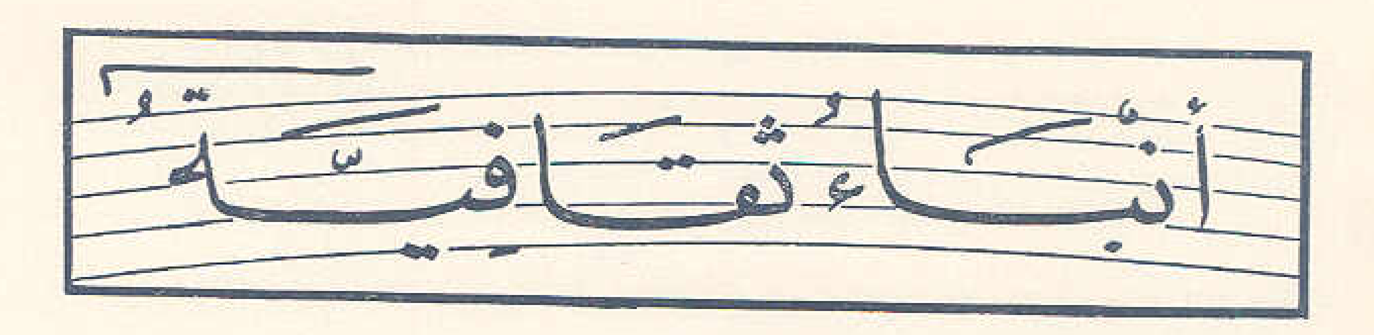
وقد ترك في جميع المؤتمرات الافريقية الاسيوية التي شارك فيها اثرا طيبا ، وقبسا خالدا من ثوريته..

وكانت كل اشعاره تنضح بحب الانسان أينما وجد ، وبالايمان العميق في غد مشرق قوامه العدالة والمحبة .. وهل هناك اقوى من هذا الايمان الذي يتجلى في الامنية التي تعبر عنها قصيدته : « وصية » اذ يقول :

« يا أصدقائي اذا لم يقدر لي ان احيا ذلك اليوم
« واذا ما مت قبل ان يشرق يومنا الآخر
« فاحملوا رفاتي الى « الاناضول »
وادفنوني باحدى مقابر القرية »

الرباط : محمد برادة

* سينعقد من 25 الى 27 يوليو بباريس مؤتمر الجمعية العالمية للدراسات الفرنسية ، وسيكون الموضوع الاساسي لهذا المؤتمر هو « النقد واشكاله » ومن بين الاعلام الذين سيشاركون في هذا المؤتمر جان ستاروبنسكي ، وجورج بلان ، وجاتيان بيكون ، وكثير من أساتذة السوربون ...



* اجتمعت الجمعية العامة للجنة الوطنية لجغرافية المغرب بالرباط مؤخرا تحت رئاسة الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية بحضور كثير من رجال الادارة والجامعيين المتخصصين وتباحثوا في بداية الامر في حالة تقدم « اطلس المغرب » واللوحات المعدة لهذا الاطلس في مختبر الجغرافية الفزيائية التابع لمعهد العلماء ، كما تباحثوا في اللوحات الخاصة بخرائط أصول المعادن التي هيأتها مصلحة الجيولوجيا التابعة لادارة المعادن بالرباط ، أضف الى ذلك لوحة خاصة بالطبقات الحيوية المناخية التي انجزها الاستاذ « سوفاج » وستنشر هذه الخرائط مباشرة عقب اصدار البيانات الموضحة لها . كما يوجد تحت الطبع خرائط كثيرة : منها خريطة خاصة بتوزيع السكان حسب الجماعات القروية ، وخريطة خاصة بتوزيعهم حسب النقط ، وخريطة ادارية مع بيانات عن الجماعات القروية ، وخريطة أخرى الدار البيضاء ، وقد شاركت اللجنة في وضع خرائط دراسية حائطية ، وهي في طريق نشر دليل جغرافي خاص بالمغرب لفائدة التعليم الثانوي ، وذلك في اطار تنسيق الدراسات الجغرافية المتعلقة بالمغرب .

* عين اخيرا الدكتور المهدي المنجرة في منصب مدير ديوان المدير العام لمنظمة اليونيسكو التي اعربت عن ابتهاجها بهذا التعيين الذي يعتبر مفخرة واعتزازا للمغرب . كما اشادت بكفاءة ونشاط هذا الشاب المغربي . وقد تم تعيينه في هذه الوظيفة باقتراح قدمه المدير العام لمنظمة اليونيسكو الى اللجنة الاستشارية لهذه المنظمة خلال اجتماعها الاخير ، والدكتور المنجرة احرز على شهادة العلوم السياسية من جامعة كورنيل بنيويورك ، وحاصل على الدكتوراة في العلاقات الدولية من الجامعة الاقتصادية بلندن ، وقد سبق له ان تقلب في عدة مناصب مهمة في المغرب منها استاذ المؤتمرات بكلية الحقوق في جامعة الرباط ، ثم مندوبا للمغرب في الامم المتحدة برتبة مستشار في وزارة الشؤون الخارجية ، فمديرا عاما للاذاعة المغربية ، كما شغل منصب رئيس قسم افريقيا لدى مكتب العلاقات مع الدول الاعضاء في منظمة اليونيسكو

* كلف صاحب الجلالة الملك المعظم المؤرخ المغربي السيد عبد الوهاب بن منصور بتنظيم معرض الوثائق الذي سيفتتح في باريس بمناسبة الزيارة الملكية التي سيقوم بها العاهل للعاصمة الفرنسية .

* يعكف الاستاذ عبد الحق بنيس على نقل سلسلة « تاريخ العلاقات الدولية » للعلامة بيير رونفن الى اللغة العربية ، وسيصدر الجزء السادس منه قريبا ، وقد سبق لهذه المجلة ان أصدرت مقالا مترجما من هذا الجزء بعنوان « السياسة الدولية في سنتين 1901 – 1907 » لنفس المترجم في عددها السادس من هذه السنة .

* صدر للاستاذ محمد داود الجزء الثالث من « تاريخ تطوان » بعدما صدر الجزآن الاول والثاني راجين ان تصدر الاجزاء الخمسة الباقية من تاريخ هذه المدينة .

* نظمت سلسلة من المهرجانات الفلكلورية باطلال قصر البديع في الاسبوع الاول من شهر يونيه الماضي سجلت نجاحا كبيرا .

* في نطاق عمليات البناء التي تقوم بها وزارة التربية الوطنية بشتى اقاليم المملكة ، وقع الشروع في بناء عدة أقسام جديدة بثانوية مولاي ادريس بفاس لايواء التلاميذ الجدد الذين يقصدون هذه الثانوية كل سنة .

※ وصل الى الرباط السيد عصام سليمان مستشار لبنان الثقافي فى افريقيا الشمالية حيث نظم بالاتفاق مع السلطات المغربية معرضا للكتاب اللبناني دشن يوم 30 ماي الماضي بقاعة كلية الآداب المغربية ، ودام هذا المعرض مفتوحا الى الثامن من شهر يونيه ، مشتملا على امهات الكتب والمؤلفات المطبوعة فى لبنان ويدخل هذا المعرض فى نطاق التبادل الثقافي بين المغرب ولبنان .

※ افتتحت فى الاسبوع الاخير من شهر ماي الماضي الدورة الثانية لمؤتمر المحامين فى قصر العدالة بالرباط تحت رئاسة السيد أحمد أبا حنيني وزير العدل وحضور عدد كبير من الشخصيات القضائية .

※ ساهم المغرب فى الحملة العالمية ضد الجوع باصدار سلسلة طوابع بريدية .

※ اعلن فى باماكو ان جائزة لينين للسلام ، ستمنح فى هذه السنة للرئيس موديبوكيتا رئيس الجمهورية المالية .

※ أنهى مؤتمر خبراء وكالات الانباء الافريقية الذي انعقد فى تونس أعماله بالموافقة بالاجماع على التقرير الذي تضمن توصية الاعضاء بشأن النهوض بوكالات الانباء الافريقية ، وقد اشترك فى المؤتمر ممثلو 23 دولة .

※ صدر قرار عن الحكومة السورية بأنها ستقدم الجزائر 1200 معلم ومعلمة لمساعدة الجزائر فى ميدان الثقافة والتعليم .

※ بلغت نسبة الاطفال الجزائريين الذين تم التحاقهم بالمدارس الابتدائية الجزائرية حتى الآن 90 فى المائة من مجموع الاطفال الذين وصلوا الى سن الالتحاق بهذه المدارس ، وكانت نسبة تلاميذ هذه المرحلة لا تتجاوز 40 فى المائة قبل الاستقلال .

※ صدر مؤخرا بتونس كتاب عن الفقيد الطاهر الحداد بعنوان « الطاهر الحداد » ، يهتم القسم الاول باطوار حياة الرجل والقسم الثاني بتراثه .

※ قررت اللجنة الثقافية القارة للجامعة العربية عقد ندوة صحافية بتونس فى شهر غشت القادم للبحث فى الارقام العربية واستعمالها وفى توحيد التواريخ الهجرية حتى يكون اليوم الاول من كل شهر قمري هو نفسه بالنسبة لجميع البلدان العربية .

※ عقد فى الشهر الماضي بتونس مؤتمر الآثار حضرته وفود من جميع البلدان العربية وبعض المستشرقين .

※ اصدر الدكتور محمد النبوي المهندس وزير الصحة بالقاهرة قرارا بتشكيل لجنة انشاء متحف دائم فى القاهرة بتاريخ الطب المصري والعربي .

※ ستصدر الجمعية الادبية المصرية فى القاهرة مجلة أدبية شهرية .

※ يصدر قريبا المجلد الاول من ديوان البحتري الذي يقوم بتحقيقه حسن كامل الصيرفي وتنشره دار المعارف بالقاهرة ، والديوان فى أربع مجلدات ، وقد تم تحقيقه على 15 مخطوطة .

※ صدر فى القاهرة كتاب « دراسات فى الكتب والمكتبات الاسلامية » للدكتور عبد اللطيف ابراهيم مشتملا على خمسة بحوث من واقع الوثائق العربية فى العصرين المملوكين والعثماني فى مصر مع مجموعة من اللوحات والمخطوطات والوثائق .

※ اكتشفت بعثة مصلحة الآثار التي تعمل فى منطقة أسوان 37 مقبرة اثرية بجوار فندق كتراكت وثلاث مقابر بمنطقة جبل « تاقوت » من بينها مقبرة منحوتة فى الحجر الرملي ، وبقايا عشرة توابيت على شكل انسان ، وعثرت بعثة المصلحة التي تعمل فى منطقة سنحا بمحافظة كفر الشيخ على كثير من التماثيل الميشاني والبرونز يمثل الآلهة المصرية وعددا من الاواني الفخارية التي ترجع الى العهدين اليوناني والروماني .

※ « الاتصال بالجماهير » هذا كتاب جديد من تأليف اريك بارنويتناول وسائل الاتصال بالجماهير

※ اكتشف فى منطقة النوبة بوابة رومانية وبعض المباني والادوات المنزلية المصرية القديمة ، وقد صرح

بذلك الدكتور بلوملي الاستاذ بجامعة كمبردج والدكتور اودلف كلاستر الاستاذ بجامعة ليدن اللذان سافرا الى القاهرة فى رحلة اكتشافية .

※ انتهت الكاتبة حنفية فتحي من كتابة قصة طويلة بعنوان « بيت العنكبوت » عالجت فيها مشكلة اولاد البيت عند ما يزحف اليهم العمر بسنواته وعقده .

※ اصدر الاستاذ عباس خضر كتابا عنوانه « صحافيون مصريون » تناول بالدراسة فيه هؤلاء الصحافيون : مصطفى امين ، علي امين ، محمد التابعي، محمد زكي عبد القادر ، كامل الشناوي ، فكري اباظة ، احسان عبد القدوس ، يوسف السباعي ، جلال الحمامصي .

※ دفعت الشاعرات الثلاث المصريات وهن : عزيزة كاتو ، فالوري عبد المالك ، نسرين عبد الحي ، دواوينهن الاولى الى المطبعة وكلهن من الاسكندرية .

※ « مرفأ الذكريات » اول ديوان سيصدر للشاعرة لورا الاسيوطي .

※ يقوم الاستاذ فؤاد كامل بترجمة كتاب « المذاهب الوجودية » الى العربية للفيلسوف ريجس جوزيف عميد كلية الدراسات الدينية فى ليون ، ويتحدث الكاتب عن اعمدة الفلسفة الوجودية الستة وهم : نيتشة، كريكوجورد ، سارتر ، هايدجر ، مارسيل ، ياسبريس.

※ اصدرت دار الهلال كتاب « تاريخ الحب ورسائله الخالدة » لابراهيم المصري وهو من تاليف الكاتبة الفرنسية مارسيل تينير مشتملا على طائفة مختارة من اشهر رسائل الحب الخالدة وبعض قصص عالمية تعتبر من اروع قصص الحب فى الادب الغربي .

※ يصدر قريبا كتاب « ثمرات الاوراق فى الادب والمحاضرات » لابن حجة الحموي تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

※ يعكف الاستاذ عبد الرحمان فهمي على كتابة رواية تاريخية تدور احداثها خلال حفر قناة السويس

※ بدات لجنة الشعر فى الاعداد لمهرجان الشعر الخامس الذي ينتظر عقده فى الصيف القادم .

※ جرى اعداد دائرة معارف افريقية تصدرها اكاديمية العلوم بجامعة غانا ، وتقع فى 10 ملايين كلمة، وستظهر فى 17 جزءا باللغة الانجليزية والفرنسية ثم العربية ، وقد اختير عبد المالك عودة ليكون رئيسا للجنة التي ستحرر المقالات عن مصر والسودان .

※ انتهى عبد الله الطوخي من كتابة مسرحيته « طيور الحب » .

※ طلبت وزارة الثقافة المصرية رصد مبلغ 50 الف جنيه تخصص لانشاء المبنى الجديد لمسرح الجيب بدلا من المبنى المحترق .

※ يقوم الدكتور عبد الكريم اليافي مع الدكتور عبد المنعم الشافعي بمراجعة ترجمة المعجم الديموغرافي الذي اصدرته الامم المتحدة بالانجليزية والاسبانية ، وتقرر نشره بالعربية .

※ فاز محمود دياب بنصف الجائزة الاولى للمسرحية فى المجتمع اللغوي بالقاهرة وعنوان المسرحية هي « البيت القديم » .

※ نشرت جمعية اصدقاء سيد درويش كتابا بعنوان « فنان الشعب » مشتملا على 18 مقالا وقصيدة عن سيد درويش باقلام عدد كبير من الادباء .

※ اصدر الرسام عبد السميع عبد الله مجموعة قصصية بعنوان « عصافير » .

※ صدرت عن دار الطباعة بلبنان مجلة شهرية بعنوان « دراسات عربية » ساهمت بالكتابة فيها مجموعة من الاقلام من مختلف البلاد العربية .

※ اصدر الاستاذ غالي شكري كتابه الجديد بعنوان « نجيب محفوظ » والكتاب تقييم لقصص نجيب محفوظ منذ بدأ حياته الادبية فى سنة 1932 الى الآن.

※ ترجم الاستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد الى العربية مجموعة من القصص القصيرة للكاتب التشيكي المعروف فرانز كافكا .

※ اصدر الدكتور حسين عمر مؤلفا بعنوان « الانتاج في المجتمع الاشتراكي » .

※ انتهى انور كامل من ترجمة كتاب «الايام السعيدة» لصموئيل بكيت .

※ مجلتان ادبيتان جديدتان تصدران عن وزارة الثقافة المصرية هما : « الثقافة » ويراس تحريرها عبد المنعم الصاوي و « مجلة المسرح » ويراس تحريرها الدكتور علي الراعي .

※ كرم شلبي ومجدي نجيب انتهيا من تاليف ديوان من الشعر العامي بعنوان « مختارات من الاعمال المصرية » .

※ بلغ عدد اللوحات القطبية الاثرية الملونة التي عثرت عليها بعثة الآثار البولندية في قرية فرس في بلاد النوبة 123 لوحة ، وهذه اللوحات التي عثر عليها تشبه تلك التي عثر عليها مرسومة فوق طبقة جصية اخفت نقوش الفراعنة في معابد ابو عودة ووادي السبوع

※ اصدر الاستاذ عبده بدوي كتابا عن « الشعر الحديث في السودان »

※ « ايام في الشرق الاقصى » كتاب جديد صدر للاديب السعودي علي حسن فدعق وذلك عن دار منشورات عويدات ببيروت .

※ سيعقد في لندن من 19 يوليو الى 2 غشت مؤتمر دولي يتناول شؤون الفتيان الاحداث ، وينتظر ان يفد اليه 500 مندوب ينتمون الى اربعين دولة ، وتنظم هذا المؤتمر « رابطة اصدقاء العالم » .

※ « والحب والحياة : غراميات تاريخية » عنوان الكتاب الذي صدر لسمير شيخاني في لبنان .

※ صدر عن كلية الآداب في الجامعة الامريكية كتاب باللغة الانجليزية تحت عنوان « خليل جبران : اطاره – شخصيته – اعماله بتقديم الدكتور نبيه أمين فارس .

※ اصدر الشاعر اللبناني جورج غريب كتاب « سعيد عقل والغزل الخلاق » .

※ يعكف الدكتور انطون غطاس كرم على كتابة مؤلف عن « الشعر العربي في المائة سنة الاخيرة » بملحق من نماذج هذا الشعر .

※ قدم للطبع الاستاذ غسان كنفاني مجموعة قصصية بعنوان « ارض البرتقال الحزين » مستوحاة من مأساة فلسطين .

※ سيصدر في لبنان في الشهر المقبل كتابان للاستاذ نور سليمان ، احدهما رواية ، والآخر مجموعة من الابحاث النقدية في الادب .

※ صدرت عن دار الكتاب العربي ببيروت مجموعة قصص « 13 قصة » القاص عاصم الجندي .

※ يعد القاص الياس الديري قصة بعنوان «الرجوع» بعد ما صدرت له قصتان اسمهما « الرجل الاخير » و « جدار الصمت » .

※ « ابدا في رحلة » ديوان صدر في بيروت لمؤلفه انطوان رعد .

※ « اخوات الادب » عنوان كتاب أعده للطبع الاستاذ عبد الله محمود تناول فيه بالدراسة بعض أديبات العالم العربي والاوروبي .

※ « الجنة العذراء » رواية من تاليف عبد الحليم عبد الله صدرت في هذا الاسبوع ببيروت

※ ظهر في بيروت رواية « ثمن الخطيئة » لمؤلفها نجيب البعيني بعد ما صدر له من قبل كتاب « دموع الوداع » .

※ سيقدم للطبع الشاعر اللبناني فؤاد الخشن ملحمة بعنوان « ادونيس وعشتروت » بعد ما صدر له ديوان منذ أربع سنوات بعنوان « سوار الياسمين » .

❊ ترجم الاستاذ نبيه صقر الى العربية كتاب « الوضع البشري » لاندريه مالرو .

❊ صدرت في بيروت حديثا الترجمة العربية لرواية « فونتمارا » للمؤلف الايطالي اينيا تسيو سيلونه التي قام بترجمتها عيسى الناعوري .

❊ « كان لي قلب » مجموعة شعرية للشاعر راضي صدوق صدرت عن دار الكتاب العربي ببيروت بتقديم قدري قلعجي .

❊ فرغ نهاد رضا من وضع كتابه الجديد « الادب الملحمي في القرون الوسطى » ويشتغل الآن في وضع كتاب عن « الاب القرنسي في عصر النهضة » وصدر له من قبل « الادب الثوري في القرن الثامن عشر » .

❊ صدرت مجموعة شعرية بعنوان « ظلال » للشاعر شمس الدين .

❊ سيصدر لصاحب « درب القمر » الفقيد فؤاد سليما كتاب جديد بعنوان « القناديل الحمراء » .

❊ صدرت للروائي امين غراب رواية بعنوان « الابواب المغلقة » .

❊ افتتحت في أواخر الشهر الماضي ببيروت الدورة الثانية للمؤتمر الاقليمي لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتكنولوجي واشترك في هذا المؤتمر الذي ترعاه منظمة اليونيسكو 12 دولة من بينها المملكة المغربية .

❊ يصدر الاديب اللبناني نبيل خوري مجلة شهرية بعنوان « قصة » ستكون مخصصة في نشر الانتاج القصصي العربي والاجنبي الى جانب الدراسات النقدية حول القصة .

❊ يصدر قريبا الاديب المصري المقيم في لبنان كتابا بعنوان « فلسفة لعصرنا الحاضر » وآخر كتاب صدر لرينه حبشي هو « حضارتنا على المفترق » .

❊ الشاعر المهجري الياس فرحات يصدر له في الايام الاخيرة ثلاثة دواوين هي : « موشحات برازيلية » و « طليعة الشتاء » و « فواكه رجعية » .

❊ يعد الكاتب العراقي ابراهيم السعيد كتابا بعنوان « رجال من الشرق » مشتملا على دراسات عن احمد لطفي السيد ، وعادل زعيتر ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى صادق الرافعي ، ومحمد اقبال ، وابراهيم صالح شكر .

❊ « كلمات » ديوان صدر حديثا للشاعر العراقي رشيد الاعظمي .

❊ اقيم في المركز الثقافي العربي بحمص مهرجان تخليدا لذكرى الشاعر المهجري نسيب عريضة عضو الرابطة القلمية في نيويورك برعاية وزير الثقافة العراقية

❊ كتاب « الحضارة الاوربية » لكلود دلماس قامت بترجمته الى العربية كوليت حبيب وقرينة الدكتور فؤاد ايوب .

❊ اوشكت مطابع دار الاصفهاني بجدة على الانتهاء من طبع كتاب عبد القدوس الانصري تحت عنوان « تاريخ مدينة جدة » .

❊ من المنتظر انشاء لجنة قومية لهيئة التعليم والثقافة الدولية وسيكون مقر هذه اللجنة في وزارة المعارف بالرياض ، وذلك لتوثيق التعاون بين السعودية وهيئة التعليم .

❊ صدر عن دار الثقافة الاسلامية بالرياض الجزء الاول من كتاب « احاديث الجمعة) للشيخ عبد الله بن حسن القعود .

❊ ستصدر مجلة جديدة للابحاث والدراسات عن معهد الادارة العامة بالسعودية .

❊ صدر في عمان الجزء الثاني من المجموعة الكاملة لمؤلفات الفقيد خليل السكاكيني ، وقد صدر الجزء الاول من هذه المجموعة في السنة الماضية .

❊ توفي أخيرا الفيلسوف الطبيعي الالماني فريدريش ديساور في فرانكفورت عن 72 سنة .

❊ ستصدر في فرانكفورت مجموعة أشعار للشاعر السوري نزار قباني باللغة الالمانية .

※ صدرت قصة « العيب » ليوسف ادريس باللغة الروسية في موسكو .

※ توفي الشاعر الكبير ناظم حكمت .

※ بمناسبة مرور خمس سنوات على تنفيذ اتفاقية التعاون الثقافي في القاهرة وموسكو ، سيقام معرض فني فوتوغرافي في هذا الشهر في كل من القاهرة وموسكو .

※ نعت باريس موسيقارها فرانسيس بولينك عن 64 سنة .

※ توفي القاص البوليسي جان بروس المشهور بقصصه البوليسية كما توفي في نفس العاصمة الروائي الفرنسي هنري بورد عن 93 سنة وهو عضو الاكاديمية الفرنسية .

※ احرز الكاتب الامريكي المشهور السيد ايلي ويزيل على جائزة الطابع العالمي للغة الفرنسية .

※ سيعقد في اسبانيا في شهر سبتمبر المقبل مؤتمر للطب تحت اشراف الهيأة الدولية التابعة للامم المتحدة ، وسيحضره الف خبير من جميع دول العالم

※ عقد في قرطبة ما بين 12 و 18 من شهر ماي الماضي مهرجان ثقافي اسلامي بمناسبة مرور الف سنة على ميلاد الاديب الاندلسي ابن حزم ، وقد اقيم في المهرجان عرض مسرحيات توفيق الحكيم مع انواع شتى من الرقص العربي والاغاني العربية على يد جمعيات نسوية وأدبية من مختلف الاقطار العربية ، كما القيت فيه عدة محاضرات عن كبار العلماء والادباء القرطبيين .

※ صدرت في اربعة اجزاء بايطاليا « دائرة معارف حضارات الشرق » وتعتزم اللجنة القومية التابعة لليونيسكو في ايطاليا بنقلها الى اللغات الاخرى .

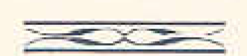
※ ابتكر في بريطانيا جهاز الكتروني شرع الآن باستخدامه في ميدان التعليم في المدارس الابتدائية اخترعه استاذان بالتعاون مع مهندس فني خبير في المعدات الالكترونية ويمتاز هذا الجهاز بالطريقة السهلة التي يقوم عليها في تلقين الدروس وحل العمليات الموجهة اليه بشكل اسئلة تكتب على شريط خاص وهو يعطي الجواب عن كل منها بوضوح ، وعمق مع شرح ضاف وتفصيلي بسرعة البرق الخاطف ، مما يجعل الطلاب يفقهون الدرس بصورة حسية توفر لهم عناء الجهاد والبحث .

※ تم اكتشاف جبلين تحت مياه المحيط الهادي اولهما يشبه البركان الشهير الموجود بجزيرة «كوكس» واطلق عليه نفس الاسم ويبلغ ارتفاعه 13 الف قدم وتقع قمته على عمق الفي قدم من سطح الماء ، والثاني اطلق عليه جبل « اونيتك » ويبلغ ارتفاعه سبعة آلاف قدم غربي سومطرة ، والمعتقد ان الجبلين جزء من قاعدة كبيرة اندثرت في اعماق المحيط .

※ « الدراسات العربية في المانيا : تطورها التاريخي ووضعها الحالي » ، عنوان كتاب صدر في بيروت لمؤلفه البرت ديتريس استاذ الدراسات الاسلامية في جامعة غوتنغن .

※ توفي في الشهر الماضي المؤرخ الامريكي والتر برسكوت ويب عن 75 سنة في حادثة سيارة .

※ من المشاريع الجديدة التي ينوي المجلس الاداري المركز الاسلامي بواشنطن ادخالها اليه هي : دعم برنامج تبادل المحاضرات ، والكتب بين المركز ومختلف الجامعات الامريكية ، كما ينوي المركز ايضا انشاء متحف يبرز خصائص الاسلام وحضاراته وآدابه لزوار المركز الذي يقدر عددهم بمليون شخص في السنة ، كما يعتزم المركز ايضا اصدار مجلة اختصاصية اربع مرات في السنة لنشر ابحاث اسلامية ، وقد ذكر مدير المعهد المذكور في هذا الصدد : ان الغاية من نشاط المعهد هو تعزيز العلاقات الطيبة والتفاهم المتبادل بين الولايات المتحدة والعالم الاسلامي .



فهرس العدد الثامن والتاسع ـ السنة السادسة